الاعتصام بالجماعة والائتلاف حول سنامها
أصل أصول الدين وحرز الأمة المكين

إن الحرص على تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وإصلاح ذات البين، والحذر من أن يكون الخلاف في المسائل الدينية والدنيوية سببًا في نقض عرى الأخوة، والولاء والبراء بين المسلمين، من أعظم أصول الشريعة ومقاصدها التي بنيت عليها.

ولا يختلف اثنان ممن ينتمون إلى الملة الإسلامية، إن تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، من قواعد الإسلام العظيمة، وأسس الدين المتينة، فقد أمر بها القرآن وحث عليها إجمالاً وتفصيلاً، تعظيمًا وتقديمًا؛ قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ الأنفال: ١، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ آل عمران: ١٠٣، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٠٥، وأمثال ذلك من النصوص كثير، التي تأمر بالجماعة وتحرض عليها، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وترهب منها، وتحذر من مآلاتها.

ولا ريب أن الخلاف في المسائل الفرعية العقدية والعملية، جرى بين الصحابة والتابعين من سلف هذه الأمة، مع محافظتهم على وحدتهم وجماعتهم، وتمسكهم بحبلها المتين الذي أمروا به، وأن العاصم من ذلك كله كان في رد النزاع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وابتغاء الحق وحده حيث كان، ومن أي مجتهد صدر – صحابي أو تابعي -، قال ابن تيمية: (وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩، وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين).

فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قد خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة، في أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رأى ربه، وقالت: (من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية)، وجمهور الأمة على قول ابن عباس رضي الله عنهما، مع أنهم لا يبدعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها، كما أنكرت عائشة رضي الله عنها؛ أن يكون الأموات يسمعون دعاء الحي، لما قيل لها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، فقالت: إنما قال: «إنهم ليعلمون الآن أن ما قلت لهم»، ومع هذا

فلا ريب أن الموتى يسمعون خفق النعال، كما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام»، وصح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، إلى غير ذلك من الأحاديث، وكذلك معاوية رضي الله عنه، نقل عنه في أمر المعراج أنه قال: (إنما كان بروحه)، والناس على خلاف معاوية رضي الله عنه، ومثل هذا كثير، لكننا لم نسمع من أحد أن هذا الاختلاف في التأويل والفهم والنظر بين الصحابة قد أدى إلى القطيعة بينهم أو الفرقة أو البغضاء.

وأما الاختلاف في الأحكام العملية التفصيلية فأكثر من أن ينضبط وكفى بما نقل عن الصحابة والتابعين والأئمة الأعلام من سلف هذه الأمة في خير القرون دليلاً، ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا، أو فريقان تشاجرا، أو طائفتان تناحرا، لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة، ولقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، سيدا المسلمين، يتنازعان الفكر والنظر في أشياء لا يقصدان بها إلا الخير، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم بني قريظة: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال قوم: لا نصلي إلا في بني قريظة، وفاتتهم العصر. وقال قوم: لم يرد منا تأخير الصلاة، فصلوا في الطريق، فلم يعب صلى الله عليه وسلم واحداً من الطائفتين، أخرجاه في الصحيحين، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فمراعاة الأخوة وعصمة الجماعة والموالاة بين المسلمين واجب محتم على الأفراد والجماعات، بحيث لا يؤثر عليها ما يقع من خلاف بسبب دواع اجتهادية، والعاصم من القاسم هو تقديم حق الله على حق النفس، فقد جعل الله عباده المؤمنين بعضهم أولياء بعض، إخوة متناصرين متراحمين متعاطفين، وأحاط ذلك كله بجملة من النواهي التي تحذرهم من الافتراق والاختلاف، فقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ آل عمران: ١٠٣، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ١٥٩، فكيف يجوز لأمة محمد صلى الله عليه وسلم مع هذا أن تفترق وتختلف حتى يوالي الرجل طائفة، ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى، وبلا برهان من الله تعالى، وقد برأ الله نبيه صلى الله عليه وسلم ممن كان هكذا، فهذا فعل الذين لا يرجون الخير لإخوانهم ولهذه الأمة.

والله العاصم من كل فرقة والحافظ من كل سوء

مدير التحرير
د. عز الدين بن زغيبة

الاعتصام بالجماعة والائتلاف حول سنامها أصل أصول الدين وحرز الأمة المكين

الاجتهاد الأصولي
عند متأخري المالكية
سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي أنموذجًا

د. عبد الله الجباري
المملكة المغربية

مقدمة

اشتهر فقهاء الإسلام بالنفَس الاجتهادي منذ لحظات التأسيس الأولى للمذاهب الفقهية؛ حيث لم يكن التلميذ مجرد ناقل لأقوال الشيخ ومردد لصداه، بل كان ذا ملكة نقدية، تسمح له بمناقشة شيخه والاختلاف معه إن اقتضى الحال، وهو ما وقع لأبي يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهما مع شيخهم أبي حنيفة النعمان، ووقع لغيرهم نظير ذلك وشبيهه، والأمر ذاته نجده في المذهب المالكي؛ حيث تميز بسيادة النفَس الاجتهادي لدى جيل المؤسسين، وهو ما أثمر مدارس عديدة داخل المذهب الواحد، مثل المدرسة المدنية برموزها من أمثال عثمان بن كنانة (ت: ١٨٥ هـ)، وعبد الله بن نافع الصائغ (ت: ١٨٦ هـ)، ومحمد بن مسلمة (ت: ٢٠٦ هـ)، وعبد الملك بن الماجشون (ت: ٢١٤ هـ). والمدرسة المصرية التي ظهرت مع روادها الأوائل مثل عثمان بن الحكم الجذامي (ت: ١٦٣ هـ)، وعبد الرحمن ابن القاسم (ت: ١٩١ هـ)، وعبد الله بن وهب (ت: ١٩٧ هـ)، وأشهب (ت: ٢٠٣ هـ) وغيرهم.

كما تشكلت المدرسة العراقية مع تلاميذ الإمام مالك نحو عبد الرحمن بن مهدي (ت:١٩٨هـ) وعبد الله بن مسلمة القعنبي (ت:٢٢١ هـ)، ثم تطورت واشتد عودها مع أساطين المذهب نحو القاضي إسماعيل بن إسحاق (ت: ٢٨٢ هـ)، والأبهري (ت:٣٧٥هـ)، وابن الجلاب (ت: ٣٧٨ هـ)، وابن القصار (ت: ٣٩٨ هـ) والباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) والقاضي عبد الوهاب (ت:٤٢٢هـ)، أما المدرسة المغربية فقد بذر نواتها الأولى علي بن زياد والبهلول بن راشد (كلاهما ت: ١٨٣هـ)، وأسد بن الفرات (ت:١٨٣هـ)، وسحنون بن سعيد (ت:٢٤٠هـ)، ثم استوت على سوقها مع دراس بن إسماعيل (ت:٣٥٧هـ) ومالك الصغير ابن أبي زيد القيرواني (ت:٣٨٦هـ).

لم يكن هذا الاختلاف بين المدارس داخل المذهب الواحد اختلاف تضاد وتناقض، بل كان اختلاف تنوع وتكامل؛ حيث أثرى الدراسات الفقهية وأغناها، كما كان ميسمًا دالاً على حيوية المذهب المالكي وإيمانه بالاجتهاد، ومما تجلى من خلال سردنا لأهم أعلام المدارس المالكية أن الاختلاف لم يقع بين علماء المذهب في مراحل متأخرة، بل ظهر مع جيل الرواد المؤسسين، ولم تكن الاختلافات بينهم قليلة ونادرة، بل كانت عديدة وكثيرة، وأحيانًا كان اختلافهم مع إمام المذهب نفسه، مما يدل على عدم تقديسهم لآرائه، رغم جلالته وعلو قدره، وهو ما انتبه إليه غير واحد، فأُفرد بالتصنيف لأهميته وطرافته[1].

ولم يقتصر تمسك المالكية بالاجتهاد على جيل المؤسسين فحسب، بل استمر عبر العصور، فبرز أمثال أبي عمر بن عبد البر (ت: ٤٦٣ هـ) الذي أداه اجتهاده أحيانًا كثيرة إلى تبني آراء مذهب مغاير، قال عنه الحميدي: "يميل في الفقه إلى أقوال الشافعي"، وقال عنه الإمام الذهبي: "ثم تحول مالكيًا مع ميل بيّن إلى فقه الشافعي في مسائل، ولا ينكر له ذلك، فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين"[2]. ثم بزغت في سماء المذهب المالكي شمسُ القاضي أبي بكر بن العربي (ت: ٥٤٣ هـ) الذي قال: "وهل أنا إلا ناظر من النظار، أدين بالاختيار، وأتصرف في الأصول بمقتضى الدليل؟"[3]، وقال عنه الإمام الذهبي: "كَانَ القَاضِي أَبُو بَكْرٍ مِمَّنْ يُقَالَ: إِنَّهُ بلغَ رُتْبَة الاجْتِهَاد"[4]، وظهر بعد ابن عبد البر وابن العربي أعلام كثر من مجتهدي المالكية، مثل القاضي عياض السبتي وابن بزيزة التونسي والشهاب القرافي وابن عرفة الورغمي وغيرهم من الأعلام، ونظرًا لتعددهم وكثرة اجتهاداتهم، فإننا قد نجد في المسألة الواحدة خمسة أقوال أو أكثر[5].

لم ينحصر اجتهادهم في الفروع الفقهية فقط، بل امتد نفَسهم الاجتهادي إلى الجانب الأصولي أيضًا، وهو ما وقع لأبي الوليد ابن رشد الذي نزع صفة الحجية والدليل عن **عمل أهل المدينة**، رغم أنه من تفردات المذهب المالكي التي يتميز بها عن باقي المذاهب الفقهية، قال ابن رشد رحمه الله: "لكن النظر في هذا الأصل الذي هو **العمل** كيف يكون دليلاً شرعيًا، فيه نظر"[6]، وبعد خلع الحجية عن هذا الأصل، فإنه لا يتجاوز كونه قرينة عنده، وهو ما أفصح عنه بقوله: "وَبِالْجُمْلَةِ، **الْعَمَلُ** لَا يُشَكُّ أَنَّهُ قَرِينَةٌ إِذَا اقْتَرَنَتْ بِالشَّيْءِ الْمَنْقُولِ، إِنْ وَافَقَتْهُ أَفَادَتْ بِهِ غَلَبَةَ الظَّنِّ، وَإِنْ خَالَفَتْهُ أَفَادَتْ بِهِ ضَعْفَ الظَّنِّ، فَأَمَّا هَلْ تَبْلُغُ هَذِهِ الْقَرِينَةُ مَبْلَغًا تُرَدُّ بِهَا أَخْبَارُ الْآحَادِ الثَّابِتَةُ فَفِيهِ نَظَرٌ"[7]، وقال أيضًا: "فمن رأى **إجماع أهل المدينة حجة**؛ لأنهم الأكثر في أول الإسلام؛ فلا معنى له"[8].

ونظير ذلك موقف الإمام الشاطبي من دلالة العام؛ حيث أداه اجتهاده إلى موافقة الحنفية في قطعية دلالة العام على أفراده[9]، وهو مخالف في هذا الاجتهاد لما أطبق عليه المالكة من ظنية دلالة العام على أفراده.

ورغم اختلاف أبي الوليد بن رشد وأبي إسحاق الشاطبي مع المالكية في قضايا أصولية، إلا أنهم لم يضيقوا ذرعا بهما، ولم يعلنوا براءتهم منهما وخروجهما عن المذهب، بل اعتزوا بهما، وطرزوا كتب أعلام المالكية بترجمتيهما، وكانا الملجأ في الفتوى، وكل هذا يدل على مرونة المذهب المالكي وسعة صدر فقهائه وأعلامه، وتبنيهم للاجتهاد وقبولهم لنتائجه وآثاره.

الانحراف عن الاجتهاد:

وقع في العصور المتأخرة انحراف في المذهب؛ حيث حاد كثير من متأخري المالكية عن المنهج الذي رسمه علماء المذهب والتزموا بهديه، فنحوا نحو التقليد، ونأوا بأنفسهم عن الاجتهاد، وذلك تحت عدة دعاوى، أهمها:

- دعوى سد باب الاجتهاد وإغلاقه، وإذعان كثير من الفقهاء لهذا الإغلاق وانصياعهم له.
- دعوى منع الاستدلال بالحديث النبوي والاشتغال به، وضرورة اقتصار الفقيه على التعامل مع الفروع الفقهية والفتاوى والنوازل مجردة عن الدليل، واستدلوا لهذه الدعوى بمقولة عبد الله بن وهب [الحديث مضلة إلا للفقهاء] مفصولة عن سياقها، قال أبو العباس أحمد الونشريسي (ت: ٩١٤ هـ): "نص الأئمة المحققون من علمائنا رضي الله عنهم وأرضاهم على أن المقلد الصرف مثلي ومثل من اشتملت عليه هذه الأوراق، من الأصحاب وأكبر منا طبقة وأعلى منزلة وأطول يدًا، ممنوع من الاستدلال بالحديث وأقوال الصحابة رضي الله عنهم، بل ذلك عندهم من الأوليات"(١٠)، وحكى التسولي في شرح التحفة أن المقلد لا يجوز له أن يطرح نص إمامه ليعمل بالحديث وإن حكم إمامه أو غيره بصحة ذلك الحديث(١١)، فإذا كان التعامل بالحديث النبوي فهمًا واستدلالاً محظورًا على الونشريسي وأمثاله ومن هم أعلى طبقة منه، فكيف يمكن للفقه أن يتطور ويواكب الحياة ومستجداتها؟

مظاهر التقليد:

ولِفُشُوّ التقليد وانتشاره بين الفقهاء مظاهرُ عديدة، يمكن رصدها من خلال الآتي:

- إعراض متأخري المالكية عن المصنفات الرئيسة في المذهب، ومنها **الموطأ** للإمام مالك بن أنس رحمه الله، على نفاسته وقيمته العلمية، إذ يشكل مادة غميسة تفيد الفقيه بما يحتويه من ثروة حديثية، وثقافة فقهية.
- الاعتماد على المختصرات أو المنظومات في المذهب، وإفراغ الوسع في تدريسها وتصنيف الشروح والحواشي والطرر عليها، وذلك من أجل حل مقفلها، وتوضيح عباراتها؛ لأنها صارت مثل الألغاز لكثرة الاختصار والمبالغة فيه، وليتهم تعاملوا مع المختصرات والمنظومات تعاملا بيداغوجيًا، يعملون من خلالها على تقريب المذهب للمبتدئين، وبعد مدة وجيزة

يتقلونهم إلى التعامل مع الموطأ وغيره من المصنفات الأصيلة؛ لكن بعض الفقهاء كانوا يفنون أعمارهم مع ذلك المختصر، يدرسونه للطلبة في الجامع/المعهد، ويدرسونه للعوام في المسجد، ويدرسونه في البيوت للخاصة أو لأهلهم وذويهم، ويسجلون بعض الملاحظات المتعلقة به في كناشات خاصة، وقد يجمعون تلك الملاحظات في حاشية يضعونها على شرح سابق، وهكذا، ونظرًا لولعهم بتلك المختصرات، فإنهم يُعلون من قدرها، ويرفعونها إلى درجة التقديس(١٢)، وفي هذا من الانحراف عن المنهج السليم ما لا يخفى.

- التميز بين المشهور والراجح، والاعتماد على الأول والإفتاء به، مع أن المنطق السوي يفرض على الفقيه العمل بالراجح؛ لأن قوته ذاتية نابعة من قوة دليله، أما المشهور فقوته خارجية نابعة من كثرة قائله، قال الشيخ موسى بن علي الوزاني: "فمخالفة المشهور لغير ضرورة في المسألة دليل على الاستخفاف والتهاون والتلاعب بالدين"(١٣).

عدم انقطاع الاجتهاد:

رغم الانحراف نحو التقليد والركون إليه، ظهر في المذهب المالكي بعض العلماء ممن ادعى الاجتهاد أو نُسب إليه، وهم في الغالب الأعم، من الأعلام الذين رفعوا شعار التجديد من داخل المذهب، حفاظًا على نضارته ووضاءته، مثل الشيخ أبي علي الحسن اليوسي والشيخ الطيب بنكيران والشيخ حمدون بن الحاج وسيدي محمد ابن جعفر الكتاني والشيخ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي وغيرهم، ويمكن أن نخصص بحثنا لأحد متأخري المالكية، وأحد أعيان مشاهير المذهب في منطقة سجلماسة بالمغرب الأقصى، العلامة أحمد ابن مبارك السجلماسي اللمطي، الذي قيل فيه وفي تلميذه أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي: "لولا الأحمدان لذهب المعقول من المغرب"(١٤).

التعريف بالشيخ أحمد بن مبارك السجلماسي:

هو أبو العباس سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي(١٥) الصديقي(١٦) الفيلالي، ولد بسجلماسة سنة ١٠٩٠ هـ، وبها حفظ القرآن الكريم بالروايات السبع على ابن خالته الشيخ الصوفي أحمد الحبيب، كما تلقى ببلدته مبادئ العلوم، ثم توجه إلى فاس سنة ١١١٠ هـ(١٧)، وتلقى العلم عن جلة شيوخها، منهم شيخ الجماعة بفاس القاضي أبو عبد الله محمد العربي بردلة، والشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي، والشيخ أبو الحسن علي الحريشي، وأبو عبد الله المسناوي، وغيرهم(١٨)، ولم يرحل إلى المشرق لأداء مناسك الحج أو غير ذلك؛ لهذا السبب كان شيوخه من المغاربة فقط(١٩)، وبعد ذلك تصدر للتدريس بجامع القرويين، وبضريح سيدي أحمد بن يحيى(٢٠)، وكانت دروسه متنوعة بين الفقه والحديث والتفسير والأصول والبيان والمنطق والكلام(٢١)،

وتتلمذ له نخبة من الطلبة ممن صاروا من فحول العلماء، منهم العلامة أبو عبد الله محمد التاودي بن سودة (ت: ١٢٠٩ هـ)[٢٢]، ومفتي المالكية بتونس أبو العباس أحمد المكودي (ت: ١١٩٦ هـ)[٢٣]، وأبو العلاء إدريس العراقي الفاسي (ت: ١١٨٣ هـ)[٢٤]، والشيخ أبو حفص عمر بن عبد القادر، أشهر علماء تنلان بمنطقة توات[٢٥]، والشيخ أحمد ابن عبد العزيز الهلالي، وغيرهم من الأعلام من المغرب وخارجه.

أثنى عليه غير واحد من العلماء، فوصفه تلميذه أبو حفص التنلاني بقوله: "كان علامة حافظًا نظارًا، يطيل في المناظرة لا يكاد ينقطع، متفننًا، جامعًا بين المعقول والمنقول، والدراية أغلب عليه من الرواية، وأكثر دروسه في العلم المعقول، (كان) واسع الصدر مع الطلبة يباحثونه في مجلسه، ويثبت لمباحثهم، ولا يضجر منها، يطيل النفس معهم في ذلك، وربما مضى وقت الدرس وهو مع الباحث في مسألة"[٢٦]، أما العلامة الحجوي الثعالبي فحلاه بالإمام المتبحر النظار[٢٧]، ووصفه صاحب **شجرة النور الزكية** بقوله: "الفقيه المحدث المفسر، العلامة النحرير، القدوة الفهامة الشهير، خاتمة المحققين، والعلماء العالمين، والفضلاء البارعين"[٢٨]، ووصفه أستاذنا الدكتور أحمد الريسوني بأحد "فطاحل النظار"[٢٩]، ولتمكنه من علم الحديث، وصفه غير واحد بالحافظ، مثل المحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني؛ حيث حلاه بقوله: الحافظ المتضلع المتبحر"[٣٠]، والمحدث السيد عبد الحي الكتاني الذي وصفه بقوله: "العلامة الحافظ المتبحر"[٣١]، وغير ذلك من الشهادات الصادرة عن تلاميذه وغيرهم من العلماء، وكلها مطبقة على نبوغه واجتهاده، ورسوخ قدمه في العلوم والمعارف.

أثرى أحمد بن مبارك السجلماسي المكتبة الإسلامية بعدد من المؤلفات والرسائل في فنون شتى، منها:

- تحرير مسألة القبول، على ما تقتضيه قواعد الأصول[٣٢]،
- إنارة الأفهام، بسماع ما قيل في دلالة العام[٣٣]،
- الفتوحات الربانية، في شرح المنظومة الدالية[٣٤]؛
- أسئلة تتعلق بالسبكي وشارحه المحلي[٣٥]، أو الأجوبة السبكية.
- مسألة النفقة على العالم، على من تكون؟[٣٦].
- رد التشديد، في مسألة التقليد[٣٧].
- الإبريز، في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ[٣٨].

وغير ذلك كثير من المؤلفات التي بذل الأستاذ ابن منصور[٣٩] جهدًا مشكورًا في سردها، والتعريف بها، إضافة إلى ذلك؛ له فتاوى عديدة؛ لم أطلع عليها مجموعة، وقد ورد بعضها مفرقًا في **المعيار الجديد** للسيد المهدي الوزاني[٤٠].

صرح الشيخ ابن مبارك أنه بلغ رتبة الاجتهاد المطلق[٤١]، وكان كثير المناقشة

للعلماء، ولا يبالي في انتقادهم إن تبين له رأي مخالف لهم، فناقش الشاطبي والغزالي وإمام الحرمين في **تحرير مسألة القبول**، وانتقد القرافي وغيره في **إثارة الأفهام**، وانتقد ما قرره الأشاعرة من وجوب النظر في **رد التشديد**.

ورغم شهرته، فإنه كان زاهدًا في الدنيا، متأثرًا بشيخه في طريق التصوف الشيخ الشريف سيدي عبد العزيز الدباغ، وكان في أوج تفوقه العلمي، وكان له أتباع وتلاميذ ومحبون، ومع ذلك تراه "يتعيش من كد يمينه، وعرق جبينه، فكان يتجر ويتعاطى الفلاحة وتربية الماشية، ويحرص على جمع المال، يرى أن ذلك أحفظ لكرامته من الاعتماد على الصدقات ومعونات الأوقـاف"[٤٢]، وكان شديد **التأدب مع العلماء**، حريصًا على ذلك، فينتقي عباراته أثناء مناقشتهم ولو كان مختلفًا معهم، ففي معرض رده على الإمام القرافي أو الإمام الشاطبي أكثر من ذكر اسميهما مشفوعًا بعبارة "رضي الله عنه"[٤٣]، ومن حسن أدبه رحمه الله تعالى، أنه أسهب في الرد على الإمام الشاطبي، وختم الفصل بقوله: "ومع ذلك، فالإمام الشاطبي رضي الله عنه إمام كبير، وعالم شهير؛ لا نبلغ قطرة من بحاره الزاخرة، ولا نتجاوز نقرة من أنوار علومه الزاهرة، رزقنا الله رضاه، وحشرنا في حماه، بمنه وفضله"[٤٤]، ولما انتقد الإمام الغزالي، قال ما نصه: "أبو حامد رضي الله عنه، وإن كان تاجًا في هامة الليالي، وعقدًا في لبة المعالي، وعالم الدنيا والدين، وإمام الإسلام والمسلمين"[٤٥]، وهي عبارات تعكس بجلاء دماثة أخلاق هذا العالم، ومبلغ تأدبه مع علماء الأمة، أما **التواضع** فكان فيه مضرب المثل، وقد سطر عبارات كثيرة في كتبه تدل على ذلك، منها قوله عن نفسه: "أفقر العبيد وأضعفهم وأحوجهم إلى رحمة مولاه الغني العلي"[٤٦]، وحكى عنه ذلك تلميذه أبو حفص التتلاني بقوله: "كان حفظه الله متواضعًا صاحب طريقة"[٤٧].

النفس الاجتهادي عند الشيخ أحمد بن المبارك السجلماسي:

أطبق مترجمو الشيخ سيدي أحمد بن مبارك على وصفه بالاجتهاد، وهو الوصف الذي نحاول تلمسه من خلال مجموعة من القضايا التي تطرق إليها الشيخ في بعض مصنفاته، منها:

✓ كل العمومات دخلها التخصيص إلا قوله تعالى: "والله بكل شيء عليم":

تناقل الأصوليون في مصنفاتهم مقولة مفادها أن كل العمومات دخلها التخصيص، إلا قوله تعالى "والله بكل شيء عليم"[٤٨].

- قال إمام الحرمين: "ثم علمنا قطعًا أن جميع الألفاظ المتعلقة بالأحكام من الكتاب والسنة يتطرق إليها الخصوص، وإن استوعب الطالب عمره مكبًا على الطلب الحثيث فلا يطلع على عام شرعي لا يتطرق إليه الخصوص"[٤٩].
- قال الإمام الغزالي: "فَإِنَّ جَمِيعَ عُمُومَاتِ الشَّرْعِ مُخَصَّصَةٌ بِشُرُوطٍ فِي الْأَصْلِ،

الاجتهاد الأصولي عند متأخري المالكية سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي أنموذجًا

وَالْمَحَلِّ، وَالسَّبَبِ، وَقَلَّمَا يُوجَدُ عَامٌّ لَا يُخَصَّصُ، مِثْلُ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٥٠) فَإِنَّهُ بَاقٍ عَلَى الْعُمُومِ"(٥١).

- قال الآمدي: "حَتَّى إِنَّهُ قَدْ قِيلَ: لَمْ يَرِدْ عَامٌّ إِلَّا وَهُوَ مُخَصَّصٌ إِلَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ جَائِزًا لَمَا وَقَعَ فِي الْكِتَابِ"(٥٢).

هذه نقول عن علماء الأصـول، تفيد بمجموعها أن ندرة العمومات الباقية على عمومها وقلّتها أمرٌ معلوم عند أرباب هذا الفن، يكاد يكون من المسلّمات عندهم؛ لكن العلامة أحمد بن مبارك السجلماسي لم يسلّم لهم الأمر، وأخضعه إلى اجتهاده، وعمل على نقضه من أساسه، فعمد إلى سورتي النساء ويس، وتتبع آياتهما، واستخرج منهما عمومات عديدة لا مدخل للتخصيص فيها، فقال: "وقد تتبعت صدرًا من سورة النساء في سويعة، فوجدت فيها عمومات كثيرة، دل الإجماع أو العقل على أنه لا يدخلها تخصيص، وكذا سورة يس"(٥٣)، وأورد عددًا وافرًا من الآيات من السورتين المذكورتين ومن غيرهما، مثل قوله تعالى:

- ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ﴾ [سورة النساء: ٢٣].

- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾. [سورة يس: ١٢].

- ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾. [سورة هود: ٦].

- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. [سورة الفاتحة: ٢. سورة يونس: ١٠. سورة الزمر: ٧٥. سورة غافر: ٦٥].

هذه نماذج وأمثلة من الآيات التي أوردها السجلماسي رحمه الله تعالى ردًا على الأصوليين، ونقضًا لـ"مسلّمتهم"، وكلها "لا يتطرق إليها تخصيص بدليل الإجماع في بعضها، والعقل في بعضها، استقْريت من مواضع قليلة في كتاب الله عز وجل، فكيف لو استقْرئ جميعه؟ فكيف لو خرج الطالب المكب على الطلب الحثيث إلى السنة؛ لوجد في ذلك ما لا يحصى كثرة"(٥٤).

لا يخفى على ذي لب أن الإمــام ابن مبارك لم يكن مقلدًا لغيره في هذه المسألة، ولم يخضع لسلطة مقولةٍ كاد يحصل عليها الإجماع، خصوصًا أن جمهور العلماء من قبله ومن بعده قد تأثروا بها، وتناقلوها في مدوناتهم وكتبهم، منهم الأستاذ عبد الوهاب خلاف من المعاصرين(٥٥). وقد سلك ابن مبارك مسلكًا علميًا محضًا، دون خشية من مخالفة فحول العلماء وجهابذتهم؛ لذلك لم يكن تلميذه القادري مبالغًا حين قال عنه: "ينفرد بأقوال من عندياته، يُجريها على ما يظهر له، ولا يبالي بمن يخالفه"(٥٦)، وهو ما نوّه به أستاذنا الدكتور أحمد الريسوني حين قال: "وقيمة موقف السجلماسي هذا

لا تكمن فحسب في تصحيحه لقضية كبيرة وخطيرة غفل عنها جمهور عريض من المفسرين والأصوليين، ولكنها تكمن في التحرر من التقليد، ومن المنهج التقليدي، ولجوئه إلى إعادة البحث والنظر، وإرجاعه الأمور إلى أصولها ومنابعها بدون وسائط ولا حواجز"(٥٧).

✓ دلالة العموم بين القطع والظن:

قد يعدّ البعض مناقشة العلامة ابن مبارك لـ"مسلمة" الأصوليين مما لا طائل تحته، إلا أن المتتبع لـ **موافقات** الإمام الشاطبي يدرك لا محالة أهميتها وخطورتها، ولعلها السبب الرئيس في مخالفة الإمام الشاطبي لما تقرر في المذهب المالكي من ظنية دلالة العام على أفراده، فمالَ إلى القول بقطعية دلالته وفاقًا لجمهور الحنفية، وهو ما سنعمل على تجليته من خلال الآتي:

المقدمة الأولى: العمومات هي غالب الأدلة الشرعية وعمدتها.

المقدمة الثانية: ما من عام إلا وقد خص، والعام إذا خص هل يبقى حجة أم لا؟ في ذلك خلاف.

النتيجة: معظم الشريعة مختلفٌ فيه، هل هو حجة أم لا؟

وهذه النتيجة بلا ريب "من المسائل الخطيرة في الدين"(٥٨)، حسب عبارة الإمام الشاطبي، وهو ما سيؤدي بنا "إلى شناعة أخرى، وهي أن عمومات القرآن ليس فيها ما هو معتد به في حقيقته من العموم؛ وإن قل بأنه حجة بعد التخصيص؛ وفيه ما يقتضي إبطال الكليات القرآنية، وإسقاط الاستدلال به جملة، إلا بجهة من التساهل وتحسين الظن؛ لا على تحقيق النظر و**القطع** بالحكم، وفي هذا إذا تؤمل توهين الأدلة الشرعية، وتضعيف الاستناد إليها"(٥٩).

خلاصة رأي الإمام الشاطبي أن الاختلاف في حجية العام يسقطه عن درجة ما أسماه "القطع بالحكم"، وإذا سقط عن درجة القطع فإنه لا محالة ظني، بحيث لا يُستدل به "إلا بجهة من التساهل وتحسين الظن"، وهو ما عبر عنه جمهور الأصوليين بقولهم: "دلالة العام على أفراده ظنية"، بخلاف جمهور الحنفية الذين قالوا بقطعيتها، وهو ما مال إليه الشاطبي؛ لأن القول بالظنية "مخالف لكلام العرب، ومخالف لما كان عليه السلف الصالح من **القطع** بعموماته التي فهموها تحقيقًا، بحسب قصد العرب في اللسان، وبحسب قصد الشارع في موارد الأحكام"(٦٠).

ومما يُحمد للعلامة أحمد بن مبارك ويُحسب له، أنه غير مسبوق في مناقشة الإمام الشاطبي في هذه القضية؛ حيث لم أقف على أحد من مالكية الغرب الإسلامي وقف مناظرًا ومناقشًا له(٦١)، أما ابن مبارك فعمد إلى كلام الشاطبي، ورد عليه من تسعة أوجه، أكتفي بإيراد واحد منها:

قرر الإمام الشاطبي أن طريقة الأصوليين مع العام وتعاملهم معه يستلزم القدح في أدلة الشريعة، ويؤدي إلى توهينها "وتضعيف

الاستناد إليها"، فنبه ابن مبارك إلى أن هذا الكلام يلزم عليه أحد أمرين:

الأول: إما القول بأن أحكام الشريعة لا تستفاد من الظنون، وأنه يُشترط فيها القطع، وهو ما لم يقله إلا المبتدعة[٦٢]، إضافة إلى أنه مخالف لمنهج الصحابة الذين لم ينكروا على المختلفين في الفرائض (الجد والإخوة، العول ...)؛ حيث كانوا "يتشاورون ويتفرقون مختلفين؛ لا يعترض بعضهم على بعض، ولا يفسق بعضهم بعضًا، ولو كان في المسألة دليل قطعي لأثم بعضهم بعضًا، ولما صبر له أصلاً"[٦٣]، على عكس ما فعلوا مع مانعي الزكاة؛ لأنها ثابتة بالأدلة القطعية.

الثاني: وإما القول بأن العمومات إذا دخلها تخصيص تنحط دلالتها عن الظن، وهو ما لم يقله إلا بعض القدرية، وبعض الأحناف الذين نصّوا على أنه يصير مجملاً بعد التخصيص، فلا يكون حجة في الباقي، وهو مخالف لمنهج الصحابة رضي الله عنهم.

وبما أن الإلزامين باطلان، فإن ابن مبارك يخلص إلى أنه "لم تبق فائدة لعدول الشاطبي رضي الله عنه عن طريقة الأصوليين، إذ هي عين ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين"[٦٤].

والإمام ابن مبارك في نقده للإمام الشاطبي لم يكن مقلدًا، بدعوى أنه موافق للمذهب ومنتصر له، بل كان محاججًا ومناظرًا، وموافقته للمذهب في هذه القضية كانت موافقة اجتهاد لا موافقة تقليد، ولو كان مقلدًا لما تجاوز حد النقل عن السابقين وإيراد أقوالهم كما هي عادة المقلدين.

✓ دلالة العام بين "الكل" و"الكلية":

أثارت مباحث العموم نقاشًا طويلاً بين علماء الأصول، وهو ما نجده بقوة في مكتوبات الإمام أحمد بن مبارك، وخصص له رسالة طريفة بعنوان إنارة **الأفهام، بسماع ما قيل في دلالة العام**، وقد ناقش فيها الإمام القرافي في مسائل دقيقة جدًا، منها مدلول العام، هل هو "كلي" أو "كل" أو "كلية"؟

يتجلى رأي الإمام القرافي من خلال تمييزه بين هذه المدلولات، وهي:

الكلي: هو القدر المشترك بين الأفراد، ويصدق بفرد واحد في سياق الإثبات، [مثل: رجل].

الكل: هو المجموع بحيث لا يبقى فرد، والحكم يتناول مجموع الأفراد في سياق الإثبات، [مثل قولنا: عنده عشرة، يدل على ثبوت التسعة والسبعة ...]، ولا يتناول مجموع الأفراد في سياق النفي، [مثل قولنا: ليس عنده عشرة؛ لا يلزم منه نفي جميع أفرادها، فجاز أن يكون عنده تسعة أو سبعة ...].

الكلية: هي ثبوت الحكم لكل واحد بحيث لا يبقى واحد، [مثل قولنا: كل إنسان يشبعه رغيفان].

وبما أن العام هو الذي يقتضي ثبوت حكمه لكل فرد منه في سياق النفي والنهي،

فإن ذلك لا يتحقق إلا إذا كان مسماه "**كليّة**" لا "**كلا**"[٦٥]؛ لأن الأخير لا يصدق إلا إذا كان مركبًا من شيئين فصاعدًا[٦٦].

هذا هو رأي الإمام القرافي، وقد بنى عليه أمورًا عدة؛ لذلك تجده في **شرح المحصول** يؤسس عليه قضايا أخرى، فيقول: "إذا علمت أن صيغ العموم مدلولها كلية لا كلي" أو "إذا تقرر أن مدلول العمومات كلية لا كلي"[٦٧]، وغيرهما من عباراته، وهو ما لم يقبله الإمام أحمد بن مبارك السجلماسي، فبيّن أن العام "**كل**"، وليس "**كلية**"، وذلك وفق البرهان الآتي:

- إذا أردنا أن نبين أن العام "كل"، وأن له جزءًا، فيجب أن نبين أنه ليس بـ"كلية"؛
- إذا أردنا أن نبين أن العام ليس بـ"كلية"، فيجب علينا أن نبين أنه ليس بـ"قضية"؛
- وإذا أردنا أن نبين أن العام ليس بـ"قضية"، فيجب علينا أن نبين أنه ليس بـ"مركب"؛
- وإذا أردنا أن نبين أنه ليس بـ"مركب"، فيجب علينا أن نبين أنه "مفرد"[٦٨].

وعليه، فإن أهم شيء عند ابن مبارك هو إثبات كون العام "مفردًا"، وإذا ثبت له ذلك ثبت أنه "كل".

استدل ابن مبارك على إفرادية العام بالآتي:

- من أمثلة العام: [الرجل، المشركون، المؤمنون ...]، وهي مفردات.
- العام مقابل للخاص، ومثال الخاص [زيد] وهو "مفرد"، وهو صريح في أن العام "مفرد" مثله[٦٩].
- "المطلق" و"المعرفة" و"النكرة" و"العدد" مفردات قطعًا، فلزم أن يكون العام "مفردًا" قطعًا[٧٠].
- أمثلة الإفرادية في العام لا تكاد تنحصر، نحو "الزانية" و"الزاني" و"الكافرون" و"الظالمون" و"الفاسقون" ...

بهذه الاستدلالات يقطع العلامة ابن مبارك بأن العام "مفرد"، وبناء على البرهان السالف، فإن العام:

- إذا "كان **مفردًا** قطعًا، انتفى عنه **التركيب** قطعا؛
- وإذا انتفى عنه **التركيب** قطعًا، انتفى أن يكون **قضية** قطعًا؛
- وإذا انتفى أن يكون **قضية** قطعًا، انتفى أن يكون **كلية** قطعًا"[٧١]؛

فصَحّ أنه **كل**.

لم يكتف ابن مبارك السجلماسي بهذا البرهان، فتوسل بمنهاج السبر والتقسيم للدلالة على أن العام **كل**، وذلك أن اللفظ إما أن يكون كلا أو كلية أو كليًا أو جزءًا أو جزئية أو جزئيًا.

- والعام ليس **كلية** ولا **جزئية**؛ لأنهما من المركبات، بل من القضايا. والعام ليس بمركب.
- العام غير **كلي**؛ لأن **الكلي** هو المطلق.
- العام غير **جزئي**؛ لأن **الجزئي** موضوعُ القضية الشخصية، والعام

الاجتهاد الأصولي عند متأخري المالكية سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي أنموذجًا

ليس بموضوع في القضية الشخصية.

- العام ليس **جزءًا**؛ لأن حقيقة **الجزء** هي ما تركب منه ومن غيره كل.

فظهر "بهذا الدليل انتفاء الكلية والجزئية والجزئي والجزء والكلي عن العام، فتعين أنه **كل**"(٧٢).

يتبدى مما سبق أن الإمام ابن مبارك سلك مسلك كبار المجتهدين في مناقشة القرافي رحمه الله، ولم يكن مقلدًا البتة، بحيث برهن على رأيه بالمنطق السديد، والبرهان الناصع، وبعد ذلك عزز رأيه بآراء علماء النحو والأصول، كلها تفيد أن العام "كل"، وليس "كلية" كما ذهب إلى ذلك الإمام القرافي رحمه الله تعالى، ولو كان مقلدًا لاكتفى بتلك النقول، ففيها غناء وكفاية.

✓ دلالة العام، هل هي من قبيل التضمن أم الالتزام أم المطابقة؟

لهذه المسألة تعلق وثيق بالتي قبلها؛ لأن الإمام القرافي لما قرر أن دلالة العام "كلية"، ترتب عن ذلك أن ثبوت الحكم على فرد من أفراد العام لن يكون إلا بدلالة **الالتزام**، فقال: "والكلية: هي ثبوت الحكم لكل واحد بحيث لا يبقى واحد، ويكون الحكم ثابتًا للكل بطريق **الالتزام**، وهذا كصيغ العموم كلها"(٧٣). لكنه في موضع آخر ينفي هذه الدلالة وغيرها، وبيانه من خلال الآتي:

حصر العلماء دلالات الوضع في ثلاث: دلالة **التضمن**، ودلالة **المطابقة**، ودلالة **الالتزام**، ونفى القرافي جميعها عن دلالة العام.

➢ **دلالة المطابقة**: هي دلالة اللفظ على مسماه بتمامه.

إذا قلنا "زيد من المشركين"، فإن لفظ العموم لم يوضع لـ[زيد] فقط فانتفت دلالة المطابقة.

➢ **دلالة التضمن**: هي دلالة اللفظ على جزء مسماه.

وبما أن الجزء لا يصدق إلا إذا كان المسمى "كلا"، فإن [زيدًا] لا يكون جزءًا، فانتفت دلالة التضمن.

➢ **دلالة الالتزام**: هي دلالة اللفظ على لازم مسماه.

وبما أن لازم المسمى يجب أن يكون خارجًا عن المسمى، و[زيد] ليس خارجًا عن مسمى العموم، فانتفت دلالة الالتزام(٧٤).

وأبطل القرافي الدلالات الثلاث في **شرح التنقيح** أيضًا، وطرح سؤالاً حول حصر دلالات الوضع في ثلاث، ثم قال: "هذا سؤال صعب وقد أورده في **شرح المحصول** وأجبت عنه بشيء فيه نكادة وفي النفس منه شيء"(٧٥)، وهي عبارة تدل على حيرة القرافي رحمه الله تعالى في الموضوع، ولعلها السبب الذي جعلته يفكر في العمومات وما يتعلق بها، فأفردها بالتأليف في مصنف خاص، كرر فيه رأيه في إبطال الدلالات الثلاث؛ لكنه استدرك دلالة رابعة لحل الإشكال، فقال: "إن دلالة [اللفظ العام] على ثبوت حكمه لفرد من أفراده خارجة عن

الدلالات الثلاث المقررة في الألفاظ، وهي: المطابقة، والتضمن، والالتزام، ولم يذكروا لها قسمًا رابعًا، وهذه الدلالة في باب العموم قسم رابع، وهي نقض عليهم"[٧٦] وهذه الدلالة الرابعة أسماها: **دلالة لفظ الكلية على الجزئية**[٧٧].

ليس من السهل أن يقتحم المرء هذه الساحة لمناقشة أحد فحول أئمتها؛ لذلك وجدنا أثرًا لإشكالات الإمام القرافي في مدونات من بعده من الأصوليين؛ لكننا لم نجد لأحدهم ردًا مسهبًا عليه، مثال ذلك:

- قال الإمام السبكي رحمه الله: "إذا تقرر هذا، فهنا سؤال قوي شغف به الشيخ أبو العباس القرافي، وهو أن دلالة العموم على كل فرد من أفراده نحو [زيد المشرك] مثلاً من المشركين؛ لا يمكن أن يكون بالمطابقة ولا بالتضمن ولا بالالتزام"، ثم قال: "فتبين بطلان دلالة لفظ العموم على [زيد] بشيء من هذه الثلاثة، والدلالات القاصرة فيها تبطل أن يدل لفظ العموم مطلقًا، وقد سار هذا السؤال غورًا ونجدًا، ولم أر من أجاب عنه إلا الشيخ شمس الدين الأصفهاني في **شرح المحصول**"[٧٨].
- قال جمال الدين الإسنوي: "صيغة العموم مسماها **كلية**، ودلالتها على فرد منه كدلالة المشركين على زيد المشرك مثلاً، خارجة عن الثلاثة, أما انتفاء المطابقة والالتزام فواضح، وأما التضمن فلأنه دلالة اللفظ على جزء مسماه كما تقدم, والجزء إنما يقابله الكل، ومسمى صيغة العموم ليس كلا كما قررناه"[٧٩].

هكذا نجد صدى لتقريرات الشهاب القرافي في مصنفات من بعده؛ لكن الإمام ابن مبارك السجلماسي بجرأته، وقوة عارضته، وفرط ذكائه، اقتحم العقبة، ووقف ندًا لند مع الإمام القرافي[٨٠]، فبيّن أن ثبوت الحكم على فرد من أفراد العام لن يكون إلا بدلالة **التضمن**، ومعناها "فهم الجزء في ضمن الكل"[٨١].

وخلاصة رأي السجلماسي:

- العام ـــ كل
- الخاص ـــ جزء
- لزم أن يدل لفظ العام/الكل على الخاص/الجزء.

مثال ذلك:

* دلالة لفظ [الأربعة] على جزئه بالتضمن، وهي [الثلاثة، الاثنين، ...]؛

* دلالة لفظ [البيت] على جزئه بالتضمن [السقف، الجدار، ...].

وبيّن السجلماسي أن منشأ الإشكال عند القرافي الذي أنكر الدلالات الثلاث، أمران: تركيب المفصل، واشتراك لفظ العموم.

الأمر الأول: تركيب المفصل.

عدّ القرافي العام "كلية"، وأهمل التفصيل بين **وصف الموضوع ووصف المحمول**، وقد تولى السجلماسي الرد على المسألة من أصلها، فبيّن أن العام "**كل**" كما سبق،

الاجتهاد الأصولي عند متأخري المالكية سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي أنموذجًا

وإبطال الأصل مبطل للفرع.

وساق لذلك مثالاً، وهو:

[المشركون مأمور بقتالهم][82]

[المشركون]: عام مستغرق منصب على أفراده انصبابة واحدة، فلا يستقل به واحد دون الآخر، ونظرًا لذلك، فإنه يدل على أفراده بـ **التضمن**؛ لأنه فرد عام، وبما أن:

- العام لا يثبت لآحاده استقلالاً.
- والكل لا يثبت لآحاده استقلالاً.
- فالعام إذًا كلٌّ، وآحاده أجزاء.

[الأمر بالقتل]: عمومه بدلي وليس شمولي، فيثبت في كل فرد استقلالاً، فهو مطلق ثبت فيه الاستقلال، وهو لا أفراد له لأنه **محمول**، و**المحمول** لا تراد منه أفراده، وإنما يراد منه مفهومه.

بناء على ما سبق، نبّه السجلماسي إلى "أن توهم انتفاء **التضمن** بناء على أن العام **كلية** لا **كل** غلط نشأ من اعتبار **وصف المحمول** ثابتًا لأفراد العام، وهو تركيب للعام مع غيره، أوجب ما أوجب، فدفعه أن يقال: ما تعني بالعام المسؤول عنه؟ **وصف الموضوع**؟ أو **وصف المحمول**؟ أو **مجموعهما**؟

فإن عنيت **وصف المحمول**، فلا نسلم أنه عام، بل هو مطلق لما سبق.

وإن عنيت **المجموع**، فهو غير عام؛ لأنه مركب من العام وغيره، والمركب من العام وغيره ليس بعام، وأيضًا، فذلك **المجموع** قضية، وهو مركب، والكلام في المفردات لا في المركبات؛

وإن عنيت **وصف الموضوع**، فلا نسلم انتفاء **التضمن** فيه، وقولك إنه **كلية** غير مسلم، بل هو **كل**"[83].

الأمر الثاني: اشتراك لفظ العموم.

بيّن السجلماسي أن الغلط وقع للقرافي رحمه الله تعالى من اشتراك اللفظ، وذلك أن العموم يطلق على:

عموم اللفظ: هو الذي فيه دلالة التضمن، ويكون في الألفاظ المفردة، ويكون المعنى فيه كلاً، وبعضه جزءًا.

عموم الأحكام: هو الذي يثبت فيه الحكم لكل فرد فرد، وفيه تكون الكلية، ولا لفظ فيه ولا دلالة، ويكون في القضايا المركبات.

والمعروف عند الأصوليين **هو عموم اللفظ** لا **عموم الأحكام**، "بدليل أنهم يقولون: لفظ عام، ولفظ خاص، ويقولون: له صيغ، ولا يقولون: قضية عامة، وقضية خاصة"[84].

وقول السجلماسي بترجيح دلالة التضمن يُبطل القول بدلالة المطابقة والالتزام؛ لأنها أضداد لا تجتمع في محل.

يتبدى مما سبق، أن سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي رحمه الله كان مجتهدًا مطلقًا، وأن اجتهاده لم يقتصر على الفروع والفقهيات، بل امتد إلى أصول الفقه وقضاياه، وأنه حين نسب نفسه إلى الاجتهاد لم يكن مبالغًا ولا مغاليًا، ومناظراته وتقريراته دالة على صدق الدعوى، ورغم

تواضعه رحمه الله، فإنه كان يؤكد على قيمة بعض تقريراته، ولعل ذلك من باب التحدث بنعم الله عليه، فقال في نهاية الفصل الأول من إنارة الأفهام: "فعليك بهذا التحقيق النفيس، وقد جمعته لك، وأتعبت فكري في تحقيقه وتنقيحه، فاخلص لي من صالح دعائك"(٨٥)، ولجرأته رحمه الله كان لا يتهيب من مناقشة عويص المشكلات ودقائقها، فقال في مقدمة كتابه المذكور: "لأني رأيت الجم الغفير من الأذكياء، والحزب الشهير من الأصفياء، يعدون ذلك من مزالق الأنظار، ومضايق الأفكار، ويرونه من أشكل المشكلات، وأعضل المعضلات، فأردت بحول الله وقوته أن أكشف ما عليها من انحجاب، وأزيل ما على مكنونها من النقاب، وأميز في ذلك إن شاء الله تعالى القشر من اللباب، والعذب الزلال من لامع السراب، حتى يسطع بحول الله وقوته الحق سطوع شمس النهار، وتنجلي نفائس عرائسه لذوي البصائر فوق المنار، حتى يعترف بها أخو الإنكار"(٨٦).

الحواشي

١. ألف الإمام أبو عبيد القاسم بن خلف الطرطوشي كتابا أسماه **التوسط بين مالك وابن القاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل المدونة**. صدر عن دار الضياء بتحقيق أبي سفيان مصطفى باحو.

٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٥٧/١٨.

٣. ابن العربي المعافري، العواصم: ٥٥. قال هذا الكلام ردا على من وصفه بـ"الأشعري"، فبيّن له أنه لا يقلد الأشاعرة تقليدا صرفا، بل يتصرف بمقتضى الدليل، وهو كلام عام ينطبق على الفقه كما ينطبق على الكلام.

٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢٠١/٢٠.

٥. قال ابن سراج: "اختلف العلماء قديمًا وحديثًا فيمن قال لزوجته: [أنت علي حرام] على أقوال كثيرة، ذكر ابن العربي منها خمسة عشر قولاً، يتحصل منها في المذهب خمسة أقوال". نوازل العلمي: ٢٢٣/١. وقال ابن ناجي: "وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمَذْهَبُ فِي الْمُوَالَاةِ عَلَى سَبْعَةِ أَقْوَالٍ" مواهب الجليل للحطاب: ٢٢٣/١.

٦. ابن رشد، بداية المجتهد: ١٧٧/١.

٧. ابن رشد، بداية المجتهد: ١٧٨/١.

٨. ابن رشد، الضروري في أصول الفقه: ٩٣.

٩. عبد الوهاب عبد السلام طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين: ٣٦٩.

١٠. الونشريسي، المعيار: ٣٠٣/١.

١١. التسولي، البهجة: ٤٠/١.

١٢. مدح الشيخ ابن غازي المكناسي مختصر الشيخ خليل بقوله: "إنه من أفضل نفائس الإغلاق، وأحق ما رُمي بالأحداق، ... فما نسخ أحد على منواله، ولا سمحت قريحة بمثاله". وكان الشيخ ناصر الدين اللقاني يقول حين يُعارَضُ بكلام مخالف لما في مختصر الشيخ خليل: "نحن أناس خليليون، إن ضل ضللنا". ومُدح المختصر نظمًا من غير واحد، **مثاله قول أحدهم:**

أطلابَ علم الفقه، مختصرُ الرضى
خليلٌ لكم فيه الحياة، فعيشوا
فلله بيتٌ ضَمَّنُوه مديحه
به يهتدي من في الأنام يطيش
سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها
خليل بن إسحاق الإمامُ يعيشُ.

ظ: الفجر الصادق للشيخ جعفر الكتاني: ١١٠ وما بعدها، ففيها مدح كثير في مختصر الشيخ خليل. وذكر ابن مرزوق أن **المختصر** من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم. (كناشة عباس بن إبراهيم المراكشي: ٣٢٢).

١٣. المهدي الوزاني، المعيار الجديد: ٢٦٣/١. عمل متأخرو المالكية ببعض الأقوال غير الراجحة، وصارت مشهورة بكثرة قائلها والعاملين بها، منه قولهم بكراهة دعاء الاستفتاح والاستعاذة والبسملة في الفريضة، مع أن الراجح استحبابها، وكراهة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة مع أن الراجح استحبابها. ...

١٤. الكتاني، سلوة الأنفاس: ١٧٥/١.

١٥. نسبة إلى لمط (بفتحتين) من قرى سجلماسة أيام عمرانها. الأعلام للزركلي: ٢٠٢/١. وأغلب أبناء منطقة سجلماسة اليوم ينطقونها بسكون الأول والثاني.

١٦. نسبة إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

١٧. قال السيد عبد الحي الكتاني: "وابن المبارك اللمطي لم ير اليوسي، وإنما دخل من الصحراء [سجلماسة] إلى المغرب سنة عشر ومائة وألف". فهرس الفهارس: ١١٥٨/٢.

١٨. ابن مخلوف، شجرة النور الزكية: ٥٠٦/١.

١٩. قال تلميذه وخريجه العلامة ابن سودة: "وكلّمته رضي الله عنه يومًا في شأن الحج، متمنيًا له ذلك، وأن تشرق شموس علومه هنالك، فقال لي مشيرًا إلى شيخه العارف بالله تعالى، مولانا عبد العزيز الدباغ: إن الناس قالوا لي جعلناك في حُق، يعني بضم الحاء، فلا تخرج من هذه البلدة، وإنك أنت [أي: ابن سودة] ستحج، وأعطيك ألف دينار، أو قال: ألف مثقال إن شاء الله، ولم تكن نفسي تحدثني بالحج يومئذ، ولا يخطر لها ببال، فسبحان الملك المتعال". الفهرسة الصغرى: ٧٢. الحُق: بمعنى صندوق صغير، وينطق في العامية المغربية بالكاف بدل القاف، وهذا النص يدل بوضوح على أن ابن مبارك رحمه الله تعالى لم يرحل إلى الحجاز أو غيره من البلدان، ومنه تعلم خطأ ما قاله الأستاذ الكبير الدكتور سيدي عبد الله الترغي: "ورحل إلى الحج برفقة أبي العباس الورزازي، فأخذ عن علماء المشرق" فهارس علماء المغرب: ٦٦٨. ولست أدري من أين تسرب إليه حفظه الله هذا الوهم. أما الدكتور الحبيب عيادي، فقد وقع له وهمان مع هذا النص، **أولهما**: صدّره بقوله: "قال الشيخ القادري رضي الله عنه في ترجمته من الفهرسة"، والصواب أنه كلام تلميذه ابن سودة كما هو مثبت في **الفهرسة الصغرى** له. **ثانيهما**: أثبت في جواب ابن مبارك عبارة "حُو" بدل "حُق"، وقال معلقًا: "هكذا وجدت هذه العبارة في كثير من الكتب التي ترجمت له، والمراد بها المكاشفة، استعملها كلغز معين" تحرير القبول: ١١٢. والصواب أنها ليست لغزًا، بل هي الصندوق الصغير كما بينت أعلاه.

٢٠. القادري، نشر المثاني: ٢٤٨/٢.

٢١. ابن سودة، الفهرسة الصغرى: ٧١.

٢٢. لما ذكر العلامة التاودي شيخه ابن مبارك في فهرسته، حلاه بقوله: "شيخنا الأسمى، وذخيرتنا العظمى، العلامة الحافظ الحجة المحرر المحقق، نجم الأمة، وتابع الأئمة، أبو العباس ..." الفهرسة الصغرى: ٧١. وطالت ملازمته له، حتى أن الشيخ عبد الحي الكتاني ذكره ضمن شيوخه، وقال عنه: "وهو عمدته". فهرس الفهارس: ٢٥٩/١.

٢٣. خص الشيخ ابن مبارك الشيخَ المكودي بإجازة مشهورة، تعد ثبته المعتمد، ضمنها مصنفاته ورسائله، وسائر مروياته، ولما ذكر صاحب الفكر السامي (٣٤٥/٢) شيوخ المكودي، قال: "أخذ عن أحمد بن مبارك اللمطي بفاس، وبه تخرج"، وهي عبارة تدل على ملازمة المكودي لشيخه واختصاصه به.

٢٤. اشتهر أبو العلاء العراقي بين أقرانه بعلم الحديث، وكان شيخُه أحمد بن مبارك "يبالغ معه في تحقيق بعض مسائل الحديث، وكان يشير (على الطلبة) إلى الرجوع إليه فيه". فهرس الفهارس: ٨١٩/٢. وقد وقع للعلامة المحدث السيد أحمد بن الصديق الغماري

قدس الله روحه سبق قلم، حيث قال: "كان سيدي إدريس العراقي المتأخر على اطلاع واسع، ومعرفة كبيرة بالحديث، إلا أن علمه ضاع بضياع مؤلفاته، وهو من شيوخ سيدي أحمد بن مبارك صاحب **الإبريز**، وتوفي فيما أظن سنة ١١٨٤ هـ". در الغمام الرقيق: ١٨٠. والصواب أنه من تلاميذ سيدي أحمد ابن مبارك، وليس من شيوخه، والحافظ ابن الصديق معذور في ذلك، لأن **در الغمام الرقيق** مجرد رسائل بينه وبين تلميذه سيدي عبد الله التليدي كان يحررها في أوضاع مختلفة، في حال الصحة والمرض، وفي الإقامة والسفر، وأحيانًا يكون بعيدًا عن مراجعه، فقد يقع له في الرسائل من الوهم ما لا يقع له أثناء التأليف، والغريب في الأمر، أن العلامة سيدي عبد الله التليدي حفظه الله لم يعلق على هذا الوهم حين جمع الرسائل وتقديمها للطبع.

٢٥. قرأ أبو حفص التواتي على ابن مبارك **جمع الجوامع** لابن السبكي، و**العقيدة الصغرى** للسنوسي، والنصف الثاني من **مختصر** الشيخ خليل، وبعضًا من **صحيح البخاري**. (الغصن الداني: ١١ – ١٢ – ١٣).

٢٦. القبلوي الجزائري، الغصن الداني: ١٥.

٢٧. الحجوي، الفكر السامي: ٣٤٣/٢.

٢٨. ابن مخلوف، شجرة النور: ٥٠٦/١.

٢٩. من تقديم الدكتور الريسوني لـ"تحرير مسألة القبول": ٩.

٣٠. الكتاني، سلوة الأنفاس: ٢٢٨/٢.

٣١. الكتاني، فهرس الفهارس: ٨١٩/٢.

٣٢. تحقيق الدكتور الحبيب عيادي، من منشورات كلية الآداب بالرباط ١٩٩٩.

٣٣. تحقيق أمينة بطان، مرقون بكلية الآداب بالرباط.

٣٤. تحقيق الأستاذ محمد لحياوني، مرقون بكلية الآداب بالرباط.

٣٥. مخطوط في الخزانة العامة بالرباط ١١٦٨ ك ضمن مجموع.

٣٦. مخطوط بالخزانة العامة، ١٧٤٣د. ضمن مجموع.

٣٧. تحقيق الدكتور مولاي الحسين بن الحسن ألحيان، من مطبوعات وزارة الأوقاف بالكويت، ١٤٣١ – ٢٠١٠.

٣٨. مطبوع ومتداول، قال عنه الأستاذ الحجوي: "انتقدت عليه فيه أمور، كما حرر فيه مسائل لا يستهان بها". الفكر السامي: ٣٤٣/٢.

٣٩. ابن منصور، أعلام المغرب العربي: ٢٩٠/٦، كما قام الأستاذ الحبيب عيادي والأستاذة أمينة بطان بسرد مؤلفات الشيخ ابن مبارك، وبالتعريف بها، وبذكر أرقامها في الخزانات العامة، وذلك في دراستيهما حول تحرير مسألة القبول، وإنارة الأفهام.

٤٠. منها فتوى حول قول الهيللة بلسان واحد عقب الصلوات. ٣٧٩/١.

٤١. الحجوي، الفكر السامي: ٣٤٣/٢. الزركلي، الأعلام: ٢٠٢/١. ابن منصور، أعلام المغرب العربي: ٢٨٥/٦.

٤٢. ابن منصور، أعلام المغرب العربي: ٢٨٦/٦.

٤٣. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٢٦ – ١٣٠ – ١٤٦... تحرير مسألة القبول: ٢٣٩ – ٢٤١ – ٢٤٢...

٤٤. السجلماسي، تحرير مسألة القبول: ٢٤٥.

٤٥. السجلماسي، تحرير مسألة القبول: ٢٧٥. رد ابن المنير على الإمام الغزالي، ووافق السجلماسي ابن المنير على ذلك، لكنه لم يوافقه على بعض ما قاله في حق الغزالي، فقال: "غالب ما قاله ابن المنير صحيح حق لا شك فيه، وردوداته على عبارة الإحياء مستقيمة لا اعوجاج فيها... إلا حرفًا واحدًا، فإنني أخالف فيه ابن المنير، وهو تنقصه من مقام أبي حامد، وغضه عن رتبته، فإنني لا أوافق على ذلك فإن أبا حامد إمام الدين، وعالم الإسلام والمسلمين". شجرة النور الزكية: ٢٠٣/١.

٤٦. السجلماسي، تحرير مسألة القبول: ٣٤٣. نقل

الباحث الأستاذ الحبيب عيادي عن مقال لتقي الدين الهلالي كلامًا ينتقص من الشيخ ابن مبارك، قال فيه: "وهذا الرجل هو أحمد بن المبارك اللمطي السجلماسي، من كبار علماء وقته في مدينة فاس في القرن الثاني عشر للهجرة، وقد حمله حب الشهرة أن اتخذ رجلا من أهل البيت اسمه عبد العزيز الدباغ. ...". تحرير مسألة القبول: ٩٢. وهذا كلام مرسل، أطلقه الهلالي بدون ضابط أو وازع، وقد بينا أن الشيخ ابن مبارك رحمه الله كان متواضعًا جدًا، كريم الخصال، حميد السجايا، ولو كان محبًا للشهرة كما ادعى الهلالي لروى عنه ذلك أقرانه وتلاميذه، وللمسناه في أقواله وكتبه. ولعل خصومة الهلالي للتصوف وأهله هي الباعث على مثل هذا الكلام. نسأل الله السلامة والعافية.

٤٧. القبلوي الجزائري، الخصن الداني: ١٥.

٤٨. هذا العموم ورد في القرآن الكريم بعبارات مختلفة، هي: "وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" سورة البقرة: ٢٩. سورة الأنعام: ١٠١. سورة الحديد: ٣. "... اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" سورة البقرة: ٢٣١ – ٢٨٢. سورة النساء: ١٧٦. سورة المائدة: ٩٧. سورة الأنفال: ٧٥. سورة التوبة: ١١٥. سورة النور: ٣٥ – ٦٤. سورة العنكبوت: ٦٢. سورة الحجرات: ١٦. سورة المجادلة: ٧. سورة التغابن: ١١. "إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" سورة الشورى: ١٢.

٤٩. الجويني: البرهان: ١٥٠/١.

٥٠. سورة البقرة: ٢٩.

٥١. الغزالي، المستصفى: ٢٤٥.

٥٢. الآمدي، الإحكام: ٢٨٢/٢.

٥٣. السجلماسي، تحرير مسألة القبول: ٢٢٧.

٥٤. السجلماسي، تحرير مسألة القبول: ٢٢٨.

٥٥. قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف: "وحجتهم على ما ذهبوا إليه، أن استقراء النصوص الشرعية التي وردت فيها ألفاظ العموم دل على أنه ما من عام إلا وخصص، وعلى أن العام الذي بقي على عمومه نادر جدا". علم أصول الفقه: ١٨٣.

٥٦. القادري، نشر المثاني: ١٦٧/٢.

٥٧. من تقديم الدكتور أحمد الريسوني لـ **تحرير مسألة القبول**: ١٠.

٥٨. الشاطبي، الموافقات: ٢٨٩/٣.

٥٩. الشاطبي، الموافقات: ٢٩٠/٣.

٦٠. الشاطبي، الموافقات: ٢٩١/٣. وقال الإمام الشوكاني: "قيل: إنه ما من عموم إلا وقد خص وأنه لا يوجد عام غير مخصص، فلو قلنا: إنه غير حجة فيما بقي، للزم إبطال كل عموم، ونحن نعلم أن غالب هذه الشريعة المطهرة إنما يثبت بعمومات". إرشاد الفحول: ٣٤١/١.

٦١. أشار الدكتور الحبيب عيادي إلى أن للشاطبي آراء متفردة في موضوع العمومات، واستغرب من عدم الإشارة إليها أو مناقشتها من قبل العلماء. مسألة تحرير القبول: ٢٣١.

٦٢. مثل بشر المريسي وأبي بكر الأصم وغيرهما.

٦٣. السجلماسي، تحرير مسألة القبول: ٢٣٦.

٦٤. السجلماسي، تحرير مسألة القبول: ٢٣٧.

٦٥. القرافي، شرح تنقيح الفصول: ١٩٥. لم يتفرد الإمام القرافي بقوله: العموم **كلية** وليس **كلا**، بل هو قول موجود في التراث الأصولي، قاله الإمام السبكي في **الإبهاج**، وجمال الدين الإسنوي في **نهاية السول**، وغيرهما. ولعل انتصار الإمام القرافي لهذا القول، وتكرار ذلك في عدد من مصنفاته، هو الذي جعل الإمام السجلماسي يخصه بالنقد دون غيره.

٦٦. القرافي، العقد المنظوم: ٢٦٩/١.

٦٧. القرافي، نفائس الأصول: ١٧٣٥/٤.

٦٨. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٠٠.

٦٩. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٠٢.

٧٠. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٠٨.

٧١. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٠٨. وبيّن في ص: ١٠٢ أن نفي الأعم يستلزم نفي الأخص. والمركب أعم مما بعده.

٧٢. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١١١.

٧٣. القرافي، شرح تنقيح الفصول: ١٩٦.

٧٤. القرافي، نفائس الأصول: ١٧٣٣/٤.

٧٥. القرافي، شرح تنقيح الفصول: ٢٦.

٧٦. القرافي، العقد المنظوم: ٣٢٧/١.

٧٧. القرافي، العقد المنظوم: ٣٢٩/١.

٧٨. السبكي، الإبهاج، في شرح المنهاج: ٨٤/٢.

٧٩. الإسنوي، نهاية السول، شرح منهاج الوصول: ٨٦٠.

٨٠. من العبارات التي تدل على الندية، قوله في إحدى مساجلاته: "فيقال للإمام القرافي رضي الله عنه، هلُمّ، فلنتطلب العام في هذا القياس" إنارة الأفهام: ١٤٦.

٨١. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٠٠.

٨٢. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٢٧.

٨٣. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٢٨.

٨٤. السجلماسي، إنارة الأفهام: ١٣٠.

٨٥. السجلماسي، إنارة الأفهام: ٩٨.

٨٦. السجلماسي، إنارة الأفهام: ٤٨.

لائحة المراجع المعتمدة

الآمدي، أبو الحسن علي :

١) **الإحكام، في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت.**

بلعالم، الشيخ محمد باي :

٢) **الغصن الداني، في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني.**

التسولي، أبو الحسن علي :

٣) **البهجة، في شرح التحفة. دار الكتب العلمية، ط : ١. ١٤١٨ – ١٩٩٨.**

الحجوي، محمد بن الحسن الثعالبي :

٤) **الفكر السامي، في تاريخ الفقه الإسلامي. دار الكتب العلمية، ط : ١. ١٤١٦ – ١٩٩٥.**

الحطاب، أبو عبد الله الرعيني :

٥) **مواهب الجليل، في شرح مختصر خليل. دار الفكر، ط : ٣. ١٤١٢ – ١٩٩٢.**

خلاف، عبد الوهاب :

٦) **علم أصول الفقه، دار القلم، ط : ٢٠. ١٤٠٦ – ١٩٨٦.**

الذهبي، أبو عبد الله :

٧) **سير أعلام النبلاء. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ – ١٩٨٥.**

ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد :

٨) **بداية المجتهد، ونهاية المقتصد. مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٨٦ – ١٩٦٦.**

٩) **الضروري في أصول الفقه. تحقيق جمال الدين العلوي، دار الغرب الإسلامي، ط : ١. ١٩٩٤.**

السجلماسي، أحمد بن مبارك اللمطي :

١٠) **إنارة الأفهام، بسماع ما قيل في دلالة العام، تحقيق أمينة بطان، مرقون بكلية الآداب بالرباط.**

١١) **تحرير مسألة القبول، على ما تقتضيه قواعد الأصول والمعقول. تحقيق الحبيب عيادي، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط : ١، ١٩٩٩.**

ابن سودة، أبو عبد الله محمد التاودي :

١٢) **الفهرسة الصغرى والكبرى، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، ط : ١. ١٤٢٣ – ٢٠٠٢.**

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم :

١٣) **الموافقات، مطبوع بعناية الشيخ عبد الله دراز، ط : ٢. ١٣٩٥ – ١٩٧٥.**

ابن الصديق، أحمد الغماري :

١٤) **در الغمام الرقيق، برسائل الشيخ السيد أحمد بن الصديق. جمع وتنسيق الشيخ عبد الله التليدي، ط : ١. ١٤٢١ – ٢٠٠٠.**

ابن العربي، أبو بكر المعافري :

١٥) **العواصم من القواصم. تحقيق عمار طالبي،**

مكتبة دار التراث.

العلمي، عيسى بن علي الحسني :

١٦) **النوازل. تحقيق المجلس العلمي بفاس، من مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية.**

الغزالي، أبو حامد :

١٧) **المستصفى، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ١٤١٣ – ١٩٩٣.**

القرافي، أبو العباس أحمد بن إدريس.

١٨) **شرح تنقيح الفصول، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ط : ١. ١٣٩٣ – ١٩٧٣.**

١٩) **العقد المنظوم، في الخصوص والعموم. تحقيق محمد علوي بنصر، مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧.**

٢٠) **نفائس الأصول، في شرح المحصول، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط : ١. ١٤١٦ – ١٩٩٥.**

الكتاني، جعفر بن إدريس :

٢١) **الفجر الصادق المشرق المفلق، في إبطال ترهات الثرثار المتشدق المتفيهق. تحقيق عدنان زهار، دار الكتب العلمية، ط : ١. ٢٠٠٩.**

الكتاني، عبد الحي :

٢٢) **فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط : ٢. ١٩٨٢.**

ابن مخلوف، محمد بن محمد :

٢٣) **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. تعليق عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية، ط : ١. ١٤٢٤ – ٢٠٠٣.**

المراكشي، عباس بن إبراهيم المراكشي :

٢٤) **كناشة. تحقيق إدريس الشراوطي. دار المقتبس، بيروت، ط : ١. ١٤٣٥ – ٢٠١٤.**

ابن منصور، عبد الوهاب :

٢٥) أعلام المغرب العربي. الجزء: ٦. المطبعة الملكية، الرباط، ١٤١٩ – ١٩٩٨.

مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازاتِ أبي بكرٍ رضي الله عنه في خلافته

الدكتور حسين شرفه
جامعة باتنة - الجزائر

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فإن تاريخ الأمة الإسلامية سِفْرٌ عظيم تمتلئ صفحاته بالأحداث الخالدة والمواقف الشاهدة، دُبِّجَت سطوره الأولى بأطهر سيرة لأعظم مخلوق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان - كما وصفه ربه - شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ثم سُطِّرتْ بعده سِيَرُ أصدق وأطهر الرجال، وهم صحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، فكان قَرنُهم خير القرون، واختُصَّ منه زمن الخلفاء الراشدين المهديين؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عنهم أجمعين، فكانوا كالنجوم الزاهرة، وأنار فيهم نجم أكثر فكان كالكوكب الدُّري، ذاك هو صديق هذه الأمة رضي الله عنه وأرضاه.

فأبو بكر الصّديق رضي الله عنه هو خير هذه الأمة وأعظم رجالها بعد نبيها صلى الله عليه وسلم، هو أول الرجال إسلامًا، وصاحب الهجرة، وثاني اثنين في الغار، وأول خليفة... ومناقبه لا تكاد تحصى، ولعل أفضل تلك المناقب كونه الصّديق، لقَّبه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والصّديقية مقام من مقامات الكمال، ومنزلة من منازل الربانية، تأتي بعد منزلة النبوة، وتقتضي أقوالاً وأعمالاً وأحوالاً تتقاصر دونها الهمم، ودقائق من الإيمان والأخلاق والسلوك، لا يدركها إلا الخواص، فهي برنامج مكثف من الطاعات والقربات تستغرق القلب والجوارح. ويتربع أبو بكر رضي الله عنه على هذه المنزلة لا يدانيه فيها أحد.

وليس المقصود رصد مظاهر الصديقية في أخلاق أبي بكر رضي الله عنه، وقد بلغ فيها المرتبة العالية، ولا في أقواله، وقد كانت قبسًا من مشكاة النبوة، ولا حتى في مجمل أعماله التي فاق فيها كل الصحابة، وإنما سنُخصص حيزًا ضيقًا جدًا من حياته، لا يزيد عن سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، هي مدة توليه الخلافة، ولكنها بقدر

ما كانت قصيرة زمانًا، كانت مباركةً أعمالاً، فقد أنجز فيها الصّديق أربعة أعمال كبيرة خلدها التاريخ.

فما تلك الأعمال، وما مظاهر الصديقية فيها؟ ذلك ما تصبو هذه الدراسة الكشف عنه، معتمدة في ذلك على جملة من المصادر والمراجع، أساسها ما صح من نصوص السنة، ثم أقوال علماء الأمة، وما دونته كتب التاريخ الموثوقة، وبعض الدراسات ذات الصلة، متوخية الموضوعية والروح العلمية بعيدًا عن التحريف والتزييف.

وقد جاءت هذه الدراسة في مبحثين، أولهما: في بيان حقيقة الصديقية وحظ أبي بكر رضي الله عنه منها، وتناولتها في مطلبين، أما المبحث الثاني: وهو لب الدراسة فتتبعت فيه مظاهر الصديقية في الإنجازات الأربعة في خلافة أبي بكر، وقد خصصت لكل إنجاز مطلبًا، وأنهيت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي خلصت إليها، وذلك وفق الخطة الآتية:

المبحث الأول: مفهوم الصديقية وحظ أبي بكر رضي الله عنه منها

المطلب الأول: معنى الصديقية لغة واصطلاحًا

أولاً: المعنى اللغوي

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

المطلب الثاني: حظ أبي بكر رضي الله عنه من الصديقية

أولاً: أخلاق أبي بكر رضي الله عنه ومكانته قبل الإسلام

ثانيًا: الأحاديث النبوية الدالة على صديقية أبي بكر رضي الله عنه

ثالثًا: شهادة الصحابة على صديقية أبي بكر رضي الله عنه

المبحث الثاني: إنجازات أبي بكر رضي الله عنه ومظاهر الصديقية فيها

المطلب الأول: إنفاذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما

المطلب الثاني: قتال المرتدين

المطلب الثالث: جمع القرآن الكريم

المطلب الرابع: طلائع فتح العراق والشام

خـاتمة.

هذا.. وما كان من توفيق، فمن الله وحده فله الحمد والمنّة، وما كان من قصور، فهو مني، وحسبي أني بذلت الجهد واستفرغت الوسع. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول: مفهوم الصّديقية وحظ أبي بكر رضي الله عنه منها

للوقوف على حقيقة الصّديقية كمنزلة ربانية حظي بها أبو بكر رضي الله عنه، يحسن بنا تحديد مفهومها، وذلك ببيان معناها اللغوي والاصطلاحي، ثم ذكر ما ثبت من النصوص الدالة على صديقية أبي بكر رضي الله عنه، وهو ما سأتناوله في هذا المبحث من خلال مطلبين.

المطلب الأول: معنى الصّديقية لغة واصطلاحًا

أولاً: معنى الصديقية لغة

بالرجوع إلى المعاجم والقواميس اللغوية في مادة: "ص.د.ق" نجدها تذكر جملة من المعاني نوجزها فيما يأتي[1]:

صَدَقَ: الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة في القول وغيره، والصِّدْقُ خلاف الكذب، يقال: صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا وتَصْداقًا، وصَدَّقَهُ وصَدَّقَ به تَصْدِيقًا: اعترف بصِدْقِ قوله، وصَدَقَهُ الحديثَ: أنبأهُ بالصِّدْقِ، وصَدَقْتُهُ: قلتُ له صِدْقًا، وكذلك من الوعيد إذا أوقعتَ بهم قلتَ: صَدَقْتُهُمْ.

ورجلٌ صَدُوقٌ: أبلغُ من الصَّادِقِ، والـمُصَدِّقُ الذي يُصَدِّقُكَ في حديثك، وهذا رجلُ صِدْقٍ: بمعنى نِعْمَ الرجُلِ هُوَ، فإذا نَعَتَّهُ قلتَ: هو الرجُلُ الصِّدْقُ، والصِّدْقُ الكامل في كل شيء.

والصِّدِّيقُ: الدائمُ الصِّدْقِ والمبالغُ فيه، والذي يُصَدِّقُ قولَهُ بالعمل.

والصِّدِّيقُ: الـمُصَدِّقُ بكل أمر الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وسلم لا يتخالجه شك في شيء.

والصَّدِيقُ: الصاحب الصادق الود، والصِّيْدَقُ: الأمينُ، والصداقةُ والمصادقةُ: الـمُخالَّةُ والمحبَّةُ.

والصَّدْقُ: الصُّلبُ والمستوي من الرماح والرجال...

هذا أهم ما ذكرته المعاجم والقواميس اللغوية في مادة (ص د ق)، فهي تدور حول معاني: القوة والكمال والمخاللة والمحبة والأمانة والصلابة والاستواء، وهي معانٍ متكاملة تؤول إلى معنى القوة كما أصّله ابن فارس. ولا يخفى ما فيها من إشارة إلى بعض صفات الصديقية، ولم يكتف أئمة اللغة بذكر المعاني والدلالات اللغوية، بل أعطوا معنىً للصِّدِّيق هو أقرب إلى التعريف الاصطلاحي كما سنعرف بعد حين.

ثانيًا: تعريف الصديقية اصطلاحًا

حظي لفظ الصِّدْقِ وما يشتق منه باهتمام العلماء فعرَّفوه تعريفات اصطلاحية كثيرة ومختلفة يصعب حصرها، فقد نظرت كل طائفة إليه من جهة اختصاصها، وإذ لا يتسنى ذكر كل أقوالهم ، فسأقتصر على إيراد نماذج منها مرتبة حسب اختصاص كل طائفة.

فقد ذكر أصحاب المعاجم الاصطلاحية تعريفات للصِّدق والصِّدِّيقية، سأسوق نماذج منها. فقد عرَّفه الراغب بقوله:" الصِّدْق: مطابقة القول الضمير والـمُخبَر عنه معًا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن تامًا...والصِّدِّيق: من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط وقيل: بل لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: بل لمن صَدَقَ بقوله واعتقاده وحقَّق صِدقه بفعله...فالصِّدِّيقُون هم قوم دُوَين الأنبياء في الفضيلة...ويعبر عن كل فعل فاضل ظاهرًا أو باطنًا بالصِّدق"(٢).

وعرفه الكفوي بتعريف قريب مما ذكر الراغب فقال:" الصِّدق بالكسر: هو إخبار عن المخبر به على ما هو به مع العلم بأنه كذلك، والصِّدق التام: هو المطابقة للخارج والاعتقاد معًا، فإن انعدم واحد منهما لم يكن صِدقًا تامًا...والصِّدق: هو أن يكون الحكم لشيء على شيء إثباتًا أو نفيًا مطابقًا لما في نفس الأمر... والصِّديقية: درجةٌ أعلى من درجات الولاية، وأدنى من درجات النبوة، ولا واسطة بينها وبين النبوة، فمن جاوزها وقع في النبوة بفضل الله في الزمان الأول"(٣).

أما الجرجاني والمناوي فقد اكتفيا بنقل أقوال أهل الحقيقة، وعرَّفا لفظ "الصِّدِّيق" تعريفًا متشابهًا، فقال عنه الأول:" الصِّدِّيق: هو الذي لم يدع شيئًا مما يظهره باللسان إلا حققه بقلبه

وعمله"[٤]، وقال الثاني:" الصِّدِّيق: من لم يكذب قط أو من كثر منه الصّدق، أو من صَدَّق قوله اعتقاده، وحقق صِدْقُه فعله، أو الذي لم يدَعْ شيئًا مما يظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله"[٥].

فهذه جملة من التعريفات تتفق في معانيها وإن اختلفت ألفاظها، فهي تؤكد على معنى واحد للصّدق، وهو تطابق قول اللسان مع اعتقاد الجنان، وتحقيق ذلك بالأعمال، والصّدّيق من لازم الصّدق، ولم يكذب قط وحقق صِدْقه بعمله، أما الصّدّيقية فهي منزلة فوق الولاية ودون النبوة.

ومما يدخل في بيان مفهوم الصديقية، ما ورد في كتب الآداب والرقائق، ولا بأس بنقل نماذج مما له علاقة بالتعريف الذي نحن بصدده.

قال أبو حامد الغزالي: "اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صِدِّيق؛ لأنه مبالغة في الصدق"[٦].

وقال القشيري: "الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه وهو آتي درجة النبوة... والصادق الاسم اللازم من الصدق والصّدّيق المبالغة منه، وهو الكثير الصدق الذي الصدق غالبه...وأقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق من صدق في أقواله، والصّدّيق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله"[٧].

وقال الراغب في كتاب الذريعة: "الصّدق أجدر أركان بقاء العالم حتى لو تُوُهِّم مرتفعًا لما صح نظامه وبقاؤه، وهو أصل المحمودات وركن النبوات، ونتيجة التقوى، ولولاه لبطُلت أحكام الشرائع"[٨].

وأختم هذه الأقوال بما ذكر ابن القيم في منزلة الصّدق من كتاب مدارج السالكين؛ حيث قال: "هي منزلة القَدم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين...وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجة آتية لدرجة "النبوة" التي هي أعلى درجات العالمين"...إلى أن قال:" فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله، فالصدق في هذه الثلاثة؛ فالصدق في الأقوال استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها، والصدق في الأعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد، والصدق في الأحوال استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة... فأعلى مراتب الصدق مرتبة الصّديقية، وهي كمال الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم مع كمال الإخلاص للمرسل"[٩].

هذه نماذج من أقوال العلماء في حقيقة الصّدق والصّدّيقية تبين أهمية هذا الخلق وتلك المنزلة في المعاش والمعاد، فهي أساس الاستقامة في الحياة، وهي في الآخرة سبيل النجاة.

ولا أنهي حديثي عن مفهوم الصدق قبل أن أعرج على معناه في الاستعمال القرآني، فلفظ (الصدق) من الألفاظ المحورية في القرآن الكريم، وقد ورد في مائة وثلاثة وخمسين (١٥٣) موضعًا، جاء في مائة واثنين وعشرين (١٢٢) منها بصيغة الاسم، وفي واحد وثلاثين (٣١) بصيغة الفعل. وأكثر ما ورد لفظ (الصدق) بصيغة جمع المذكر السالم المنصوب

أو المجرور؛ حيث تكرر في خمسين (٥٠) موضعًا، وأكثر ما ورد لفظ (الصدق) باشتقاقاته المختلفة وصفًا للمؤمنين، أو فعلاً من أفعال عباد الله الصالحين[١٠].

ويدخل في تلك الإحصائية لفظ (الصّديقية) الذي ورد في ستة (٦) مواضع[١١]، ثلاثة منها في حق أنبياء الله: إدريس وإبراهيم ويوسف عليهم السلام، والرابع في وصف مريم عليها السلام، و الأخيرين في وصف المؤمنين.

وقد ذكر أصحاب الأشباه والنظائر معاني (الصادقون) في القرآن الكريم فأوصلها بعضهم[١٢] إلى ثلاثة وجوه

هي: النبيون، والمهاجرون، والمؤمنون جميعًا، وزاد عليها الدامغاني وجهًا رابعًا هو: الصادقون في الجهاد[١٣].

بعد هذا الاستقراء للمعنى الاصطلاحي للفظيّ الصّدق والصّديقية لدى طوائف من العلماء في تخصصات مختلفة، نستنتج أن دلالة لفظ الصدق لم تتغير، فقد ظلت تدور حول معاني الكمال والقوة في القول والعمل، وأن مفهوم الصديقية بدوره ظل محافظًا على معناه كمنزلة من منازل الكمال تلي مقام النبوة، وتقتضي ملازمة الصدق في القول والعمل.

فإلى أي حد استطاع أبو بكر رضي الله عنه أن يحقق كل تلك المعاني حتى استحق لقب الصّديق بلا منازع، هذا ما سنتطرق إليه في المطلب الثاني من هذا المبحث.

المطلب الثاني: حظ أبي بكر رضي الله عنه من الصديقية

سنحاول رصد تلك المنزلة من خلال ما خُصّ به أبو بكر رضي الله عنه من مناقب وفضائل دون غيره، ثم شهادة الصحابة رضي الله عنهم بتميُّزه ومكانته بينهم، وإجماع الأمة على صِدِّيقيته.

أولاً: أخلاق أبي بكر رضي الله عنه ومكانته قبل الإسلام

فقد كان لأبي بكر رضي الله عنه مكانة متميزة بين قومه قبل الإسلام، قال عنها ابن عبد البر: "كان في الجاهلية وجيهًا رئيسًا من رؤساء قريش، وإليه كانت الأشناق في الجاهلية، والأشناق: الديات، كان إذا حمل شيئًا قالت فيه قريش: صَدِّقُوه وأمضوا حمالته، وحمالة من قام معه أبو بكر، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه"[١٤].

ويحدثنا ابن هشام عن منزلة أبي بكر رضي الله عنه في قريش فيقول:" كان أبو بكر رجلاً مَأْلَفًا لقومه مُحببًا سهلاً، وكان أنسبَ قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجرًا ذا خلقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه، وتجارته وحسن مجالسته"[١٥].

هذا ما تميز به أبو بكر رضي الله عنه بين قومه قبل الإسلام وجعله محببًا إليهم، فقد كان ذا خلق كريم، وعالمًا بأنساب قريش، وتاجرًا ناجحًا، وتلك خصال قلَّما اجتمعت في رجل واحد.

وقد ترَفّع أبو بكر رضي الله عنه عن عادات الجاهلية، فكان كما وصفته ابنته الصّديقة رضي الله عنها بقولها: "والله ما قال أبو بكر شِعرًا قط في جاهلية ولا إسلام، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية"[١٦].

واشتهر أبو بكر رضي الله عنه بين قومه

بأخلاقه، حتى وُصِف بما وصفتْ به خديجةُ رضي الله عنها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين حدثها بخبر بداية الوحي[١٧]، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "**لَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ ـ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ ـ فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي. قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ...**"[١٨].

ثانيًا: الأحاديث النبوية الدالة على صديقية أبي بكر رضي الله عنه

كانت تلك أخلاق أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه، وقد كان لسلامة فطرته ومصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته أثر في استجابته للإسلام دون تردد، فكان أول الرجال إسلامًا، ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "**إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ. وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي** " مَرَّتَيْنِ[١٩].

وفي رواية ابن إسحاق: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عَكَم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه"[٢٠]، قال البيهقي معلقًا: "وهذا لأنه كان يرى دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، ويسمع آثاره قبل دعوته، فحين دعاه كان قد سبق فيه تفكره ونظره فأسلم في الحال" [٢١].

وقد تبوَّأ أبو بكر رضي الله عنه المقام الأول بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأضحى صِدِّيق هذه الأمة، شهد له بذلك رسول الله ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه البخاري، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ: "**اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**"[٢٢]، وفي رواية مسلم، أن رسول الله ﷺ كان على حراء، هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اهدأ. فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد"[٢٣]، وقد لُقِّب بالصِّديق لمبادرته إلى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به، وأوّلُ ما اشتهر به لتصديقه له في خبر الإسراء والمعراج، ففي حديث عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: لما أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتدّ ناسٌ ممن كانوا آمنوا به وصدّقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعُم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: وتُصدِّقُه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأُصدِّقه فيما هو أبعدُ من ذلك، أُصدِّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمِّي أبا بكر الصِّدِّيق"[٢٤].

ومن فضائل أبي بكر رضي الله عنه التي استحق بها لقب الصِّديق سبْقُه إلى الإسلام والنصرة والهجرة والجهاد وغيرها، ويكفي دليلاً على ذلك ما ثبت من فضائله ومناقبه، فهو أول الرجال إسلامًا، كما في حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه قال:" رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَمَا مَعَهُ إِلاَّ خَمْسَةُ أَعْبُدٍ

وَامْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ"(٢٥)، وهو الصاحب في الهجرة، وثاني اثنين في الغار، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، وفي الحديث الصحيح عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِى بَكْرٍ رضي الله عنه قَالَ قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا. فَقَالَ: "مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا"(٢٦)، وفي حديث الهجرة الطويل قال أبو بكر رضي الله عنه: "... فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَا ، فَلَمْ يُدْرِكْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غَيْرُ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُ. فَقُلْتُ هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: " لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا"(٢٧)، فشرَفُ الصحبة في الهجرة فضيلةُ الفضائل ومنقبةُ المناقب للصّديق، حتى قال عنها سفيان بن عيينة: "عاتب الله المسلمين جميعًا في نبيه صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر رضي الله عنه وحده فإنه خرج من المعاتبة، ثم قرأ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ عامًا عامًا (الآية) "(٢٨).

ومن فضائل أبي بكر رضي الله عنه التي استحق بها مقام الصّديقية إنفاقه في سبيل الله، أسلم وله أربعون ألفًا، أنفقها كلها على رسول الله ﷺ في سبيل الله(٢٩)، فقال عنه ﷺ: " **إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ، لاَ يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ، إِلاَّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ**"(٣٠)، وقال أيضًا: "ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مالُ أبي بكرٍ، فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله! هل أنا ومالي إلا لك، يا رسول الله"(٣١).

ومن أدلة صديقية أبي بكر رضي الله عنه مسابقته في الخيرات، فقد كان أكثر الصحابة اجتهادًا في الطاعات والقربات، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من أصبح منكم اليوم صائمًا؟ " قال أبو بكر: أنا. قال: "فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ " قال أبو بكر: أنا. قال: "فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟ " قال أبو بكر: أنا. قال: "فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟" قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة"(٣٢).

ولو رحنا نتتبع فضائل أبي بكر رضي الله عنه الدالة على صديقيته لطال المقال، ففضائله تكاد لا تحصى، قال عنها النووي: " وكم للصديق من مواقف وأثر؟ ومن يحصي مناقبه ويحيط بفضائله غير الله عزوجل؟"(٣٣)، وفيما ذكرنا غُنية وبيان للمقصود.

ثالثًا: شهادة الصحابة على صديقية أبي بكر رضي الله عنه

لو لم يكن لأبي بكر رضي الله عنه من الفضائل إلا ما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه(٣٤)، والرسول ﷺ في الصحيح من سنته لكفاه، ولكن الله عز وجل زاده تشريفًا بأن كتب له القبول في قلوب المؤمنين فأحبوه ووالَوْه، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أول من عرف للصّديق مكانته، ولذلك وردت عنهم آثار كثيرة يُنوّهون فيها بفضائله، سأكتفي بذكر شهادة رجلين من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعترف بعجزه عن مسابقة أبي بكر رضي الله عنه في الإنفاق في سبيل الله فيقول: " أمرنا رسول الله

مظاهرُ الصِّدِّيقيةِ في إنجازاتِ أبي بكرٍ رضي الله عنه في خلافته

صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أبقيت لأهلك"؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال:" يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك"؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا"[٣٥].

وحين اقترح أبو بكر رضي الله عنه عمرَ أو أبا عبيدة لمنصب الخلافة وهم في السقيفة، رد عليه عمر رضي الله عنه:" بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ"[٣٦]. وقال أيضًا:" وَاللَّهِ أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي لاَ يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ"[٣٧]. فإذا كانت هذه شهادة الفاروق رضي الله عنه - ومقامه بين الصحابة بالمكان المعلوم - فبقية الصَّحب رضي الله عنهم من باب أولى.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي ادعى فيه أقوام ما ادعوا، حتى رفعوه إلى مقام العصمة، وجعلوه خصمًا للصديق، يؤكد سبق أبي بكر رضي الله عنه وفضيلته، فهو من قال كما أخبر عنه ولده محمد بن الحنفية قال: قُلْتُ لأَبِي أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ، قَالَ: مَا أَنَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[٣٨]، وأخرج أحمد عن أبي جحيفة عن علي رضي الله عنه أنه قال: "خير هذه الأمة بعد نَبِيِّها أبو بكر، وخيرها بعد أبي بكر عمر، ولو شئت سمَّيتُ الثالث"[٣٩]. وكان رضي الله عنه يقول:" لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري"[٤٠].

أما شهادة عموم الصحابة رضي الله عنهم فيكفي فيها ما ذكر ابن عمر رضي الله عنهما، قال:" كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنهم"[٤١]، وفي رواية: " كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لاَ نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا ثُمَّ عُمَرَ ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ لاَ نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ"[٤٢]، فأبو بكر رضي الله عنه في المقام الأول في تفاضل الصحابة، يصرحون بذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع، فلا ينكره.

هذا هو الصِّدِّيق الأكبر، لازم الصدق في القول والعمل، ولم تقع منه هَنَاة، فأضحى الرجل الثاني في الإسلام، أكرمه الله عز وجل ورفع شأنه فجعله وزيرَ نَبِيِّهِ فكان الصاحب في الهجرة وثاني اثنين في الغار، ونوَّه الرسول صلى الله عليه وسلم بفضْلِه وسَبْقِه وبَذْلِه، فأحبَّه وقرَّبه واختاره ليؤُمَّ الناس في الصلاة، وهو حيٌّ صلى الله عليه وسلم، وعرف الصحابة رضي الله عنهم أن ليس فيهم من تقطع إليه الأعناق مثله، فاختاروه خليفة لهم، وتوافقت الأمة على سمو قدره وعلو منزلته فأجمعت على صدِّيقيته، وتبارى العلماء في مدحه والثناء عليه بما هو أهله. فقال عنه سعيد بن المسيب: " كان أبو بكر من النبي صلى الله عليه وسلم مكان الوزير، فكان يشاوره في جميع أموره، وكان ثانيه في الإسلام، وثانيه في الغار، وثانيه في العريش يوم بدر، وثانيه في القبر، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم عليه أحدًا"[٤٣].

وقال عنه الشعبي:" خص الله تبارك وتعالى أبا بكر الصديق بأربع خصال لم يخص بها أحدًا من الناس: سماه الصديق ولم يسم أحدًا الصديق

غيره، وهو صاحب الغار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفيقه في الهجرة، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة والمسلمون شهود"[٤٤].

وقال عنه أبو نعيم الأصفهاني:" أبو بكر الصديق، السابق إلى التصديق، الملقب بالعتيق، المؤيد من الله بالتوفيق، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم في الحضر والأسفار، ورفيقه الشفيق في كل الأطوار، وضجيعه بعد الموت في الروضة المحفوفة بالأنوار، المخصوص في الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار، وعامة الأبـرار، وبقي له شرفه على كرور الأعصار، ولم يَسْمُ إلى ذروته همم أولي الأيد والأبصار"[٤٥].

ولو رحنا نسوق أقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة والباحثين المنصفين حول صِدِّيقِية أبي بكر رضي الله عنه لضاق المجال، ولكن حسبنا أن الأمة مجمعة على أنه الصِّديق الأول، لعلو منزلته وكثرة مناقبه وفضائله، ولا عبرة بما يقوله بعض من لا يُعتد به من الطوائف المخالفة.

المبحث الثاني: إنجازات أبي بكر رضي الله عنه ومظاهر الصديقية فيها

بُويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفةً للمسلمين في اليوم الموالي لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانت كل القرائن تدل أنه المرشح لذلك، ليس بسبب تلك الأحـداث والأحاديث التي تشير إشارات يفهمها كل ذي لب إلى أن الخلافة ستؤول إليه فحسب، وإنما بما كان يعرف الصحابة رضي الله عنهم من صِدِّيقِيته رضي الله عنه، إذ كانوا بحاجة إلى رجل رحيم يواسيهم في مصابهم بفقد رسول الله، وما ألفوه من رحمته صلى الله عليه وسلم ، فكان الأجدر بذلك مَنْ وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:" أرحم أمتي بأمتي أبو بكر..."[٤٦]، فكان همزة وصل بين نبوة الرحمة وخلافة الرحمة كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فيما أخرج الطبراني عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ ، ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ..."[٤٧]

وقد لاحت علامات الرحمة من الصديق رضي الله عنه قبل تَوَلِّيه الخلافة؛ حين ثَبَّته الله جل وعلا يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فثَبَّتَ به الأمة، وحين قطع الخلاف في السقيفة بما ألهمه الله عز وجل من حجة في القول، فأعاد إلى الصحابة لحمتهم، ثم حين خطب في الناس بعد بيعته، فأكد على اتباع هدي بني الرحمة صلى الله عليه وسلم، وبخاصة حين ختم كلمته قائلاً:" أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"[٤٨]، وفي رواية أنه قال:"أيها الناس: إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني"[٤٩]، فكان العمل بالكتاب والسنة منهجه في الحكم والسياسة، وعنوان صِدِّيقِيته.

ومنذ قام رضي الله عنه مقام رسول الله، لم يُخِلَّ بشيء من هديه ﷺ، فوفىَّ بالوعد الذي قطعه على نفسه، ولم يُحابِ حتى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها حين أرسلت إليه بعد وفاة أبيها تسأله نصيبها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبرَ وفَدَكٍ، وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر عليها ذلك، وقال:" لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ"[٥٠].

خلافة الصِّدِّيق رضي الله عنه هي الأقصر

مدة، إذ لم تزد عن سنتين ومائة يوم[٥١]، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ"[٥٢]، فقوله: "فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ"، إشارة إلى مدة خلافته القصيرة، وليس في قوله: "وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ" حطٌ من فضيلة أبي بكر ولا إثباتٌ فضيلةٍ لعمر عليه، وإنما إخبار عن مدة ولايتهما وكثرة انتفاع الناس في ولاية عمر لطولها[٥٣]، فأبو بكر رضي الله عنه شُغل بقتال أهل الردة، وحين استخلَفَ عمرَ رضي الله عنه كان قد طهَّر الجزيرة من رجسهم، وهيأ له أسباب استقرار الدولة، ومن ثَمّ التوسع في الفتوحات.

ورغم قصر مدة خلافة الصِّديق رضي الله عنه، فإنها كانت حافلة بإنجازات عظيمة خلَّدها التاريخ، وتجلت فيها مظاهر صِدِّيقيته، فما تلك الإنجازات؟ وما مظاهر الصِّديقية فيها؟ ذلك ما ستحاول المطالب الآتية الإجابة عنه، وبالله التوفيق والسداد.

المطلب الأول: إنفاذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما

كان آخر عمل قام به النبي صلى الله عليه وسلم قُبيل وفاته تجهيزُ جيش أسامة رضي الله عنه، قال ابن إسحاق:"وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يُوطِئَ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون. قال ابن هشام: وهو آخر بعْثٍ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٥٤]، وقد أكد صلى الله عليه وسلم على ضرورة إنفاذه، فقال في مرض وفاته:"انفذوا جيش أسامة"[٥٥]، وحين طَعَن بعض الناس في إمارة أسامة، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "إِنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ"[٥٦]، وتحرك الجيش فلما وصل إلى الجرف، عسكر هناك ينتظر أخبار النبي صلى الله عليه وسلم الذي اشتد به المرض، ثم لم يلبث أن لحق بالرفيق الأعلى - بأبي هو وأمي - صلوات ربي وسلامه عليه، وتولى الصديق رضي الله عنه الخلافة، فنادى مناديه من الغد من متوفى رسول الله لِيُتَمّم بعث أسامةَ:" ألا لا يبقين بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف"[٥٧].

كان ذلك أول قرار اتخذه خليفة رسول الله، وكيف لا يسارع إلى إكمال مشروع بدأه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي تعهّد أمام مبايعيه أن يطيع الله ورسوله؟

والحق أن إنفاذ جيش أسامة كان في ظرف استثنائي وحساس، إذ بدأت بوادر الردة والتمرد تلوح، وقد صورت عائشة رضي الله عنها ذلك بقولها:" لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب قاطبة وأُشربت النفاق، والله لقد نزل بِأَبِي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كأنهم معزًى مَطِيرَةٍ في حُشٍّ (بستان) في ليلة مَطِيرَةٍ في أرض مَسْبِعةٍ (ذات سباع)، فوالله

ما اختلفوا في نقطة إلا طار أَبِي بحظها وغنائها وفضلها"(٥٨)، وعن ابن سعيد قال: " لما فصل أسامة كفرت الأرض وتضرمت، وارتدت من كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشًا وثقيفًا"(٥٩).

وأمام هذا الوضع المنذر بالخطر، قال بعض الصحابة للصّديق رضي الله عنه: "أمسك أسامة وبعثه فإنا نخشى أن تميل علينا العرب إذا سمعوا بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٦٠)، وفي رواية أنهم قالوا له: "إن هؤلاء جُلُّ المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين"(٦١).

كانت كل المعطيات تؤيد ضرورة الإبقاء على جيش أسامة في المدينة النبوية لحمايتها من الخطر المحدق بها، لذلك بَدا اقتراح تأجيل خروج الجيش منطقيًا وواقعيًا، ولكن الصديق رضي الله عنه خالف المتوقع، وأصدر قرارًا حاسمًا بإكمال مشروع بعث جيش أسامة، ولم يلتفت إلى تحذيرات الناس وتخويفهم.

إن الصّديق رضي الله عنه الذي صمّم على إنفاذ جيش أسامة، كان ينطلق من عقيدة راسخة، هي وجوب طاعة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك رد على مخالفيه بقوله:" والله لا أحُلُّ عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٦٢)، وقال أيضًا: "أنا أحبسُ جيشًا بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم! لقد اجترأتُ على أمر عظيم، والذي نفسي بيده لأَنْ تميل عليّ العرب أحبّ إليّ من أن أحبس جيشًا بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، امضِ يا أسامة في جيشك للوجه الذي أُمِرْتَ به، ثم اغْزُ؛ حيث أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية فلسطين، وعلى أهل مؤتة، فإن الله سيكفي ما تركتَ"(٦٣).

وحين حذره الناس من اكتساح المرتدين للمدينة، لم يضعف ولم يتردد، بل ازداد إصرارًا وعزيمةً، ورفع التحدي إلى أقصاه فقال:" لو أن الطير تخطفُنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرَتْ بأرجُلِ أمهاتِ المؤمنين لأُجهزنَّ جيشَ أسامة"(٦٤).

ما سر هذا الإصرار والعزم، إنها الصديقية التي تستمد منطقها من الاتباع الكامل، وكل قضية عند الصّديق رضي الله عنه تتسع للاجتهاد إلا قضيةً أبرم اللهُ فيها حكمًا، أو أصدر الرسولُ فيها أمرًا, لقد أمرَ الرسول صلى الله عليه وسلم قُبيل وفاته أن ينفذ بعث أسامة، وليكن ما أمر الرسول به مهما تكن مستحدثات الظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة.!

وأبو بكر رضي الله عنه يؤثر أن تتخطفه الذئاب على أن يرد للرسول صلى الله عليه وسلم قضاء، أو يعطل مشيئة. إن بين الصّديق وبين الله عهدًا وموثقًا يتمثلان في إيمانه الراسخ الصامد، والاتباع في أسمى مراتبه للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنه لمصمم على أن يتحمل حتى الموت كافة الالتزامات التي يفرضها هذا الاتباع الكامل، ولو تخطفته الذئاب!(٦٥).

وحين أدرك مقترحو إرجاء إنفاذ جيش أسامة أن أبا بكر رضي الله عنه ماضٍ في قراره، ويئسوا من تراجعه، قال مَنْ مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:" فإن أبىَ إلا أن نمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يُوَلّي أمرنا رجلا أقدم سِنًّا من أسامة"، فقال عمر: "إن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سنًّا من أسامة"، فوثب أبو بكر - وكان جالسًا - وأخذ بلحية عمر، وقال: " ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه

مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازات أبي بكرٍ رضي الله عنه في خلافته

وسلم، وتأمرني أن أنزعه"(٦٦).

ومرة أخرى يرفض أبو بكر رضي الله عنه أي مساومة في أمر قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن الذي يُعرض على الصّديق شبيهٌ بما قال الناس حين طعنوا في إمارة أسامة رضي الله عنه يوم اختير لقيادة الجيش، وإذا كان رد النبي صلى الله عليه وسلم يومها أنه خليق بالإمارة، فلا يُنتظر من الصّديق رضي الله عنه إلا ذلك الرد الذي أسمعه عمرَ ليبلغه للمعترضين، إنها الصديقية التي لا تجترئ على تغيير شيء قضت به النبوة.

ولكي يعطي الصّديق رضي الله عنه المثل في الانقياد والطاعة لما قضى به الرسول صلى الله عليه وسلم فقد خرج حتى أتى جيش أسامة "فأشخصهم وشيّعهم وهو ماشٍ وأسامة راكبٌ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبَنّ أو لأنزلنّ! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب! وما عليّ أن أُغبّر قدمي في سبيل الله ساعة"(٦٧)، إنه يتمثل موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع معاذ بن جبل رضي الله عنه، لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ, خَرَجَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُوصِيهِ، وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَمْشِي تَحْتَ رَاحِلَتِهِ(٦٨). ولم يقف الخليفة عند هذا الحد، بل بلغ من تقديره لمن أمّرَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستأذنه في الإبقاء على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة قائلاً:" إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل! فأذن له"(٦٩).

ولم ينس وهو يودّع الجيش أن يوصيه بآداب الغزو(٧٠)، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرسل سرايا الجهاد(٧١)، ثم التفت إلى أسامة رضي الله عنه فلم يزد على أن قال له:" اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ... ولا تُقَصّرَنّ في شيء من أمر رسول الله ﷺ"(٧٢).

سار أسامة بن زيد رضي الله عنهما بجيشه، فأغار على القبائل التي ظاهرت الروم على جيش المسلمين في غزوة مؤتة، وقضى على كل مقاومة صادفها هناك، وبعد أربعين يومًا عاد إلى المدينة سالمًا غانمًا، فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح، فقد تحقق لذلك الجيش ما لم يكن في الحسبان، قهرَ الروم، فقالوا، وقد تزامن خبر إغارة أسامة رضي الله عنه مع نعي رسول الله ﷺ:" ما بَالُ هؤلاء بمَوتِ صاحبهِم أن أغاروا على أرضنا"(٧٣)، وفي رواية:" ما بَالُ هؤلاء يمُوتُ صاحبهُم وأن أغاروا علينا"(٧٤)، وزَدَعَ كثيرًا من أحياء العرب، فكان لا يمر على حي إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة،" فعل بسمعته ما لم يفعله بقوته وعدده، فأحجم من المرتدين من أقدم، وتفرق من اجتمع، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال، وقبل أن يصنع السلاح"(٧٥)، فكان كما قال عروة: "ما رُئي جيشٌ أسلمَ من ذلك الجيش"(٧٦).

ولم أجِدْ مَنْ نقل إلينا حقيقة تلك الأحداث أفضل من أبي هريرة رضي الله عنه الذي عبّر عنها بقوله:" والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استُخلِف ما عُبد الله. ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، فقيل له: مَهْ يا أبا هريرة. فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام، فلما نزل بذي خُشُب قُبِض رسول الله ﷺ، وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺفقالوا: يا أبا بكر، رُدَّ هؤلاء، تُوَجِّهُ هؤلاء إلى الروم، وقد ارتدت

العرب حول المدينة؟ فقال: والذي لا إله غيره لو جَرّتِ الكلاب بأرجُل أزواج رسول الله ﷺ ما رددتُ جيشًا وَجّهَهُ رسول الله ﷺ، ولا حللتُ لواءً عقده رسول الله ﷺ. فوجّه أسامةَ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعُهُم حتى يلقوا الروم. فلقوا الروم فهزَمُوهم وقَتَلوهم، ورجعوا سالمين، فثَبَتُوا على الإسلام"[٣٧].

لقد كان إنفاذ جيش أسامة " العنوان الأول لسياسة عامة هي في ذلك الحين خير السياسات، كان قوامها طاعة ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الطاعة - جد الطاعة - مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر في ذلك الحين. وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر، فالطاعة - بل الطاعة الصارمة - هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام، وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين لا مراء"[٣٨].

وبعد.. فهل كان الصديق رضي الله عنه مُجازفًا ومُغامرًا لا يحسب حسابًا للعواقب، أم كان مُستبدًا ومُتعنّتًا مُعتدًّا برأيه لا يصغي لنصح ناصح، حين أصرّ على إنفاذ جيش أسامة ؟ أحْسَبُ أن الجواب أضحى جليًا بعد أن تحققت تلك النتائج الباهرة، ويبقى السؤال الجوهري، ما الذي كان يسعف أبا بكر رضي الله عنه ويسدده في مواقفه؟ والجواب: إنها الدرجات العلى من اليقين التي حازها، إنها "الصديقية"!

أما الدرس الذي يتعين على الأمة أن تستوعبه من إنفاذ الصّديق رضي الله عنه لجيش أسامة فهو: أن الله تعالى قد ربط نصرها وعزها باتباع هدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فمن أطاعه فله النصر والتمكين، ومن عصاه فله الذل والهوان، فسِرُّ حياة الأمة في طاعتها لربها جل ثناؤه واقتدائها بسنة نبيها ﷺ.

المطلب الثاني: قتال المرتدين

المظهر الثاني من مظاهر الصّديقية في إنجازات أبي بكر رضي الله عنه في خلافته هو قتال المرتدين، وهو من أعظم مناقب الصّديق، وليس من شأن هذا البحث تفصيل القول في أحداث الردة ولا تتبع أخبارها، وإنما يعنينا إبراز مواقف الصديق رضي الله عنه فيما عزم الله له من قتال المرتدين.

أشرنا آنفًا إلى أن بوادر ردة عامة لاحت في الأفق بعد انتشار خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنفاذ أبي بكر رضي الله عنه لجيش أسامة، فقد تفشّت الردة في قبائل العرب تفشيًا ذريعًا قال عنه ابن إسحاق:" ارتدّت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ ما خلا أهل المسجدين، مكة، والمدينة، وارتدّت أسد وغطفان، وعليهم طُليحة ابن خويلد الأسدي الكاهن، وارتدّت كندةُ ومن يليها، وعليهم الأشعث بن قيس الكندي، وارتدّت مذحجٌ ومن يليها، وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن، وارتدّت ربيعةُ مع المعرور ابن النعمان بن المنذر، وكانت حنيفةُ مقيمةً على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب، وارتدّت سليم مع الفجاءة، واسمه أنس بن عبد يا ليل، وارتدّت بنو تميم مع سجاح الكاهنة"[٣٩].

وقد تباينت مظاهر الردة وأسبابها، وتعددت أصنافها وطوائفها، وصفها الخطابي بقوله:" أهل الردة كانوا صنفين: صنف منهم ارتدوا عن الدين ونبذوا الملة وعادوا إلى الكفر...وهذه الفرقة طائفتان: إحداهما: أصحاب مسيلمة من بني حنيفة وغيرهم الذين صدقوه على دعواه

في النبوة، وأصحاب الأسود العنسي ومن كان من مستجيبيه من أهل اليمن وغيرهم. وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مدعية النبوة لغيره فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه حتى قتل الله مسيلمة باليمامة والعنسي بصنعاء وانفضت جموعهم وهلك أكثرهم. والطائفة الأخرى ارتدوا عن الدين وأنكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة إلى غيرهما من جماع أمر الدين وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية... والصنف الآخر: هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة فأقروا بالصلاة وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها إلى الإمام"[٨٠].

فقد ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، ونجم النفاق بالمدينة، وظهر متنبئون أمثال: مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي وسجاح التميمية، وانحازت كل قبيلة إلى كاهنها تناصره، وهي تعلم أنه كذاب، فكانوا كما قال طلحة النمري لمسيلمة عندما رآه وسمع منه ما عَلِمَ به كذبه:" أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر"[٨١]، وقد أغرى بعض الأعراب غياب جيش أسامة فطمعوا في المدينة وهمُّوا بالهجوم عليها، وقَدِمَتْ وفود أخرى تساوم في دين الله، تقِرُّ بالصلاة وتمتنع عن أداء الزكاة، فعزم الله جل وعلا لأبي بكر رضي الله عنه قتال كل هذه الطوائف لردتها، فأما المتنبئون وأتباعهم فقد أعلنوا كفرهم البواح ولم تختلف كلمة الصحابة في قتالهم، وأما الممتنعون عن دفع الزكاة فقد رأى بعض الصحابة - ومنهم عمر بن الخطاب - تألفهم والرفق بهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، ليُفرغ لقتال المارقين من الدين ومن نزع ربقة الإسلام من عنقه، لكن الصديق رضي الله عنه رفض ذلك رفضًا قاطعًا، وصَمَّم على قتالهم حتى يؤدوا زكاة مالهم، وقد دار حوار بين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحاجّ الصديقُ الفاروقَ، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﵁ قال:" لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّى مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ"، فَقَالَ: وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِى عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا. قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ"[٨٢]. وفي رواية مسلم:" والله لو منعوني عقالاً، كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه".

فقد فهم الصديق رضي الله عنه – وكان أفقه الصحابة - من الحديث النبوي الذي ذكره عمر رضي الله عنه دليلاً على مشروعية قتال مانعي الزكاة، فالصلاة والزكاة من مقتضيات الشهادتين، وكيف يقبل المساومة في التفريق بين الصلاة والزكاة، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لبني شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ حين لقيهم بالموسم في مِنى - وكان أول من تحدث إليهم- ":إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إلا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ"[٨٣]، كما أنه يتمثل موقف النبي صلى الله عليه وسلم من وفد ثقيف- وهو الذي بشَّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدمهم وحضر حوارهم-، وقد كان فيما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدع لهم صنمهم، وهي اللات، لا يهدمها، فأبى رسول الله صلى

الله عليه وسلم ذلك عليهم، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، فأجابهم بقوله:" فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه"[٨٤].

وتأمل تمثُّلَ أبي بكر رضي الله عنه منهج النبي صلى الله عليه وسلم الدال على صِدّيقيته حين لم يقبل المساومة على شيء مما كان يُعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعبر عنه بالعناق، وهو: الأنثى من ولد المعز، أو العِقال، وهو: الحبل الذي يعقل به البعير، وكلاهما كناية عن الأمر الهين الذي يمكن التغاضي والسكوت عنه، ولكنه عند الصّديق رضي الله عنه ذو شأن وقيمة ولا يمكن التنازل عنه، إذْ كان يعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد أدرك الصديق رضي الله عنه " ارتباط الأحكام الشرعية ببعضها، ورفض تعطيل أي حكم منها مهما كان مُهمًّا لقتال مانعي الزكاة بصورة خاصة؛ حيث تقدح شبهة بقائهم على الإسلام ومن ثم حصانة دمهم بالشهادة، وهذا ما عالجه الصديق رضي الله عنه بالبيان والحجة. ولو خضع لمساومات الأعراب فربما كانوا سيطالبون بإسقاط أحكام والتزامات شرعية أخرى.. ولو أجابهم لأحسوا بضعفه وزاد طمعهم فيه"[٨٥].

ومرة أخرى تُسعف الصّديقية أبا بكر رضي الله عنه ليقف هذا الموقف الرباني الحاسم، فلا يضعف ولا يستكين، والعجيب أن الفاروق رضي الله عنه - وهو الشديد في دين الله – يطالب بمهادنة القوم وتأليف قلوبهم، ولما رأى الصديق رضي الله عنه منه ذلك الضعف انتهره بشدة وعنفه قائلاً:" أجبارٌ في الجاهلية وخوارٌ في الإسلام ؟ إنه انقطع الوحي وتمّ الدين أينقُص وأنا حيٌّ"[٨٦]. وسرعان ما أدرك عمر رضي الله عنه أن الصديق رضي الله عنه على حق، وهو ما عبر عنه بقوله:" فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ".

انصرفت وفود القبائل المانعة للزكاة من المدينة خائبة بعدما رأت عزم الصديق وحزمه، فأضمرت الشر، فقرأ الصديق في وجوه القوم الغدر، فقال لأصحابه يحذرهم:" إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تُؤتَوْن أم نهارًا! وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم فاستعدّوا وأعدّوا"[٨٧].

وسرعان ما تحقق ما حذر منه الصديق رضي الله عنه، فبدأ التمرد وذرّ قرنُ الردة، " فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبي صلى الله عليه وسلم من كل مكان بانتقاض عامة أو خاصة، وتبسطهم بأنواع الميل على المسلمين، فحاربهم أبو بكر بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاربهم بالرسل. فردّ رسلَهم بأمره، وأتْبَعَ الرسلَ رسلاً، وانتظر بمصادمتهم قدومَ أسامة؛ وكان أول مَنْ صادم عبس وذبيان، عاجلوه فقاتلهم قبل رجوع أسامة"[٨٨].

وقد وضع الصديق رضي الله عنه خطةً محكمةً تحسُّبًا لأي غارة، فكانت على الوجه الآتي[٨٩]:

أ- ألزم أهل المدينة بالمبيت في المسجد؛ حتى يكونوا على أكمل استعداد للدفاع.

ب- نظم الحرس الذين يقومون على أنقاب المدينة ويبيتون حولها، حتى يدفعوا أي غارة قادمة.

ج- عين على الحرس أمراءهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد

مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازاتِ أبي بكرٍ رضي الله عنه في خلافته

الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم.

د- وبعث أبو بكر رضي الله عنه إلى من كان حوله من القبائل التي ثبتت على الإسلام من أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب يأمرهم بجهاد أهل الردة فاستجابوا له حتى امتلأت المدينة بهم.

هـ- ومن ابتعد عن المرتدين وأبطأ خطره حاربه بالكتب يبعث بها إلى الولاة المسلمين في أقاليمهم، كما كان رسول الله يفعل، يحرضهم على النهوض لقتال المرتدين ويأمر الناس للقيام معهم في هذا الأمر.

و- وأما من قرب منهم من المدينة واشتد خطره كبني عبس وذبيان فإنه لم ير بدًّا من محاربتهم على الرغم من الظروف القاسية التي كانت تعيشها مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أن آوي الذراري والعيال إلى الحصون والشعاب محافظة عليهم من غدر المرتدين، واستعد للنزال بنفسه ورجاله.

وبعد أربعين يومًا أو تزيد قليلاً[٩٠] عاد أسامة بن زيد بجيشه ظافرًا، فاستخلفه أبو بكر على المدينة وقال له ولجنده:" أريحوا وأريحوا ظهركم"، ثم خرج في الذين خرجوا إلى ذي القصّة والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر، فقال له المسلمون:" ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تُعرض نفسك! فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً فإن أصيب أمَّرت آخر فقال:" لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي"[٩١].

وهكذا ضرب أبو بكر رضي الله عنه المثل في الفدائية، فكان يخرج بنفسه لقتال المرتدين، وكله يقين بوعد الله للمؤمنين بالنصر، وقد تجلى ذلك في قوله مخاطبًا المؤمنين الثابتين:" إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم وإن رجعوا إليه أزهد منهم يومهم هذا، ولم يكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على ما قد تقدم من بركة نبيكم ﷺ، وقد وكلكم إلى المولى الكافي... والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفي لنا عهده، ويقتل من يقتل منا شهيدًا إلى الجنة، ويبقى من بقي منا خليفته وذريته في أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ .. (الآية) ﴾ [سورة النور: ٥٥]"[٩٢].

وبعد أن أخذ جيش أسامة قسطًا من الراحة، تهيأ الصّديق رضي الله عنه للتعبئة العامة، وقرر أن يقود الجيش بنفسه لو لا أن عارضه الصحابة ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت:" خرج أبي شاهرًا سيفه راكبًا على راحلته إلى وادي القصّة، فجاءه علي بن أبي طالب فأخذ براحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله يوم أُحُدٍ:" لُمَّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أُصِبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا"[٩٣].

رجع أبو بكر وعقد أحد عشر لواء واختار لها قيادات محنكة، وحدد لكل جيش وجهته، وكان من بين القادة خالد بن الوليد الذي عقد له لواءه، وهو يقول:" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " نِعْمَ عبدُ الله وأخو العشيرة، خالدُ ابن الوليد، سيفٌ من سيوف الله سَلَّه على الكافرين والمنافقين"[٩٤]. وأرسل مع كل أمير كتابًا يدعو فيه القبائل المرتدة أن تفيء إلى الإسلام، وإلا قاتلها[٩٥]. قدوته في ذلك رسول الله

صلى الله عليه وسلم.

واندفعت جيوش الحق لتدك معاقل الردة؛ حيثما وجدت، فصالت وجالت في ربوع الجزيرة تلاحق فلول المرتدين، وبخاصة تلك التي أغواها المتنبئون كطليحة الأسدي ومسيلمة الكذاب، وبعد معارك ضارية وبطولات نادرة سجلها التاريخ، طهّر الله عز وجل جزيرة العرب من رجس الردة والمرتدين، فعادت إلى رحاب التوحيد وعبادة الله كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يتسع المقام للتفصيل أكثر في هذا الإنجاز العظيم الذي حققه المسلمون تحت قيادة أبي بكر الصّديق رضي الله عنه الذي ألهمه الله عز وجل الصواب في قتال المرتدين، فكانت عزمةً من عزمات الصّديقية التي حفظت للإسلام قوته وللأمة وحدتها، ولو لا فضل الله جل وعلا، ثم ما فتح به على الصّديق رضي الله عنه من تصميم على قتال المرتدين لكان للإسلام شأن آخر، وقد أكبَرَ الصحابة رضي الله عنهم ذلك الصنيع من خليفة رسول الله فمنحُوه ما يستحق من التبجيل والتقدير، من ذلك هذا الموقف من عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي حكاه أبو رجاء العطاردي قال:" دخلتُ المدينة فرأيتُ الناس مجتمعين ورأيتُ رجلاً يُقبّلُ رأس رجل ويقول: أنا فداءٌ لك لولا أنت هلكنا، فقلتُ: من المُقبِّل ومن المُقبَّل، قالوا: ذاك عمر يُقبّل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين"[٩٦]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:" لقد قُمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامًا كدنا نهلك فيه لولا أن منّ علينا بأبي بكر؛ أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية"[٩٧].

المطلب الثالث: جمع القرآن الكريم

كان من نتائج حروب الردة أن أظهر الله جل ثناؤه دينه، وأعز جنده من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومكّن لهم، فطُهّرت جزيرة العرب من رجس المرتدين، وأكرم جل ذكره عددًا كبيرًا من المجاهدين بالشهادة في سبيله، وهو شرف كانوا يتوقون لنيله، وكان في مقدمة أولئك الشهداء الكثير من حفظة كتاب الله تعالى، فقد استحر بهم القتل، وبخاصة في معركة اليمامة ضد جيش مسيلمة الكذاب[٩٨]، فهالَ ذلك عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فأسرع إلى أبي بكر رضي الله عنه يشير عليه بضرورة جمع القرآن الكريم حتى لا يذهب كثير منه بموت أولئك الحفاظ وقد روى البخاري رحمه الله تعالى قصة جمع القرآن عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ:" أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ، إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لاَ نَتَّهِمُكَ، وقد كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ

شيئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرَهُ ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ حَتَّى خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رضي الله عنه"(٩٩).

وجمعُ القرآن الكريم من الإنجازات العظيمة في خلافة الصديق رضي الله عنه، وقد تجلت مظاهر الصِّديقية في هذا الإنجاز في عدة مواقف، منها: تحقيقُ وعدِ اللهِ عز وجل بحفظ كتابه العزيز في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وقد فقِه الصحابة رضي الله عنهم وعلى رأسهم الصِّديق أن وعد الله جل ذكره لا يتحقق إلا بعزمات الرجال، فلم يفهموا من الآية الكريمة أن حفظ الله لكتابه يعفيهم من أي جهد، ولكنهم استشعروا مسئوليتهم في ذلك، فسارعوا إلى جمعه خشية أن يذهب أكثره، أما تردد الصِّديق رضي الله عنه في البداية فسببه التحرج أن يكون جمع القرآن بدعة في الدين، فكره أن يحلَّ نفسَه مَحلَّ من يجاوزُ احتياطَهُ للدين احتياطَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم(١٠٠)، وهو الذي دأب على اتباع خطوات النبي صلى الله عليه وسلم لا يحيد عنها قيد أنملة، ولذلك قال لعمر:" كَيْفَ تَفْعَلُ شيئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟"، وما زال عمر يراجعه حتى أقنعه بصواب الفكرة، فانشرح لها صدر الصديق، ثم راح أبو بكر يراجع زيد بن ثابت حتى اقتنع وشرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعًا، وفي انشراح الصدور إلهام رباني يكرم الله جل وعلا به صحابة رسول الله رضي الله عنهم إذا اختلفوا في أمر، وهي دليل صدقهم مع الله تعالى.

وكان تكليف زيد بن ثابت رضي الله عنه للقيام بتلك المهمة الشاقة اختيار موفق، فقد توفرت فيه جملة من المؤهلات ذكرها الصديق رضي الله عنه، فهو:

- شاب قوي العزيمة.
- عاقل فطن.
- ثقة وورع غير متهم في دينه.
- أحد كتاب الوحي.

يضاف إليها أنه كان ممن جمع القرآن حفظًا في صدره في حياة رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قُلْتُ لأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قَالَ أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يُكْنَى أَبَا زَيْدٍ"(١٠١)، وأنه فيما رُوي كان ممَّن شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم(١٠٢)، ومع ذلك فقد استشعر ثقل المهمة فقال:" فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ".

وقد أدى زيد رضي الله عنه تلك المهمة على أكمل وجه وأحسنه، وكان جديرًا بثقة الصديق رضي الله عنه.

وقد كان لِجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه منزلة عظيمة بين المسلمين، فلم يَحصل خلاف على شيء مِمَّا فيه، وامتاز بمزايا عديدة، منها:(١٠٣)

١. أنه جمع القرآن على أدقّ وجوه البحث والتحري، وأسلمِ أصول التثبت العلمي.

٢. حصول إجماع الأمة على قبوله، ورضى جميع المسلمين به.

٣. بلوغ ما جُمِع في هذا الجمع حدّ التواتر، إذ حضره وشهد عليه ما يزيد على عدد التواتر من الصحابة رضي الله عنهم.

٤. أنه اقتصر في جمع القرآن على ما ثبت قرآنيته من الأحرف السبعة، بثبوت عرضه في العرضة الأخيرة، فكان شاملاً لما بقي من الأحرف السبعة، ولم يكن فيه شيء مِمّا نُسِخت تلاوته.

٥. أنه كان مرتب الآيات دون السور.

ولقد حظي هذا الجمع المبارك برضى المسلمين، وحصل عليه إجماع الصحابة رضي الله عنهم ، ولقي منهم العناية الفائقة.

وفِقَ هذه الشروط من الدقة والتحري تمّ جمْعُ القرآن الكريم في عهد الصديق رضي الله عنه فأضحى أعظم منقبةٍ له، قال عنها علي بن أبي طالب رضي الله عنه:" رحمة الله على أبي بكر، كان أعظم الناس أجرًا في المصاحف، وهو أول من جمع بين اللوحين"[(١٠٤)]، وفي رواية:" يرحم الله أبا بكر هو أول من جمع اللوحين"[(١٠٥)]، وقال ابن حجر:" وإذا تأمّل المنصف ما فعله أبو بكرٍ من ذلك جزم بأنه يُعدُّ في فضائله، ويُنوّه بعظيم منقبته؛ لثبوت قوله صلى الله عليه وسلم: "من سنّ سنة حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها"[(١٠٦)]، فما جَمَعَ القرآنَ أحدٌ بعده إلا وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة"[(١٠٧)].

والحاصل أن جمع القرآن الكريم من أعظم الإنجازات التي تحققت للمسلمين منذ خلافة الصديق رضي الله عنه إلى أن تقوم الساعة، وقد تجلت فيه بعض مظاهر الصديقية حين منحه أبو بكر رضي الله عنه من الاهتمام ما يليق بكتاب الله تعالى، فلم يدخر جهدًا في توفير كل أسباب نجاحه، بدءً بتحفظه حتى انشرحَ صدرُه، مرورًا بتكليف أحد أكبر الصحابة عناية بالقرآن الكريم، وانتهاءً بجمعه وفق أدق مناهج التحري والضبط فكان هذا الكتاب الخالد الذي بين أيدينا، محفوظًا من التحريف، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

المطلب الرابع: طلائع فتح العراق والشام

هذا هو الإنجاز الرابع والأخير في خلافة الصديق رضي الله عنه، القصيرة مدة والمباركة أعمالاً، وإنما سميتها طلائع الفتح؛ لأنها لم تكتمل إلا في خلافة الفاروق رضي الله عنه، وسأحاول في هذا المقام إبراز مظاهر الصديقية في هذا الإنجاز دون ذكر تفاصيل الأحداث، وبالله التوفيق والسداد.

كان الأصل أن يستمر الفتح الإسلامي من حيث توقفت غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، لولا ظهور حركة الردة التي شغلت المسلمين مدة من الزمن، وبذلوا فيها جهودًا مضنية، وكلفتهم تضحيات جسيمة، ومع ذلك لم تكن شرًا كله، بل كانت في كثير من جوانبها خيرًا، فقد كشفت عن معدن الدولة التي أرسى أسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هي دولة قائمة على سنن جارية، تتعرض – شأن بقية الدول – لهزات قوية وثورات عنيفة، ولكنها تُحوّلُ تلك التحديات إلى محفزات فلا تزيدها إلا ثباتًا ورسوخًا، كما أنها كانت تمحيصًا لصفوف المؤمنين حتى يتميز الخبيث من الطيب؛ لأن مهمة الجهاد في سبيل

الله التي تنتظر المؤمنين شرف لا يستحقه إلا المخلصون، ودعوة الله لا يحملها إلا المتقون، وأخيرًا فإن حروب الردة كانت بمثابة معسكر تدريب تلقى فيه المجاهدون دروسًا تطبيقية في فنون القتال، تهيئة لهم للمعارك الحاسمة التي تنتظرهم ضد الإمبراطوريتين الفارسية والرومية.

بعد تطهير الجزيرة من لوثة الردة، تأهب المسلمون للانطلاق بدعوة الله لنشرها في الآفاق، ولم يكن خليفة رسول الله بحاجة إلى رسم خطط ولا تحديد أهداف، فقد كانت خارطة الطريق واضحة، رسم رسول الله صلى الله عليه وسلم معالمها، وما على الصديق رضي الله عنه سوى اتباع منهجها.

فالمتأمل لأحداث السيرة النبوية يلحظ اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم في أخريات حياته بتوسيع مجال دعوته لتطال مناطق خارج الجزيرة العربية، فكانت كتبه ورسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام، في محرم سنة سبع من الهجرة[١٠٨]، ثم كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة[١٠٩]، ثم كانت تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة[١١٠]، وهي آخر غزواته صلى الله عليه وسلم، وختم رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته الجهادية بتجهيز جيش أسامة ليخرج إلى البلقاء، وتوفي صلى الله عليه وسلم والجيش يتأهب للخروج، والملاحظ أن كل تلك التحركات كانت إلى بلاد الشام؛ حيث تتواجد دولة الروم.

وكان أكثر ما حفّز أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على التهيؤ لفتح العراق والشام، ما قرأوا من وعود ربانية صادقة في كتاب الله تعالى باستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم، وما سمعوا من بشائر الفتح حدّثهم عنها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، وقد أيقنوا -وهم أفقه الناس بسنن الله تعالى- أن تلك الوعود والبشائر لا تكتمل إلا باتخاذ الأسباب واستفراغ الجهد، فشمروا على ساعد الجد، فكانت تلك الفتوحات العظيمة التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

ففتْحُ بلادِ فارس والروم مما وعد الله تبارك وتعالى به عباده المؤمنين، وبشر به النبي صلى الله عليه وسلم أمته، فقد تضافرت نصوص القرآن الكريم بالنصر والتمكين للمؤمنين واستخلافهم في الأرض، في مثل قوله جل ذكره: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله جل ثناؤه: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ [النور:٥٥]، وقوله جل وعلا: ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم:١-٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم:٤٧]، وقوله جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر: ٥١]، والآيات في ذلك كثيرة.

أما بشائر النبي صلى الله عليه وسلم بفتح فارس والروم فقد وردت في أحاديث صحيحة

وصريحة، كما في الحديث المتفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"(١١١)، وبَشَّرَ النبي ﷺ بفتح بلاد فارس، كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لتفتحن عصابة من المسلمين، أو من المؤمنين، كنز آل كسرى الذي في الأبيض"(١١٢)، وفي حديث آخر أخبر عن اتساع ملك أمته فيما أخرج مسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله زوى لي الأرض. فرأيت مشارقها ومغاربها. وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها. وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض..."(١١٣)، كما بشر بانتصار هذا الدين وبلوغه ما بلغ الليل والنهار، وذلك في الحديث الذي رواه تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخلَهُ الله هَذا الدينَ بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذليلٍ، عزًا يُعِزُّ اللهُ بهِ الإسلامَ، وذُلاً يُذِلُّ اللهُ بهِ الكفرَ"(١١٤)، وأختم هذه البشائر النبوية بالحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده عن البراء ابن عازب رضي الله عنه قال:" أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق، قال: عرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ المعول فقال:" بسم الله"، فضرب ضربةً، فكسر ثلث الحجر، وقال:"الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ الشام، والله إني لأبصر قصورها الحُمْرَ من مكاني هذا"، ثم قال:"بسم الله"، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر، فقال:"الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا"، ثم قال:"بسم الله"، وضرب ضربة أخرى، فكسر بقية الحجر، فقال:"الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا"(١١٥).

فما أهم ملامح الصّديقية في فتح العراق والشام؟ ذلك ما سنحاول إبرازه بتتبع حركة الفتح وفق سياقها التاريخي.

أولاً: فتح العراق

كان منتظرًا من الصّديق أن يبدأ من حيث انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجهز الجيوش لفتح بلاد الشام أولا، لولا أن المثنّى ابن حارثة الشيباني قَدِم على أبي بكر وحثه على محاربة الفرس وقال له: ابعثني على قومي ففعل ذلك أبو بكر، فرجع المثنّى وشرع في الجهاد بالعراق، ثم إنه بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر يستمده، فكتب معه أبو بكر إلى المثنى:" أما بعد، فإني قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده ووازره وكانِفْهُ (عاوِنْهُ) ولا تعصينَّ له أمرًا ولا تخالفنَّ له رأيًا... فما أقام معك فهو الأمير، فإن شَخصَ عنك فأنت على ما كنت عليه"(١١٦)، ثم كتب الصديق إلى سيف الله خالد رضي الله عنهما، وقد فرَغ من تصفية آخر جيوب المرتدين في معركة اليمامة:" أنْ سِرْ إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الأُبُلَّة، وتألف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم"(١١٧)، قال ابن كثير: "وأمره بأن يأتي العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم, وأمره أن

مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازاتِ أبي بكرٍ رضي الله عنه في خلافته

لا يكره أحدًا على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد على الإسلام وإن كان عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين"[118].

بإرسال جيش خالد يكون الصديق رضي الله عنه قد دشّن رسميًا بداية فتح بلاد فارس، وقد وفّر لها كل أسباب النصر، فبعد التوكل على الله تعالى، والتصّديق بوعده بالنصر والتمكين لعباده المؤمنين، واليقين بتحقُّق بشائر النبي صلى الله عليه وسلم، لم يدخر جهدًا في اتخاذ الأسباب، فاختار قائدًا محنكًا هو سيف الله المسلول خالد ابن الوليد رضي الله عنه، الذي لم تُنكّس له راية، ومع ذلك يوصيه ويرشده إلى المنهج الأقوم في التعامل مع الأعداء قبل قتالهم، كما تعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحرصًا منه أن تكون حركة الجهاد خالصة لله عز وجل فقد أرشده ألاّ يُجنّد إلا من صدقت نيته ورسخ إيمانه، فلا يُكرِهُ أحدًا على الخروج معه، ولا يَستعينُ بمن تلوث بالردة، وقد كان موقف الصّديق مع المرتدين صارمًا، ولذلك أكد على الاستغناء عن مشاركتهم في الفتوحات، حين كتب إلى خالد بن الوليد وعياض بن غَنْم رضي الله عنهما فقال:" استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يغزُوَنَّ معكم أحد ارتدّ حتى أرى رأيي"، قال الطبري معلقًا:" فلم يشهد الأيامَ مرتدٌ"[119]، يُستثنى من ذلك طليحة الأسدي، فقد ذكر ابن كثير أنه: "راجع الإسلام وذهب إلى مكة معتمرًا أيام الصّديق، واستحيى أن يواجهه مدة حياته، وشهد القتال مع خالد، وكتب الصّديق إلى خالد:" أن استشره في الحرب ولا تُؤَمّرْه"، يعني معاملته له بنقيض ما كان قصده من الرئاسة في الباطن، وهذا من فقه الصّديق رضي الله عنه وأرضاه"[120].

فالصّديق رضي الله عنه يريد للجيش الذي يرفع راية الجهاد أن يكون مخلصًا صادقًا، ليس فيه من أغواه الشيطان فادّعى النبوة، أو أغراه الطمع وأعماه التعصب القبلي فاتبع كل ناعق، أو أَسَرَهُ حب المال فامتنع عن أداء زكاته، فمثل هؤلاء لا يؤتمنون على دين أو وطن، وهل أُوتِيَتِ الأمةُ إلا مِن قِبَلِ هؤلاء؟

وانطلق الجيش الفاتح وهم قلة لا يزيدون بعد اكتمال عددهم عن ثمانية عشر ألف[121] لمقارعة جحافل الامبراطورية الفارسية التي تفوق المسلمين عددًا وعُدّةً، ولكن ذلك لم يَفُتَّ في عضدهم ولم يُضعِف عزائمهم، فقد كانوا بإيمانهم بالله جل وعلا، وسُمُو هدفهم أقوى وأشد، ودليل ذلك رسالة التحذير والنذير التي كتبها خالد رضي الله عنه إلى هرمز صاحب ثغر الأبلة يقول فيها:" أما بعد: فأَسْلِمْ تَسْلَمْ أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقررْ بالجزية، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"[122].

كان للصديق رضي الله عنه فراسة قوية في اختيار الرجال، وكان أعلم الناس بهم، فقد طلب منه خالد المدَدَ وهو بالعراق، فأمَدّه برجل واحد هو: القعقاع بن عمرو التميمي، فقيل له: أتمدُّ رجلاً قد ارْفَضّ حوله جنوده برجل؟ فقال:" لا يُهزَم جيشٌ فيهم مثل هذا"[123]، وقد تحققت فراسة الصديق حين أنقذ القعقاعُ خالدَ بن الوليد من مكيدة دبرها له هُرمُز قائد الفرس حين دعاه إلى المبارزة على أن تغدر حاميته بخالد فتقتله، وقد تفطن القعقاع للمؤامرة فحمَل على حامية هرمز بجماعة من الفرسان وقضى عليها[124].

ودارت رحى الحرب بين المسلمين والفرس في خلافة أبي بكر رضي الله عنه في ثلاث عشرة معركة، كان بطلها سيف الله المسلول خالد بن الوليد، يساعده عياض بن غَنْم والمثنى ابن حارثة، وقد تم ذلك في وقت قياسي، كان أولها ذات السلاسل في شهر محرم من العام الثاني عشر، وآخرها ذات الفراض في ذي القعدة من العام نفسه[١٢٥]، وكان النصر فيها حليف المسلمين، فلم تنكس لهم راية، وساعد على ذلك عدة عوامل أساسها توفيق الله جل وعلا، ثم اختيار قيادات عسكرية ذات حنكة عسكرية، وما كان يزود به الصديق الجيش من وصايا بضرورة الاستعانة بالله تعالى وتقواه، واجتناب معصيته.

ثانيًا: فتح الشام

لما كان فتح العراق أمرًا طارئًا، ولم يكن من أولويات أبي بكر رضي الله عنه، فإنه لم يتوغل في الأراضي الفارسية، وإنما اكتفى بإقامة حامية لحراسة ما تمّ فتحه، ريثما تتهيأ الظروف لاستكمال الفتح النهائي، وسبب ذلك ما ذكرنا من اعطاء الصديق الأولوية لفتح الشام؛ لأنه استكمال لمشروع بدأه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما عزم أبو بكر رضي الله عنه أن يجهز الجنود إلى الشام، دعا وجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه فقال: إن الله -تبارك وتعالى- لا تحصى نعمه، ولا تبلغ الأعمال جزاءها، فله الحمد كثيرًا على ما اصطنع عندكم من جمع كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا أن تتخذوا إلهًا غيره، فالعرب أمة واحدة، بنو أب وأم، وقد أردت أن أستنفركم إلى الروم بالشام، فمن هلك هلك شهيدًا وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعًا عن الدين، مستوجبًا على الله -عز وجل- ثواب المجاهدين. هذا رأيي الذي رأيتُ، فليُشِرْ عليّ كل امرئ بمبلغ رأيه"[١٢٦]، وتكلم بعض من حضر الاجتماع، واتفقت كلمتهم على بداية غزو الروم، ثم إن أبا بكر رضي الله عنه قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال:" أيها الناس، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأعزكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإنني مُؤَمِّرٌ عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"... وأمر أبو بكر بلالاً فنادى في الناس: أن انفروا إلى جهاد عدوكم الروم بالشام[١٢٧].

وواضح أن الصديق رضي الله عنه أكثر تحمسًا لفتح الشام، فما إن عزم على الشروع فيه حتى جمع كبار الصحابة وشاورهم في الأمر، واستمع إلى آرائهم، وحين اتفقت كلمتهم، خطب في الناس وحظهم على الجهاد في سبيل الله، وكيف لا يتحمس وهو يدرك أنه يستكمل مشروعًا بدأه النبي صلى الله عليه وسلم ؟

وقد اقتضى التخطيط الحربي أن يوزع الصديق رضي الله عنه الجيش بحسب الأقاليم في الشام، فعقد أربعة ألوية، واختار لها أفضل القيادات، فكانت كالآتي[١٢٨]:

١ - جيش يزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى دمشق.

٢ - جيش أبي عبيدة بن الجراح ووجهه إلى حمص.

٣- جيش عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين.

٤- جيش شرحبيل بن حسنة ووجهه إلى الأردن.

وقد بلغ من اهتمام أبي بكر رضي الله عنه بالشام أن استقدم عمرو بن العاص رضي الله عنه وكان على عمالة كان رسول الله ﷺوسلم ولاها إياه من صدقات بعُمان - وعهِدْنا به ألاّ يغير شيئًا فعله النبي صلى الله عليه وسلم - فكتب إليه يقول:" إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاّكه مرة، وسماه لك أخرى؛ مبعثك إلى عُمان إنجازًا لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد وليتَه ثم وليتَه، وقد أحببتُ - يا أبا عبد الله – أن أفرّغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك". فكتب إليه عمرو:" إني سهمٌ من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فَارْمِ به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي"[١٢٩].

وتحركت الجيوش إلى بلاد الشام، وقد بلغ عددها مجتمعة واحدًا وعشرين ألفًا، يضاف إليها ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل مخصصة للمدد، وكان أول من تحرك جيش زيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وخرج الصديق يُشيّعُه ماشيًا، وقبل رحيله أوصى الخليفة يزيدًا وصيةً بليغةً عالية المستوى تشتمل على حِكَم باهرة في مجالي الحرب والسلم، ومما جاء في وصيته قوله:" إني قد وليتُك لأبلُوَنّك وأُجربك وأُخرّجك، فإن أحسنتَ رددتُك إلى عملك وزدتُـك، وإن أسأتَ عزلتُك. فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليًا له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربًا إليه بعمله، فإياك وعبِّيَّة (عصبية) الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها. إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز؛ فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها"[١٣٠]، فهذا التشْيِيعُ ماشيًا والتزويد بتلك الوصية المهمة تعيد إلى الأذهان ما فعله الصديق رضي الله عنه مع أسامة وجيشه، ولا يخفى ما في وصيته ليزيدٍ من تركيز على معاني الإيمان والتقوى والإخلاص، فهي أقوى سلاح في مقارعة العدو المتفوق عددًا وعدةً، دون أن ينسى زاد الصلاة فهي أكبر سبب لاستمداد القوة والثبات، ويرشده إلى حسن معاملة الجند للحفاظ على وحدة الصف، وبالجملة فقد كانت تلك الوصية كما وصفها ابن الأثير بقوله: " وهذه من أحسن الوصايا، وأكثرها نفعًا لولاة الأمور"[١٣١].

وسمع الروم بزحف المسلمين، فكتبوا إلى هرقل، فخرج حتى نزل بحمص، فأعد الجنود وعبى العسكر، حتى بلغ من أرسلهم لقتال جيش عمرو تسعين ألفًا، وإلى جيش أبي عبيدة في ستين ألف، ومثلها إلى بقية الأماكن، فأدرك القادة المسلمون ألاّ قِبَلَ لهم بملاقاة كل تلك الجحافل متفرقين، ففزعوا بالكتب والرسل إلى عمرو يسألونه الرأي، فرد عليهم: إن الرأي الاجتماع...فاتّعدوا اليرموكَ ليجتمعوا به، وكتب ابن العاص إلى الخليفة يطلعه الخبر، فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو، وفيه:" ان اجتمعوا فتكونوا عسكرًا واحدًا، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصرٌ من نصره، وخاذلٌ من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة من عشرة

آلاف إذا أوتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، ولْيُصَلِّ كل رجل منكم بأصحابه"(١٣٢).

فهذا الصِّديق رضي الله عنه لا يستنكف أن ينزل عند رأي غيره، ويغير خطته الحربية، فسرعان ما تجاوب مع القادة في الميدان، وزودهم بأقوى زاد حين أرشدهم أنهم لن يغلبوا من قلة إذا احترسوا من الذنوب، وإنما ينصر المؤمنون بطاعتهم لربهم ومعصية عدوهم له، فإذا كانوا في المعصية سواء، كانت القوة إلى القوة فغلبت الكثرة، وتأمل ذكر الصلاة في كل مراسلة، إنها سر النصر والتمكين.

ولم يكتفِ الخليفة بتلك التعبئة الروحية، بل زاد عليها بتعبئة مادية حين أرسل إلى خالد ابن الوليد رضي الله عنه وهو بالعراق يستحثه في السير لإمداد جيش المسلمين بالشام، وفي الاستعانة بخالد رويةٌ وحكمةٌ صدِّيقية، فخالد في تقدير الصّديق "سيف الله الذي سلّه الله على الكفار"، كما سمع ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لطالما أشار عليه الفاروق بعزله بسبب بعض تجاوزاته التي كان أبو بكر يتغاضى عنها، ويرد على عمر بقوله:" لا أَشِيمُ (أُغمد) سيفًا سله الله على الكفار"(١٣٣). ومن أقوى ما قال أبو بكر رضي الله عنه في التنويه بسيف الله خالد رضي الله عنه رده على قائد الروم حين قال:" والله لنُشغِلَنَّ أبا بكر من أن يورد الخيول إلى أرضنا"، فقال الصّديق:" والله لأُنسِيَنَّ النصارى وساوس الشيطان بخالد بن الوليد"(١٣٤).

وحين قرر الصّديق أن ينقل خالد بن الوليد بجيشه إلى الشام، وأن يتولى قيادة الجيوش بها، كان يدرك أن الأمر يحتاج إلى قائد يجمع بين قدرة أبي عبيدة ودهاء عمرو وحنكة عكرمة وإقدام يزيد، وأن يكون صاحب قدرة عسكرية فائقة مع قدرة على حسم الأمور وصاحب دهاء وحيلة وإقدام، وصاحب حنكة ودراية مع دقة في تقدير المواقف، وصاحب تجربة طويلة في المعارك(١٣٥).

ووصل خالد بجيشه إلى الشام بعد رحلة شاقة عبر الصحراء لم يذكر التاريخ شبيهًا لها، فكان أول غيثه أن أنجد عمرو بن العاص وأمكنه من الانسحاب من فلسطين، فقد ظل يناور في بئر السبع لمتابعة الروم له، وبذلك شن المسلمون هجومًا مضادًا فكانت معركة أجنادين، وهي أولى المعارك الكبيرة في بلاد الشام بين المسلمين والروم.

واجتمع جيش المسلمين باليرموك بعد وصول جيش خالد فارتفع تعدادهم إلى ست وثلاثين ألف، فيهم ألف صحابي، منهم نحو مائة بدري، أما تعداد الروم فقد بلغ أربعين ومائتي ألف(١٣٦)، والتقى الجمعان، وقد أحكم خالد القائد خطته فوزع الجيش إلى كراديس، وجعل على كل كردوس قائدًا بطلاً، ونشب القتال، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة، فبلغ خالدًا الخبر، فإذا به موت الخليفة أبي بكر رضي الله عنه وعزل خالد وتأمير أبي عبيدة، فأخذ خالد الكتاب وجعله في كنانته، وكتم الخبر وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند، ويحصل ضعف ووهن في تلك الحال(١٣٧)، وتلك رباطة جأش خالد وقوة شخصيته، فلما انجلى غبار المعركة عن نصر مؤزر للمسلمين وهزيمة نكراء للروم، أخبر خالد الناس الخبر. قال ابن كثير:" فما فرحوا بقدر حزنهم على الصديق حين أعلمهم خالد بذلك، ولكن عوضهم بالفاروق رضي الله عنه"(١٣٨).

حين بلغ هرقل هزيمة جيشه سأل في غيظٍ شديدٍ: ما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: "من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم، ونأمر بالسخط وننهى عما يرضى الله، ونفسد في الأرض، فقال: أنت صدقتني"(١٣٩).

وظل الصديق رضي الله عنه يحمل هَمّ الدعوة إلى الإسلام ونشره حتى الرمق الأخير من حياته، فقد كانت آخر وصيته للفاروق رضي الله عنه بعد أن استخلفه، وقد زاره المثنى بن حارثة الشيباني، فوجده على فراش المرض، وقد شارف على الموت، واستقبله أبو بكر واستمع إليه واقتنع برأيه، ثم طلب عمر بن الخطاب فجاءه، فقال له:" اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا مِتُّ فلا تمسِيَنّ حتى تندب الناس مع المثّنى، ولا تشغلنكم مصيبةٌ وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم، وقد رأيتني متوفّى رسول الله وما صنعتُ ولم يُصَب الخلقُ بمثله، وإن فتح الله على أمراء الشام فارددْ أصحابَ خالدٍ إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحدُّه، وهم أهل الضراوة بهم والجراءة عليهم"(١٤٠).

وبعد.. فهذا هو الإنجاز الرابع من إنجازات الصّديق رضي الله عنه رصدتُ فيه التحرك الفتوحي في جبهتي العراق والشام، وحاولتُ إبراز مظاهر الصديقية فيه، فألفيتُ أبا بكر رضي الله عنه ينطلقُ في مشروعه الجهادي من وعود القرآن الكريم، وبشائر النبي صلى الله عليه وسلم بالتمكين للإسلام واستخلاف المؤمنين، فكانت تلك عقيدة راسخة لديه، ثم دعمها باتخاذ الأسباب واستفراغ الجهد في الإعداد والتخطيط، واختيار أكفأ القيادات، وتزويدهم بأعز الوصايا وأدق التعليمات، وباجتماع اليقين والأسباب تحققت وعود الله جل ثناؤه، وانتصر المسلمون في معاركهم ضد أقوى إمبراطوريتين في ذلك الزمان، فكانت أشبه بالمعجزات، وليس من تفسير لتلك الظاهرة، سوى أنها قوة الإيمان أو هي مظهر من مظاهر الصّديقية.

خاتمة:

بعد هذه الرحلة الممتعة مع الخليفة الراشدي أبي بكر الصّديق رضي الله عنه وأرضاه، والتي حاولت أن أستجلي من خلالها مظاهر الصّديقية في إنجازاته، أخلص إلى تسجيل أهم النتائج التي انتهتْ إليها هذه الدراسة:

- الصديقية مقام من مقامات الكمال ومنزلة من منازل الربانية، تلي مرتبة النبوة، تقتضي المبالغة في الصدق والتصديق في القول والعمل.
- أبو بكر رضي الله عنه هو الصّديق الأول في هذه الأمة، لقبه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حاز هذا المقام الرباني بما أوتي من مناقب وفضائل فاق بها بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، منها: سبْقُه إلى الإسلام والنصرة والهجرة والإنفاق والجهاد وغيرها، وقد شهد له بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.
- تولى أبوبكر رضي الله عنهم الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان اختياره توفيقًا من الله جل وعلا، ثم فقهًا من الصحابة، إذ كانوا بحاجة إلى رجل رحيم يواسيهم في

مصابهم بفقد رسول الله، وما ألفوه من رحمته صلى الله عليه وسلم ، فكانت خلافة رحمة بعد نبوة الرحمة.

- رسم الصّديق رضي الله عنه منهجه في سياسة الحكم حين خطب في الناس بعد بيعته، فأكد على اتباع هدي بني الرحمة صلى الله عليه وسلم، فكان العمل بالكتاب والسنة منهجه في الحكم والسياسة، وعنوان صِدِّيقيته.

- برزت مظاهر الصّديقية جلية من خلال الأعمال الجليلة التي قام بها خليفة رسول الله في مدة خلافته القصيرة، وقد كانت في جملتها تحديات كبيرة، حَوَّلَها أبوبكر رضي الله عنه بعزيمته وصديقيته إلى إنجازات خلدها التاريخ، بل أضحت من أعظم الحسنات التي أسداها الصديق للأمة، وبقيت آثارها شاهدة على قوة شخصيته وعمق فقهه، وأحقيته بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته.

- استنتجتُ من تصميم أبي بكر رضي الله عنه على إنفاذ جيش أسامة، أن الخير كل الخير في طاعة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أدرك الصّديق أنه مشروع بدأه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا بد من إكماله مهما كانت الظروف، وقد تحقق لذلك الجيش ما لم يكن في الحسبان، قَهَرَ الروم، ورَدَعَ كثيرا من أحياء العرب، فكان لا يمر على حي إلا أرعبوا منهم.

- خلصت من حديثي عن الإنجاز الثاني المتعلق بقتال المرتدين، أن حركة الردة كانت تحدٍ كبير واجهته دولة الإسلام الفتية، حين رمتها قبائل العرب عن قوس واحدة، فكانت خطبًا جَلَلاً زعزع كثيرًا من الصحابة، فمالوا إلى المهادنة، إلا أبا بكر رضي الله عنه؛ فقد ثبّته الله عز وجل، وألهمه الرشد فأعلن الحرب على المرتدين، فكانت عزمةً من عزمات الصّديقية التي حفظت للإسلام قوته وللأمة وحدتها. كما كانت حركة الردة ظاهرة صحية، أثبتت أن الدولة التي أرسى النبي صلى الله عليه وسلم أسسها، وورثها الصحابة رضي الله عنهم، لم تكن قائمة على الخوارق، بل هي قائمة على سنن جارية، تتعرض للهزات شأن بقية الدول، ولكنها تملك القدرة على تحويلها إلى محفزات، فلا تزيدها إلا قوة وصلابة.

- جمعُ القرآن الكريم من الإنجازات العظيمة التي حققها المسلمون في خلافة الصّديق رضي الله عنه، فقد دل على فقه الصحابة رضي الله عنهم حين فهموا أن وعدِ اللهِ عز وجل بحفظ كتابه العزيز لا يتحقق إلا بعزماتهم، وقد تجلت مظاهر صديقية أبي بكر رضي الله عنه في هذا الإنجاز الخالد حين هيأ له كل أسباب إنجاحه، فتم بأدق شروط التحري والضبط على يد أحد أكبر حملة القرآن ورعًا وأمانة وحفظًا، فكان جمع القرآن الكريم من أعظم عزمات الصّديق رضي الله عنه وسننه الحسنة.

- ختم الصّديق خلافته القصيرة والمباركة باستكمال المشروع الدعوي النبوي بتبليغ الرسالة، فكانت طلائع فتح العراق والشام يحدوه فيها وعود الله جل ثناؤه، وبشائر النبي صلى الله عليه وسلم باستخلاف المؤمنين والتمكين لدينهم، فنشط لتلك المهمة وأعد لها ما استطاع من قوة، واختار لها أكفأ

مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازاتِ أبي بكرٍ رضي الله عنه في خلافته

القيادات العسكرية، وزودها بأنفع الوصايا والتخطيطات الحربية، مستلهمًا ذلك كله من مشكاة النبوة، فكانت نتائجها بحمد الله مرضية، وهيأت أسباب وظروف الانطلاقة الكبرى في الخلافة العمرية.

توصيات:

لا يفوتني في ختام هذا البحث أن أسجل عدة توصيات، أدرجها في النقاط الآتية:

- ضرورة الاهتمام بالتاريخ الإسلامي عمومًا، وتاريخ خير القرون وجيل القدوة من الصحابة والتابعين خصوصًا.
- إعادة قراءة تاريخنا قراءة واعية، للوقوف على أهم الإنجازات الحضارية التي قام بها أسلافنا، واستلهام منهجهم في إعادة بناء حضاري جديد.
- توعية الأمة بفضائل الصحابة رضي الله عنهم حتى لا تقع في حبائل المضللين.
- إنشاء مراكز علمية ودعوية لتحسيس الأمة بقيمة تاريخها.
- إقامة ملتقيات وندوات علمية حول الخلفاء الراشدين وإبراز إنجازاتهم.

وبالله التوفيق والسداد

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحواشي

١ - ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣٥/٢-٣٦، معجم الصحاح، الجوهري، ص:٥٨٤، كتاب العين، الفراهيدي، ٣٨٤/٢-٣٨٥، لسان العرب، ابن منظور، ١٩٣/١٠-١٩٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص:٩٠٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص:٥١٠-٥١١.

٢ - مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص:٤٧٨-٤٧٩.

٣ - الكليات، الكفوي، ص:٤٦٧-٤٦٨.

٤ - التعريفات، الجرجاني، ص: ١٣٥.

٥ - التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص:٤٥١.

٦ - إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ص:١٧٥٨-١٧٥٩.

٧ - الرسالة القشيرية، القشيري، ص:٢٤٢-٢٤٣.

٨ - الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب، ص:١٩٣.

٩ - مدارج السالكين، ابن القيم، ص ص:٥٦٦-٥٦٨

١٠ - ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فؤاد عبد الباقي، ص ص:٥١٣-٥١٦.

١١ - ورد ذلك في: [النساء:٦٩]، [المائدة:٧٥]، [يوسف:٤٦]، [مريم:٤١،٥٦]، [الحديد:١٩].

١٢ - ينظر: الوجوه والنظائر، هارون بن موسى، ص: ٩٣، والوجوه والنظائر، أبوهلال العسكري، ص:٢٧٨.

١٣ - ينظر: قاموس القرآن، الدامغاني، ص:٢٧٦.

١٤ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، ٩٦٦/٣.

١٥ - السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٦٧/١.

١٦ - تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ٣٣٤/٣٠، وينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص:١٠٥.

١٧ - ورد ذلك في صحيح البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم:٣، ص:١، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم:٤٠٣، ص:٨٠.

١٨ - أخرجه البخاري، كتاب: الكفالة، باب: جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، رقم:٢٢٩٧، ص:٣٦٧.

١٩ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذًا خليلاً"، رقم:٣٦٦١،

ص: ٦١٤.

٢٠ - السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٦٩/١، وينظر: دلائل النبوة، البيهقي، ١٦٤/٢، وتاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ٤٤/٣٠.

٢١ - دلائل النبوة، البيهقي، ١٦٤/٢.

٢٢ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذًا خليلاً"، رقم: ٣٦٧٥، ص: ٦١٧.

٢٣ - أخرجه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما، رقم: ٦٢٤٧، ص: ١٠٦٥.

٢٤ - أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، رقم: ٤٥١٣، ٢٤٩/٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ٣٠٦، ٦١٥/١.

٢٥ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذًا خليلاً"، رقم: ٣٦٦٠، ص: ٦١٤.

٢٦ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم: ٣٦٥٣، ص: ٦١٣، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم: ٦١٦٩، ص: ١٠٤٩.

٢٧ - أخرجه البخاري، الكتاب نفسه، والباب نفسه، رقم: ٣٦٥٢، ص: ٦١٣.

٢٨ - تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ٩٢/٣٠، وينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص: ١٢٧.

٢٩ - ينظر: الطبقات، ابن سعد، ١٥٨/٣، والاستيعاب، ابن عبد البر، ٩٦٦/٣.

٣٠ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر، رقم: ٣٦٥٤، ص: ٦١٣، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم: ٦١٧٠، ص: ١٠٤٩-١٠٥٠.

٣١ - أخرجه أحمد: رقم: ٤١٤/٧٤٤٦،١٢، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن ماجة، المقدمة، باب: في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: ٩٤، ص: ٢٠-٢١.

٣٢ - أخرجه مسلم، ، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم: ٦١٨٢، ص: ١٠٥١.

٣٣ - تهذيب الأسماء واللغات، النووي، ص: ٣٧٥.

٣٤ - لم استدل بنصوص القرآن الكريم على صديقية أبي بكر رضي الله عنه، بسبب اختلاف المفسرين، واكتفيت بالأحاديث النبوية الصريحة في ذلك.

٣٥ - أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب: في الرخصة في ذلك، رقم: ١٦٧٨، ص: ٢٦٣، والترمذي، كتاب: المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث حسن صحيح، رقم: ٣٦٨٤، ص: ١٠١٣.

٣٦ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذًا خليلاً"، رقم: ٣٦٦٨، ص: ٦١٦

٣٧ - أخرجه البخاري، كتاب: الحدود، باب: رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، رقم: ٦٨٣٠، ص: ١١٧٨.

٣٨ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذًا خليلاً"، رقم: ٣٦٧١، ص: ٦١٦

٣٩ - أخرجه أحمد في فضائل الصحابة، رقم: ٤٥، ٩٥/١-٩٦، وقال محققه: إسناده صحيح.

٤٠ - المصدر نفسه، رقم: ٤٩، ٩٨/١، وقال محققه: إسناده ضعيف، وينظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين الطبري، ٣٨٠/١،

٤١ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم: ٣٦٩٨، ص: ٦٢٢.

٤٢ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: ٣٦٥٥،

مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازاتِ أبي بكرٍ رضي الله عنه في خلافته

ص:٦١٣-٦١٤.

٤٣ - المستدرك، الحاكم، رقم:٤٤٦٢، ٢٢٧/٥.

٤٤ - تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ٢٦٦/٣٠، وينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص:١٤١.

٤٥ - حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني، ٢٨/١.

٤٦ - أخرجه أحمد، المسند، رقم: ١٢٩٠٤، ٢٥٢/٢٠، وإسناده صحيح، والترمذي، كتاب: المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت.. رقم:٣٨٠٠، ص:١٠٨٣، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، المقدمة، باب: فضائل زيد بن ثابت، رقم: ١٥٤، ص: ٢٨.

٤٧ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم:١١١٣٨، ٨٨/١١، وقال الهيثمي: رجاله ثقات، (مجمع الفوائد: رقم: ٨٩٦٤، ٢٤٦/٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم:٣٢٧٠، ٨٠٢/٧.

٤٨ - السيرة النبوية، ابن هشام، ٣١١/٤، الطبقات، ابن سعد، ١٦٧/٣، تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢١٠/٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١٩٤/٢-١٩٥، البداية والنهاية، ابن كثير ٦/٤.

٤٩ - الطبقات، ابن سعد، ١٦٧/٣.

٥٠ - أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا نورث ما تركنا فهو صدقة"، رقم:٤٥٨٢، ص:٧٨٠.

٥١ - الطبقات، ابن سعد، ١٨٥/٣، وتاريخ خليفة بن خياط، ص:١٢٢، وسير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص: ١٦.

٥٢ - أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذًا خليلاً"، رقم:٣٦٦٨، ص:٦١٦، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر رضي الله عنه، رقم:٦١٩٢، ص:١٠٥٣.

٥٣ - المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ص: ١٤٦٤، بتصرف يسير.

٥٤ - السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٩١/٤.

٥٥ - الطبقات، ابن سعد، ٦٢/٤، تاريخ خليفة بن خياط، ص:١٠٠، سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص:٣٣.

٥٦ - أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد رضي الله عنهما في مرضه الذي توفي فيه، رقم:٤٤٦٩، ص:٧٥٩، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل زيد بن حارثة وابنه أسامة رضي الله عنهما، رقم: ٦٢٦٤، ص:١٠٦٨.

٥٧ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢٢٣/٣، وينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٩/٤.

٥٨ - البداية والنهاية، ابن كثير، ١١/٤.

٥٩ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢٤٢/٣.

٦٠ - سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص:٣٣.

٦١ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢٢٥/٣، وينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ١١/٤، تاريخ خليفة بن خياط، ص:١٠٠.

٦٢ - البداية والنهاية، ابن كثير، ١٠/٤.

٦٣ - سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص:٣٣

٦٤ - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

٦٥ - خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، ص:٥٣-٥٤ بتصرف.

٦٦ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري،٢٢٦/٣، وينظر:الكامل في التاريخ، ابن الأثير،١٩٩/٢-٢٠٠، والبداية والنهاية، ابن كثير، ١٢/٤.

٦٧ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري،٢٢٦/٣

٦٨ - أخرجه أحمد، المسند، رقم:٢٢٠٥٢، ٣٧٦/٣٦، وإسناده صحيح، وابن حبان، كتاب: الرقائق، باب: الخوف والتقوى، رقم:٦٤٧، ٤١٤/٢.

٦٩ - ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢٢٦/٣

٧٠ - المصدر نفسه، ٢٢٦/٣-٢٢٧، وينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٢٠٠/٢.

٧١ - كما في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم للجيش المتجه إلى معركة مؤتة، ينظر: صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو

وغيرها، رقم: ٤٥٢٢، ص:٧٦٨، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب في دعاء المشركين، رقم: ٢٦١٣، ص:٤٠٢، والترمذي، كتاب: الديات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ما جاء في النهي عن المثلة، رقم: ١٤١٢، ص:٤٣٣.

٧٢ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري،٢٢٧/٣، وينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٢٠٠/٢.

٧٣ - الطبقات، ابن سعد، ٦٢/٤.

٧٤ - سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٥٠٣/٢.

٧٥- عبقرية الصديق، العقاد، ص: ١٠٩.

٧٦ - الطبقات، ابن سعد، ٦٢/٤.

٧٧ - البداية والنهاية، ابن كثير، ١١/٤.

٧٨ - عبقرية الصديق، العقاد، ص:٩٨-٩٩.

٧٩ - البداية والنهاية، ابن كثير، ٢٠/٤.

٨٠ - معالم السنن، الخطابي، ١٣٦/٢.

٨١ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢٨٦/٣، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٢٢٠/٢.

٨٢ - أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: وجوب الزكاة، رقم: ١٣٩٩و١٤٠٠، ص:٢٢٥، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لاإلـه إلا الله محمد رسول الله... رقم: ١٢٥، ص:٣٢.

٨٣ - دلائل النبوة، البيهقي، ٤٢٦/٢، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية، ٣٩٤/٣، وقال عنه: هذا حديث غريب جدا، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم: ٦٤٥٧، ١٠٢٦/١٣.

٨٤ - السيرة النبوية، ابن هشام،١٨٤/٤-١٨٥.

٨٥ - عصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري، ص:٤٠١-٤٠٢.

٨٦ - مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه رقم: ٦٠٢٥، ١٧٠١/٣.

٨٧ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢٤٥/٣.

٨٨ - المصدر نفسه، ٢٤٣/٣.

٨٩ - أبو بكر الصديق، علي الصلابي، ص: ٢٠١-٢٠٢ بتصرف.

٩٠ - ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢٢٧/٣، والكامل في التاريخ، ابن الأثير،٢٠٧/٢.

٩١ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٦٧/٤، والبداية والنهاية، ابن كثير، ٢٢/٤.

٩٢ - البداية والنهاية، ابن كثير، ٤/ ١٩.

٩٣ - المصدر نفسه، ٢٣/٤.

٩٤ - أخرجه أحمد، المسند، رقم:٤٣، ٢١٦/١، وقال محققه: حديث صحيح بشواهده.

٩٥ - ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٢٥٠/٣-٢٥١، والبداية والنهاية، ابن كثير، ٢٣/٤-٢٤.

٩٦ - صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٢٥٠/١، والرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين الطبري، ٤٥/٢-٤٦.

٩٧ - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٢٠٥/٢.

٩٨ - روى خليفة بن خياط في تاريخه، (ص:١١١)، عن ابن المسيب، قال: "شهداء اليمامة خمسمائة، فيهم خمسون أو ثلاثون من حملة القرآن".

٩٩ - أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، رقم:٤٩٨٦، ص:٨٩٤.

١٠٠ - ينظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٢٢٢/١٠.

١٠١ - أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم:٥٠٠٣، ص:٨٩٧.

١٠٢ - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢٣٧/١.

١٠٣ - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ٢١٤/١-٢١٥، بتصرف.

١٠٤ - كتاب المصاحف، ابن أبي داود السجستاني، ١٥٤/١، وينظر: سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص: ١٥.

١٠٥ - الطبقات، ابن سعد، ١٧٦/٣.

١٠٦ - أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة.. رقم:٢٣٥١، ص:٤١٠-٤١١.

١٠٧ - فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٦٩/١١.

١٠٨ - ينظر: الطبقات، ابن سعد، ٢٢٢/١، والسيرة النبوية، ابن هشام، ٢٥٤/٤.

١٠٩ - ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١٥/٤.

١١٠ - ينظر المصدر نفسه، ١٥٩/٤.

١١١- أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم:٣٦١٨، ص:٦٠٧، ومسلم، كتاب الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل..، رقم:٧٣٢٧، ص:١٢٦٢-١٢٦٣.

١١٢- أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل..، رقم:٧٣٣١، ص:١٢٦٢.

١١٣- أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم: ٨٢٥٨، ص:١٢٥٠.

١١٤- أخرجه أحمد في المسند، رقم:١٦٩٥٧، ١٥٥/٢٨، وقال محققه: إسناده صحيح.

١١٥- أخرجه أحمد في المسند، رقم: ١٨٦٩٤، ٦٢٥/٣٠-٦٢٦، وقال محققه: إسناده ضعيف، وحسنه ابن حجر في الفتح، ١٨٩/٩.

١١٦- كتاب الردة، الواقدي، ص:٢٢١.

١١٧- تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٣٤٣/٣.

١١٨- البداية والنهاية، ابن كثير، ٦٢/٤.

١١٩- تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٣٤٧/٣

١٢٠- البداية والنهاية، ابن كثير، ٢٧/٤.

١٢١- تاريخ الرسل والملوك، الطبري،٣٤٧/٣.

١٢٢- المصدر نفسه،٣٤٧/٣-٣٤٨.

١٢٣- المصدر نفسه، ٣٤٦/٣-٣٤٧.

١٢٤- المصدر نفسه، ٣٤٩/٣.

١٢٥- ينظر في تفصيل تلك المعارك: تاريخ الرسل والملوك، الطبري،٣٤٣/٣- ٣٨٤، و البداية والنهاية، ابن كثير، ٦٣/٤-٧٩.

١٢٦- فتوح الشام، محمد بن عبد الله الأزدي، ص:١.

١٢٧- المصدر نفسه، ص:٣-٤.

١٢٨- ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٣٩٤/٣، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٢٥٥/٣ ،والبداية والنهاية، ابن كثير، ٨٤/٤.

١٢٩- تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٣/ ٣٨٩، وينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٨٢/٤-٨٣.

١٣٠- الكامل في التاريخ، ابن الأثير،٢٥٣/٢-٢٥٤.

١٣١- المصدر نفسه،٢٥٤/٢.

١٣٢- تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ٣٩٢/٣- ٣٩٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير،٢٥٥/٢، والبداية والنهاية، ابن كثير،٨٧/٤.

١٣٣- تاريخ الرسل والملوك، الطبري ، ٣٩١/٣، والبداية والنهاية، ابن كثير،٣١/٤.

١٣٤- البداية والنهاية، ابن كثير، ٨٧/٤، وذكر ابن الأثير في الكامل،٢٥٨/٢، أنهم تعداد المسلمين كان أربعين ألفاً.

١٣٥- تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، محمد يسري هاني، ص:٣٤٦، بتصرف.

١٣٦- تاريخ الرسل والملوك، الطبري ، ٣٩٤/٣.

١٣٧- ينظر: المصدر نفسه، ٣٩٨/٣، البداية والنهاية، ابن كثير، ٩٦/٤.

١٣٨- البداية والنهاية، ابن كثير، ٩٧/٤.

١٣٩- المصدر نفسه، ١٠٠/٤.

١٤٠- الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٢٦٣/٢.

المصــادر والمراجع

١. أبو بكر الصديق شخصيته وعصره، علي محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨.

٣. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، بترتيب: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرّج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٥. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: محمد علي بجاوي، دار الجيل بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٦. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،

المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، (د.ت).
٧. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: رياض عبد الحميد مراد وآخران، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م
٨. تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط:٢، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
٩. تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط:٢، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.
١٠. تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، محمد يسري هاني، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ.
١١. تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط:٢، ١٩٦٩م.
١٢. تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، دراسة وتحقيق: محب الدين عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
١٣. التعريفات، السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م
١٤. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف النووي، صححه وخرّج أحاديثه: عادل مرشد وعامر غضبان، دار الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
١٥. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
١٦. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الوراق للنشر والتوزيع، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
١٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الفكر بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
١٨. خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
١٩. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وثّق أصوله وخرّج أحاديثه وعلق عليه: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٢٠. الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف: الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: أبو اليزيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
٢١. الرسالة القشيرية، زين الدين أبي القاسم القشيري، دار جوامع الكلم، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٢٢. الرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين أبي جعفر أحمد بن عبد الله الطبري، دراسة وتحقيق وتعليق: عيسى بن عبد الله الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م.
٢٣. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، (د.ت).
٢٤. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
٢٥. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٢٦. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الوراق للنشر والتوزيع، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٢٧. سِيَر أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
٢٨. السيرة النبوية، محمد بن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).

٢٩. شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف الله ابن بطال، مكتبة الرشد، الرياض،(د.ت).
٣٠. صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط:٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .
٣١. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط:٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .
٣٢. صفة الصفوة، جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، دار المعرفة بيروت، ط:٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٣٣. الطبقات الكبير، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
٣٤. عبقرية الصديق، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، (د.ت).
٣٥. عصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، (د.ت).
٣٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٣٧. فتوح الشام، محمد بن عبد الله الأزدي، صححه: وليم ناسوليس الأيرلاندي، طبع في كلكتة، الهند، ١٨٥٤م.
٣٨. فضائل الصحابة، أحمد بن محمد بن حنبل، حققه وخرّج أحاديثه: وصي الله بن محمد عباس، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط:٣، ١٤٢٦هـ.
٣٩. قاموس القرآن، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط:٣، ١٩٨٠ .
٤٠. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:٨- ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٤١. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٤٢. كتاب الردة، محمد بن عمر الواقدي، رواية أحمد ابن محمد بن أعثم الكوفي، تحقيق: يحي الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٤٣. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق وترتيب: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م .
٤٤. كتاب المصاحف، أبو بكر عبد الله بن سليمان السجستاني المعروف بابن أبي داود، دراسة وتحقيق ونقد: محب الدين واعظ، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط:٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٤٥. الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:٢- ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
٤٦. لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .
٤٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي ابن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٤٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق وتخريج : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٤٩. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق ودراسة: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، القاهرة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
٥٠. المسند، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .
٥١. مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي،بيروت، ط:٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٥٢. معالم السنن مع سنن أبي داود، أبو سليمان الخطابي، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٥٣. معجم الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار

المعرفة، بيروت، لبنان، ط:٣- ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٥٤. المعجم الكبير، أبوالقاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حققه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د.ت).

٥٥. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: ٢- ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٥٦. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، دار الكتب العلمية, بيروت، لبنان,١٤٢٠ه /١٩٩٩م.

٥٧. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط:٤- ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٥٨. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، الدار الشامية ، بيروت، ط:٤ ، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٥٩. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٦٠. المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف النووي، بيت الأفكار الدولية، الأردن – السعودية، (د.ت).

٦١. الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٦٢. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، هارون بن موسى، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار البشير، عمان، الأردن، ٢٠٠٢م.

التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأوسط والسودان خلال العصرين الوسيط والحديث

د. عبد الباسط المستعين *

فاس - المغرب

مقدمة

مع دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، بدأ يتسرب تدريجيًا إلى أعماق القارة الإفريقية. وتم ذلك، في الغالب، بوسائل سلمية، فتوثقت الخيوط الناظمة بين شمال الصحراء الإفريقية وجنوبها، وتشعبت العلاقات لتشمل مجالات متعددة، وتوسعت بمرور الزمن أسباب تمتينها.

ولقد ارتبط المغرب الأوسط بالسودان[1] أيما ارتباط؛ سواء على المستوى الاقتصادي أو الديني أو العلمي أو غيره. وتضافرت عوامل كثيرة لتعزيز تلك الروابط.

وكانت حواضر كلتا الضفتين هي الحلقة الأبرز في ذلك الارتباط وبداخلها حصلت معظم عمليات التفاعل والانصهار والتكامل والتبادل... فالأنشطة التجارية وحركة العلماء والطلبة كانت تنطلق من المدن المغاربية وتحط رحالها أيضًا بالمدن السودانية. وهذا لا ينفي وجود مؤثرات ذات جذور بدوية في المغرب الأوسط ونفاذها بأوساط بدوية سودانية؛ غير أنها لا تصل إلى المدى الذي بلغته المراكز الحضرية تأثيرًا وتأثرًا. كما لا تحظى بالتغطية الإخبارية والمصدرية الكافية في حال وجودها. لذلك اعتبرنا الحواضر في الجانبين المجال الرئيس لبوتقة التدفقات الفكرية والاجتماعية والدينية، والحضارية جملة، مستفيدًا من عدة عوامل مساعدة.

وإذا كانت هذه الروابط قد ازدادت رسوخًا على مدى قرون حتى بلغت ذروتها في أواخر العصر الوسيط؛ فإنها قد تأثرت بشكل كبير ببزوغ فجر العصر الحديث إثر وصول الأوروبيين إلى السواحل الغربية للقارة الإفريقية والعثمانيين إلى شمال إفريقيا؛ إلا أن ذلك لم يوقف تيار التفاعلات بين الطرفين.

فما هي إذًا، أهم المجالات التي غطتها العلاقات بين حواضر المغرب الأوسط ونظيرتها السودانية خلال العصرين الوسيط والحديث؟ وما أبرز ملامح الإشعاع الحضاري بينهما؟

I - أوجه العلاقة التي نظمت حواضر المغرب الأوسط بحواضر السودان:

١- اجتماعيًا

يمكن عد العلاقات الاجتماعية أم العلائق بين المغرب الأوسط والسودان الإفريقي. فهي الأقدم في الامتداد والتداخل، وبخاصة بين الأجزاء الشمالية وعمقها الصحراوي؛ وذلك بحكم كون قسم كبير من القبائل الأمازيغية استوطنت الفضاءين معًا منذ أقدم العصور. ورغم التباعد المجالي بينهما فهي تنتمي إلى جد واحد وتشترك في الأصل العرقي. ومع وصول الإسلام إلى المنطقة ذللت صعوبات اختراق الصحراء على قساوة ظروفها. ولا شك أن العامل الاجتماعي والديمغرافي كان حاسمًا في تسهيل التواصل بين شمال بات إسلاميًا وجنوب كان ما يزال على سمته الوثنية القديمة.

ولا يتوقف دور الجانب الاجتماعي في التقارب الناتج عن وحدة العرق واللغة، بل يتجاوز ذلك إلى تقارب الطباع والعقليات.

ولعبت العناصر المسوفية دورًا بارزًا في هذا الصدد؛ حيث اختصت بأدلاء الطرق الذين كشفوا مجاهل المسالك الصحراوية للمتدفقين من الشمال نحو السودان.

٢- اقتصاديًا

هناك مؤشرات عديدة تدل على أن الروابط الاقتصادية بين السودان الغربي والكيانات الإسلامية بشمال إفريقيا عريقة جدًا، تكاد تطابق تاريخ الوصول العربي إلى المنطقة. وهي بدورها امتداد لعلاقات سابقة عن هذه الفترة. لكن المعطيات المصدرية تفيد في نفس الوقت بأن هذه العلاقات بلغت في الحقبة الإسلامية ما لم تبلغه من قبل، وأدت إلى ميلاد شبكة كثيفة من المسالك التجارية بين الشمال والجنوب عبر المجابة (الصحراء) الكبرى.

وكانت "نقطة الاتصال بين الزنوج والبربر على امتداد نهر النيجر عادة، عند الحافة الجنوبية للصحراء... وكان نهر النيجر، هو شريان السودان من الشرق إلى الغرب..."[٢].

ورغم التغيير المستمر للطرق التجارية وتباين أهميتها من فترة لأخرى حسب عوامل مرتبطة بواقع الضفتين حسب قوة الدول الحاكمة ومدى قدرتها على تأمين تلك المسالك؛ فإن المغرب الأوسط ومراكزه الحضرية، كانت له حصة معتبرة من الطرق المفضية إلى السودان. وإذا كانت حقبة سيادة إمبراطورية غانة بالسودان قد ساهمت في انتعاش المحور الغربي[٣] الذي يتجمع من مختلف نواحي الغرب الإسلامي في مدينه سجلماسة ومنها إلى درعة ثم نول لمطة، فأوداغشت فالمدن السودانية المختلفة بحكم موطنها الذي ينحاز في اتجاه الغرب؛ فإنه مع قيام امبراطورية مالي، ومن بعدها سونغاي، تحولت الأهمية للمسالك الداخلية التي تتجه من مختلف المدن المغاربية في اتجاه ولاتة (إيولاتن)، ومنها إلى مختلف مدن السودان. ويفهم من كلام ابن بطوطة أنه بالإضافة إلى هذا المسلك، كان هناك طريقٌ يصل توات بتكدا[٤]. كما ارتبطت تلمسان بالسودان عبر توات[٥] عبر طريق يصل إلى أغدس (أكدز - أقدز)[٦]. لكن هذا المسلك كان يتعرض لبعض الصعوبات أهمها إقرار الأمن؛ لذلك انتعش زمن الدول الكبرى، وتأثر بوصول القبائل الهلالية، ثم استعاد بعض عافيته في ظل حكم بني عبد الواد.

ومن ثم، يمكن عد المسلك الصحراوي الأوسط

التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأوسط والسودان خلال العصرين الوسيط والحديث

الذي يمر عبر ورقلة[٧] أهم المسالك الصحراوية التي كان يسيطر عليها المغرب الأوسط وعبرها ينفتح على السودان.

وكانت مدينة **تيهرت** التي تبوأت غداة تأسيسها مكانة قاعدة المغرب الأوسط[٨]، على صلات تجارية وثيقة ببلاد السودان. وأهلها موقعها؛ لأن تستقبل البضائع "برًا وبحرًا وغربًا وشرقًا وشمالاً وجنوبًا"[٩]، وأن تصبح "ملتقى تجاريًا هامًا بين المغرب الأوسط وبلاد السودان والمغرب الأقصى والأندلس وإفريقية"[١٠]. واستفادت من توثق علاقة الرستميين التجارية ببلاد السودان[١١]؛ كانت لهم روابط تجارية مع "شعوب السودان جميعًا ابتداء من زغاوة (الكانم) شرقًا حتى ساحل غانة غربًا، لكن هذه العلاقات توطدت بشكل أساسي مع شعوب السودان الأوسط وبخاصة مع الكانم"[١٢]. وفي العصر الرستمي قامت عدة موانئ في المغرب الأوسط مثل: تنس ومستغانم ووهران بدور الوسيط بين البضائع القادمة من وإلى الأندلس والسودان[١٣]. كما ضمنت تيهرت وصول السلع السودانية إلى مدن إفريقية[١٤] (المغرب الأدنى).

ونفس الأمر ينطبق على **قلعة بني حماد** إبان اتخاذها عاصمة لإمارة بني حماد الصنهاجية؛ إذ كانت تقع على طريق للتجارة الصحراوية يمر عبر ورقلة[١٥]. وقد تأثرت مكانتها التجارية نسبيًا بصعود نجم الدولة المرابطية[١٦]، فانتقلت مكانتها التجارية إلى مدينة بجاية.

وقد ارتقت مدينة **بجاية** في العصر الموحدي إلى صفة "مدينة الغرب الأوسط"[١٧]، و"السفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برًا وبحرًا مجلوبة والبضائع بها نافقة..."[١٨]، ويصل إليها "تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق"[١٩].

أما مدينة **تلمسان**، فقد احتلت مكانة تيهرت، وصارت "قاعدة المغرب الأوسط"[٢٠]، و"دار مملكة زناتة"[٢١]؛ بل أصبحت "قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منها لابد منها والاجتياز بها على كل حالة..."[٢٢]، وحلقة وصل تجارية مهمة بين مختلف أصقاع الغرب الإسلامي والمشرق العربي من جهة، وبين السودان والأندلس ثم الشمال الأروبي عبر مينائيها: أرشقول وهنين[٢٣]، من جهة ثانية. وصارت بذلك "مقصدًا لتجار الآفاق"[٢٤]. وكان معظم تجارها يتعاملون مع السودان[٢٥]، ومنها "تخرج القوافل إلى سجلماسة وورقلة، وهما بابا السودان"[٢٦]. وقد بلغت حظوتها من التجارة الصحراوية إلى أن صرح السلطان الزياني: أبو حمو موسى الأول: "لولا الشناعة لم أنزل في بلادي تاجرًا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع"[٢٧].

وذكر ابن بطوطة في رحلته أنه كان في رفقته تاجر من تلمسان يدعى: الحاج زيان[٢٨]، كما تحدث عن تاجر تلمساني آخر أيام منسى موسى يسمى: ابن شيخ اللبن[٢٩].

ومن دلائل ازدهار التجارة الصحراوية مع تلمسان ظهور شركة آل المقري التجارية بين خمسة إخوة هم: أبو بكر ومحمد بتلمسان وعبد الرحمان بسجلماسة وعبد الواحد وعلي بإيولاتن، يتبادلون المراسلات والتقارير حول الأموال والسلع والأسعار[٣٠]، "فكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ذاك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان

والخسران ويكاتبهما بأحوال التجار والبلدان، فاتسعت أموالهم وعظم شأنهم"[٣١].

ولقد ذهب البعض إلى تفسير استفحال الصراع بين المرينيين وبني عبد الواد حول تلمسان إلى مكانتها التجارية بحكم موقعها "عند ملتقى الطريق الرئيسية التي كانت تربط بين وهران والوحدات الصحراوية وتمتد من الشمال إلى الجنوب حتى السودان بالمحور الغربي الشرقي الذي كان يربط بين فاس وإفريقيا، فإنه سرعان ما بزت تلمسان المراكز الكبرى الأخرى وصارت مركز التجارة بين أوربا والمغرب والسودان الغربي."[٣٢].

وكانت القوافل تنطلق من العديد من المدن الساحلية في شمال المغرب الأوسط **كقسنطينة**[٣٣]، نحو مختلف مدن السودان، مثل: تمبوكتو وولاتة وجني ومالي وغاو وتكدة وأغدس وغيرها.

كما كانت ورقلة (وارقلان - ورجلان - وارغلان) منفذًا مهمًا في التجارة الصحراوية منذ العصر الرستمي[٣٤]، واكتست طابع: "بوابة السودان"[٣٥] باعتبارها "المعبر الضروري الذي تمر منه القوافل الحاملة للذهب والعبيد إلى التل القسنطيني"[٣٦]، وبها كانت "القوافل المسافرة شمالاً تفرغ سلعها، وتلك المتجهة جنوبًا تتجمع قبل الرحيل."[٣٧]. كما كان "سكانها أغنياء جدًا؛ لأنهم في اتصال مع مملكة أكدز، منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لا سيما من قسنطينة وتونس، يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان"[٣٨]. وكان تجارها أغنياء "يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة"[٣٩]. كما اكتسبوا خبرة واسعة في المسالك الصحراوية وكان منهم أدلاء لتلك الطرق[٤٠]. ولأهلها دور ريادي في قيادة القوافل التجارية مع غانة منذ وقت مبكر، وشكلت المركز الأول لتجارة الرستميين[٤١]. ولربما مر منها في السنة الواحدة ما يربو عن ١٢٠٠٠ جمل من القوافل المتجهة صوب السودان[٤٢]. وكانت تقع على الطريق القادم من تادمكة بالسودان والمتجه نحو بلد الجريد فالقيروان، أو نحو غدامس[٤٣].

وشكلت **مدن الزاب** مراكز تجارية على "خط التجارة الداخلة والخارجة من بلاد السودان الشيء الذي ربط تجارها مع تجار السودان برباط وثيق"[٤٤]، مثل: **بسكرة والبرج وطولقة والدوسن**[٤٥]، ثم **نفطة** التي كان سكانها من "كبار الأغنياء لوجودهم ... على الطريق المؤدية إلى بلاد السودان"[٤٦]. أما **بادس** فكانت آخر مدن الزاب شرقًا، وبالقرب منها كانت "تفترق الطرق إلى بلاد السودان وإلى القيروان وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها... فيها تجتمع الرفاق، ومنها تخرج إلى جميع البلاد"[٤٧]. كما صارت **المسيلة** بعد تأسيسها من قبل عبيد الله المهدي قاعدة بلاد الزاب[٤٨]. ورغم تأثرها بتأسيس قلعة بني حماد فيما بعد، فقد كانت خلال العصر الحمادي على طريق القوافل الواردة والصادرة من وإلى المشرق والمغرب الأقصى والصحراء[٤٩]، وارتبطت بتجارة السودان عبر الطريق القادم من ورقلة[٥٠].

وكانت **توات** "ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان"[٥١]، وضمت أزيد من مائتي قصر، أهمها تمنطيط[٥٢]، وصارت "ملتقى طرق ... لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من الشمال الإفريقي، والمنطلقة

التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأوسط والسودان خلال العصرين الوسيط والحديث

نحو السودان الغربي"[٥٣]، وضمت طائفة مهمة من التجار اليهود الذين كانوا على اتصال "بكبار أرباب التجارة، وأرباب السفن، والشركات الأوروبية"[٥٤]. وصارت خلال فترة حكم الصنغي في أهم طريق للتجارة الصحراوية المنطلق من تمبكتو نحو تغازة، فتوات، ثم سجلماسة والمغرب الأوسط[٥٥]، كما كانت تمبكتو تغص بالتجار التواتيين[٥٦]. وقد ذكر ابن بطوطة أحدهم، وهو: جعفر التواتي[٥٧].

وكانت منطقة تيكورارين "مجمع القوافل" القادمة من السودان ومن فاس وتلمسان وغيرها[٥٨].

وكانت مدينة الجزائر من بين المستودعات الكبرى التي توجه جزء من البضائع السودانية نحو أروبا[٥٩]. وكان تجار الجزائر وبجاية يلتقون تجار السودان ببلاد مزاب[٦٠].

كما أن تبسة قبل قدوم القبائل الهلالية خلال القرن ٥ هـ/ ١١م، كانت "نقطة تجارية حساسة تحط بها القوافل"[٦١]، ومثلت "مفرق طرق هام تشتمل على عدة أقباء مخصصة لاستقبال القوافل، يستطيع كل قبو إيواء ألفي دابة فما فوق"[٦٢].

هذه العلاقات الاقتصادية انبنت على عنصر التكامل بين طرفي المبادلات بحكم التباين في المؤهلات الطبيعية والاقتصادية للطرفين. وتميزت بنية المبادلات بهيمنة المواد المصنعة تصديرًا من مدن المغرب الأوسط. وكان القماش التلمساني مثلاً يصل إلى السودان ويلبسه سلاطينها وأغنياؤها[٦٣]. كما كانت تلمسان تصدر صناعة الخردوات (المناجل وسكك المحاريث والأدوات المنزلية من سكاكين وقدور وغيرها)[٦٤]، والأسلحة والمصنوعات الزجاجية والعطور والقرنفل والبخور والتمور وبعض المنتجات الزراعية[٦٥]. وكان يصلها من السودان: الرقيق والذهب والملح والنحاس وريش النعام وبعض البهارات[٦٦]، والجلد والعاج والجوز...[٦٧].

وقامت بتلمسان بعض الصناعات على أساس المواد القادمة من السودان مثل صياغة الذهب[٦٨].

ومن دون شك كانت تمور بلاد الزاب[٦٩] وورقلة[٧٠] تجد طريقها إلى السودان. كما كانت بعض الأحجار الكريمة بصحراء ورقلة تصل إلى السودان ويتنافس أهله في اقتنائها بأبهض الأثمان[٧١]. وارتبط الرستميون بالخصوص بمملكة كوكو، وتنوعت البضائع المتبادلة بين الطرفين[٧٢]، وكانوا يأتون ب "الذهب والعبيد والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات... مقابل... المنسوجات الصوفية، والكتانية والحريرية، والقوارير الزجاجية، والأواني الخزفية البراقة والملونة، والأصواف والتحف المعدنية والأفاويه والعطور"[٧٣].

وعمومًا، فقد تنوعت الروابط التجارية التي جمعت مدن المغرب الأوسط بالمدن السودانية على مر العصور.

٢- دينيًا

تعد الدوافع الدينية محركًا رئيسًا في مختلف التطورات الحاصلة في علاقة المغرب الأوسط بالسودان الغربي.

ويكشف تتبع المصادر التاريخية جزءًا من مراحل الانتشار الواسع للإسلام في أرض السودان. وذهب البعض إلى إقرار "ازدواجية مسيرة التجارة والإسلام في بلاد السودان"[٧٤].

وفي منتصف القرن ٨ م "انتشرت العقيدة

الإسلامية انتشارًا واسعًا في السودان الأوسط والغربي"[٧٥]، وانتشرت بالخصوص بالمدن[٧٦] وفي صفوف التجار والملوك ورجال البلاط[٧٧]، والطبقة العليا في المجتمع[٧٨]. وتم ذلك في الغالب بشكل سلمي على يد التجار ومن اقتفى أثرهم من الدعاة[٧٩]. وكان للتجار الرستميين دور بارز في إدخال الإسلام إلى بعض مناطق السودان[٨٠]، وبخاصة الأجزاء الوسطى: بلاد الكانم[٨١]. وربما يكون بعض ملوكها قد اعتنق الإسلام على يدي التجار الرستميين[٨٢]. ويعزو بعض الباحثين البذور الأولى لتغلغل الإسلام في صفوف السودانيين إلى الخوارج، الرستميين بتاهرت وبنو مدرار بسجلماسة؛ فالجهود "التي بذلها عقبة بن نافع لم يقدر لها النجاح، كما أن غزوات عبد الرحمن بن لبن حبيب وعبيد الله بن الحبحاب لأطراف بلاد السودان لم تتمخض عن شيء سوى الحصول على الغنائم"[٨٣]. واستمر الإسلام في الانتشار بالسودان الغربي عن طريق "اتصال القبائل وارتحال التجار والقبائل والدعاة والمصاهرة."[٨٤].

هذا التأثير الديني ساهمت فيه كل الطوائف التي كانت على صلة دائمة بسكان المنطقة، من علماء وتجار ودعاة حواضر المغرب الأوسط. ونستحضر هنا بالخصوص التجربة البارزة للمغيلي الذي قام بدور بارز في نشر الإسلام في صفوف أهل السودان، وبخاصة في حاضرتي كانو وكاتسنا[٨٥].

على مستوى آخر اشتهر أهل السودان عامة وملوكهم خاصة باهتمامهم بالرحلة إلى بيت الله الحرام؛ حيث كانوا يحرصون أشد الحرص على أداء مناسك الحج. وإن كانت المسالك في رحلاتهم نحو المشرق يمكن أن تؤدي بهم مباشرة إلى غدامس وفزان في جنوب إفريقية (المغرب الأدنى) آنذاك؛ فإننا نجد منسى موسى في رحلته نحو الأراضـي المقدسة قد اختار التوجه نحو ولاتة مرورًا بتوات[٨٦].

٤- سياسيًا

رغم أن المعطيات المصدرية لا تسعفنا في تقصي التأثير السياسي بشكل مفصل. ورغم أن الدلائل على العلاقات السياسية بين المغرب الأوسط والسودان نـادرة؛ فإنها مع ذلك غير منعدمة.

ولعل أقدم إشارة في هذا الباب ترجع العصر الرستمي؛ إذ "أرسـل أفلح بن عبد الوهاب (٢٠٨ - ٢٥٨هـ/ ٨٢٣ - ٨٧٢م) ثالث الأئمة الرستميين سفارة تحمل هدية إلى أحد ملوك السودان، وكان الذي تقدم هذه السفارة إلى الملك السوداني، محمد بن عرفة، أحد الوجوه البارزة في البلاط الرستمي"[٨٧].

وقد تلقى بني زيري بدورهم بعض الهدايا من بلاد السودان، منها واحدة حوالي ٣٨٢هـ/٩٩٢م، وأخرى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣٢م[٨٨].

وارتبطت إمارة كانم السودانية بعلاقات وثيقة بالحفصيين[٨٩] الذين كانوا يبسطون نفوذهم على شطر مهم من المغرب الأوسط آنذاك، وتبادل الطرفان السفارات والهدايا[٩٠]. ونفس الأمر يسري على المرينيين[٩١] بالمغرب الأقصى إذا ما نظرنا إلى سيطرتهم الظرفية على أجزاء من المغرب الأوسط.

وقد ربطت صداقة وثيقة بين منسى موسى سلطان مالي وهـلال القطلاني حاجب عبد الرحمان أبو تاشفين الزياني[٩٢].

وذكر ابن خلدون أن إمارة صنهاجية بطرف

الصحراء اتخذت من تكرت مقرًا لها كان بينها و"بين أمير الزاب ووارِكلا مهاداة ومراسلة"[٩٣].

وعلى مستوى آخر، نستشف تلك الأدوار السياسية من المهمة التي اضطلع بها المغيلي في أوساط الإمارات السودانية، والتي وصلت إلى حد تعبئة الجيوش للجهاد وتوسيع الفتوحات؛ حيث تمكن من الحصول على منصب مستشار في بلاط أسكيا محمد، أحد ملوك إمبراطورية صونغاي[٩٤].

II - مظاهر التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأوسط وحواضر السودان:

١- على المستوى العلمي

شكل التلاقح العلمي أحد أبرز ميادين التفاعل الحضاري بين المدن السودانية ومدن المغرب الأوسط. ونسجل هنا حضور علماء هذه المراكز العلمية، وكان لبعضهم أثر بين في الحياة العلمية بالسودان.

لقد كانت الحواضر السودانية مثل تمبوكتو ترتبط ثقافيًا بمختلف حواضر العلم والثقافة في الشمال الإفريقي ومن ضمنها بعض حواضر المغرب الأوسط كتلمسان[٩٥]. وإذا كانت تلمسان لم تزل "دارًا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنــس..."[٩٦]؛ فإن ابن بطوطة ذكر بأن أحد أبناء ابن شيخ اللبن التاجر التلمساني "من الطلبة يعلم القرآن بمالي"[٩٧]؛ مما يبرز بشكل جلي أحد أوجه الإشعاع العلمي لتلمسان بأرض السودان. ويبقى المغيلي من بين علماء المغرب الأوسط الأشد تأثيرًا في المنطقة. أخذ عنه بتكدة كل من العاقب بن عبد الله[٩٨]، ومحمد بن أحمد التازختي[٩٩]، واعتمدت بعض كتبه لدى فقهاء السودان مثل أرجوزته في المنطق[١٠٠].

كما كان بتمبكتو عدد من علماء المغرب الأوسط مثل أبي القاسم التواتي الذي تولى الإمامة بمسجد تومبوكتو[١٠١]، وأشرف على محضر يقرأ فيه الأطفال[١٠٢]. وبعد مضي شهرين على وفاته، قدم من توات أحد أبنائه، فتقدم سكان المدينة بطلب توليته الإمامة بعد أبيه، للقاضي الذي رفض لأنه كان قد عين إمامًا آخر[١٠٣]. ومن جملة من أخذ عنهم قاضي وعالم تمبكتو المشهور: العاقب بن محمود أثناء حجه، الشيخ البسكري[١٠٤] الذي يظهر لقبه أصله الراجع إلى بسكرة. كما كان "معيار" الونشريسي معتمدًا فيما يقرأ ويدرس بتمبوكتو والسودان[١٠٥]، إلى جانب بعض مؤلفات المقري[١٠٦]. وعقد أحمد بابا التنبكتي ترتيبًا لجامع المعيار الونشريسي[١٠٧]، واعتمد في تأليفه لكفاية المحتاج على عدة تصانيف مغربية ومشرقية، ومنها مجموعة تعود لأعلام حواضر المغرب الأوسط من قبيل: ابن مرزوق الحفيد وابن قنفد القسنطيني وأحمد الونشريسي وغيرهم[١٠٨].

وقد أضحت جامعة سنكري بتمبكتو، منذ عهد حكم مالي، إحدى الجامعات الإسلامية التي "تضاهي الأزهر والزيتونة، وغيرهما من مراكز العلم"[١٠٩]. ووصل من نضج علماء أهل السودان إلى أن علماء الغرب الإسلامي، وعلى رأسهم علماء تلمسان، كانوا "يشاورونهم في المسائل العلمية والقضائية"[١١٠]، وأشهرهم: أحمد بابا التمبكتي الذي تبوأ مكانة علمية مرموقة لدى علماء شمال إفريقيا قاطبة؛ حتى قال عن نفسه: "و اشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها"[١١١].

لا شك إذًا، أن مظاهر التأثير والتأثر العلمي،

الأخذ والعطاء، متعددة بين علماء الحواضر السودانية ونظيرتها بالمغرب الأوسط يتعذر استقصاؤها، وقد اكتفينا بما جادت به بعض المصادر في هذا الشأن.

٢- على المستوى اللغوي

لا يمكن فصل التفاعل العلمي عن اللغوي. وأبرز أثر على هذا المستوى هو وصول اللغة العربية إلى مراكز العلم والحكم بالسودان باعتبارها لغة العلم والحضارة. إذ كانت اللغة الأساسية في التدريس وتداول العلوم المختلفة. كما كانت لغة الخطابة والقضاء، واللغة الرسمية للدول القائمة في الكتابة والمراسلات. واحتل الكتاب العرب مكانة مميزة في بلاط السلاطين بالسودان، وبخاصة في عصر إمبراطوريتي مالي وصونغي.

وقد تزامن انتشار اللغة العربية مع وصول الدين الإسلامي[١١٢] إلى المنطقة. وإذا كنا قد وقفنا على الدور البارز للتجار والدعاة والفقهاء بالمغرب الأوسط في حمل رسالة الإسلام إلى أهل السودان منذ حقبة مبكرة لوصوله إلى شمال إفريقيا، أدركنا دورهم أيضًا في نشر اللغة العربية بتلك الأنحاء؛ سواء على أيدي الخوارج الإباضية، أو من لحقهم من الفقهاء والعلماء، وأبرزهم على الإطلاق، الإمام المغيلي.

وإذا كان من الصعب الجزم بانفراد المغرب الأوسط بهذا التأثير اللغوي نظرًا لتقاسم هذه العملية مع باقي أقطار الغرب الإسلامي؛ فإنه مما لا شك فيه أن سهمه في هذا الباب كان وافرًا.

٣- على المستوى المذهبي

كل التطورات الدينية والمذهبية في شمال إفريقيا كانت تجد صداها في السودان الإفريقي حتى بلت الحضور الخارجي والعلوي الذي كانت قسماته واضحة في حقبة معينة حاضرًا أيضًا بالسودان.

لقد سيطرت الدولة الرستمية ذات المذهب الخارجي الإباضي إبان قيامها على معظم المنافذ المؤدية إلى السودان كورقلة وغدامس[١١٣]. ومنذ ذلك الحين احتفظ أهل وارقلان بمذهبهم كخوارج إباضية[١١٤]، وظلوا على صلة دائمة بأرض السودان "لبيع تمور سجلماسة والزاب، و(يخرجون منها التبر ويضربونه باسم بلدهم)"[١١٥]. وإذا أضفنا لها أهل تاهرت وغيرهم من أهل جبل نفوسة، نفهم لم وجد ابن بطوطة في وقت متأخر، سكان مدينة زاغري التي تلي ولاتة في اتجاه مالي عاصمة سلطنة مالي، منقسمين إلى طائفتين من البيضان: الأولى تدعى: صغنغو وهم خوارج إباضية، والثانية تدعى: توري، وهم سنة مالكية[١١٦].

ويبقى أبرز تأثير هو الذي تجلى برسوخ المدرسة المالكية في كل الغرب الإسلامي، ووصولها إلى ربوع السودان بدوره. ويرجع الفضل في ذلك إلى فقهاء وتجار المالكية من مختلف أقطار المغرب الإسلامي الكبير التي كان من ضمنها مالكية المغرب الأوسط ومن ضمنهم وأشهرهم المغيلي.

٤- على المستوى الروحي

يشمل هذا البعد بالخصوص تأثير المدارس السلوكية؛ لأن كل الطرق الصوفية التي عرفتها الأقطار المغاربية صار لها مع مرور الوقت امتداد في إفريقيا جنوب الصحراء.

ومن أقدم الطرق الصوفية تسربًا إلى الأصقاع الإفريقية عبر توات هي الطريقة القادرية منذ

القرن ١٥ م(١١٧)، أو مطلع القرن ١٦م(١١٨). وإذا كان محمد بن عبد الكريم المغيلي هو أول من أدخلها هناك وبخاصة في الجزء الأوسط من الصحراء الكبرى وشمال نيجيريا(١١٩) (الهاوسا)، فقد ساهم سيدي أحمد البكاء الكنتي خلال القرن ١٥م في نشر مبادئها في الجزء الغربي من الصحراء الكبرى(١٢٠)، ثم اتسع انتشار القادرية على يد الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي "الذي عاش في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ما بين ولاطة وتمبوكتو وتوات"(١٢١)، ثم الشيخ التأرازي الذي أدخلها إلى ما يعرف حاليًا بغامبيا وليبريا وغانا وغينيا بيساو(١٢٢)، وبعده عثمان دان فوريو.

ومن أبرز المدارس الصوفية للمغرب الأوسط حضورًا وأكثرها انتشارًا بغرب ووسط إفريقيا هي الطريقة التيجانية التي أصبح لها حضورًا كبيرًا خلال القرن ١٩م(١٢٣)، وعرفت بميولاتها العسكرية(١٢٤)، وكان لها دور مهم في مواجهة التغلغل الاستعماري الأروبي، وأبرز نموذج لذلك: "المجاهد التيجاني الحاج عمر الفوتي التكروري الذي توفي عام ١٨٦٤م"(١٢٥).

ومن ثم ارتبط انتشار واعتناق الإسلام في غرب إفريقيا في القرون المتأخرة بالطريقتين القادرية والتيجانية، وأضحى "كل مسلم يتبع واحدة من الطريقتين"(١٢٦)، ومن غير العادي أن "يكون مسلمًا غير منتسب لإحدى الطرق الصوفية الكبرى"(١٢٧).

كما كان للزاوية السنوسية، هي الأخرى، سهم واضح في الانتشار ونشر الإسلام بالسودان منذ أن أسسها الشيخ سيدي محمد بن علي السنوسي سنة ١٨٣٧م(١٢٨)، والذي ينحدر من مدينة مستغانم بالجزائر(١٢٩).

٥- على المستوى الثقافي

لم يتوقف التأثير بين ضفتي الصحراء الإفريقية على المجالات العلمية واللغوية والدينية، بل أيضًا شمل الجوانب الثقافية والاجتماعية المختلفة من عادات ولباس واحتفالات وعمارة وخط وغيرها.

لقد صار للحضارة الإسلامية تأثير واضح في المجتمعات السودانية، دلت عليه عدة مؤشرات، من بينها مثلاً، تحول الساكنة إلى ارتداء الزي المحتشم بعدما كانت منهم طوائف "عراة يسترون عوراتهم فقط بالجلود المدبوغة"(١٣٠)، وكانوا في ذاتهم "كالبهائم لا يبالون بشيء من أمور الدنيا إلا ما كان من لقمة أو نكحة وغير ذلك لا يخطر لهم ذكره على بال"(١٣١). وقد كان للتجار الرستميين أثر في أهالي كوكو من أرض السودان في "سلوكهم وملبسهم وطرق معيشتهم"(١٣٢). كما بدت على أهل السودان بعض مظاهر التأثر على مستوى الأعياد والمناسبات الدينية. وقد نقل لنا ابن بطوطة أجواء إحياء منسى سليمان ليلة السابع والعشرين من رمضان، وتوزيع الزكاة أثناءها(١٣٣)، وإحيائه لشعيرة صلاة عيد الفطر والأضحى(١٣٤)، بما يفيد انتقال معظم هذه العوائد من الشمال الإفريقي، وتطعيمها باللمسة المحلية.

كما تجلى هذا التأثير من خلال انتشار الأسماء العربية، وتبني معظم نظم الإدارة والقضاء المعروفة في العالم الإسلامي آنذاك.

وكانت تمبكتو "المركز الحيوي للثقافة الإسلامية"(١٣٥)، وصارت "مركز المباني المشيدة من الطوب"(١٣٦) التي عوضت "خيام مدينة غانة وأكواخها من الحشائش"(١٣٧). وإذا كانت الروايات تفيدنا باستقدام منسى موسى أثناء رجوعه من رحلة الحج للمهندس الأندلسي

أبا إسحاق الساحلي؛ فقد ورد ببعضها أيضًا جلبه لمهندس آخر من غدامس هو: عبد الله الكومي الموحدي(١٣٨)، الذي يتبين من اسمه أنه ربما ينحدر من المغرب الأوسط. وكانت ولاتة بدورها مركزًا ثقافيا مهما في الغرب الإفريقي(١٣٩). كما أدخل التجار والحرفيون المسلمون استعمال الحجارة في البناء(١٤٠)، ونقلوا تقنية البناء المستخدمة في بناء سور مدينة مالي المعتمد على تقنية التراب المدكوك(١٤١) (الطابية)(١٤٢)، ومن ثم دخول نمط العمارة المغربية الأندلسية.

ولا يمكن إغفال بعض التأثيرات الأخرى مثل: انتشار الكتابة بالخط المغربي، واعتماد نفس وحدات القياس والوزن والكيل، وغيرها.

كل ذلك صاحب توافد التجار والعلماء وغيرهم إلى السودان من مجموع دول شمال إفريقيا، مما يدل قطعًا على أن للمغرب الأوسط إلى جانب باقي أجزاء المغرب الإسلامي، دور في ذلك الانصهار الحضاري والامتزاج الثقافي.

خاتمة:

حاولنا من خلال هذه الورقة أن نرصد في عجالة أهم ملامح الوصال الحضاري التاريخي بين حواضر المغرب الأوسط ونظيرتها بالسودان. وتبين لنا مدى قوة تلك الصلة وامتدادها التاريخي الطويل، بقي أن نشفعها بالملاحظات والمقترحات الآتية:

- لا بد من استثمار هذا الرصيد التاريخي لإحياء ما اندرس من صلات تاريخية بين مختلف أصقاع العالم الإسلامي، عمومًا، وبالغرب الإسلامي خصوصًا، فضلاً عن تجديد وتعزيز علاقة البلدان المغاربية بأقطار إفريقيا جنوب الصحراء.
- إذا كانت دول العالم تتجه نحو التكتل في مجموعات إقليمية وازنة؛ فما أحوجنا اليوم إلى تفعيل كل أشكال الاندماج والتعاون القائمة، مثل: "اتحاد المغرب العربي" ومجموعة "إفريقيا الغربية والساحل"، وبعث الروح فيها بما يتناسب وهذا الإرث التاريخي والحضاري الكبير.
- لا ينبغي حصر التعاون بين الطرفين في القضايا السياسية والأمنية فقط؛ بل يجب أن يرتقي إلى تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية والعلمية وغيرها. كما لا يعقل أن تبقى هذه العلاقات مقتصرة على الطابع الرسمي؛ وإنما يجدر التفكير في سبل تمتين شطرها الشعبي عبر مؤسسات المجتمع المدني من أجل تعزيز المبادئ المشتركة وترسيخ قيم التقارب والتكامل.
- يجب اغتنام وحدة الاختيار المذهبي (المذهب المالكي) في إقرار ثقافة دينية ترسخ روح الأخوة والرحمة والرفق والأناة والوسطية والاعتدال، بدلاً عن ثقافة العنف والتدمير والنظرة الأحادية المغلقة.

الحواشي

* مدير مركز فاطمة الفهرية للأبحاث و الدراسات (مفاد)- فاس- المغرب.

١. يقصد به في الحقبة المدروسة: مجموع بلاد الصحراء الإفريقية الكبرى و ما خلفها إلى مشارف غابة السفانا جنوبًا، والمحيط الأطلسي غربًا، و بلاد النوبة و الحبشة شرقًا.

٢. ويدنر، دونالد "تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء" ترجمة راشد البراوي- دار الجيل للطباعة- الفجالة- ١٩٦٢م. ص ٣٨.

٣. انظر: ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي "صورة

الأرض" منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت- ١٩٩٢م. ص ص ٦٥ و٩١ و٩٨ وما بعدها- البكري، أبي عبيد "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" جزء من "المسالك والممالك" مأخوذ عن النص الذي نشره دوسلان- الجزائر- ١٨٥٧م- مكتبة المثنى- بغداد. ص ص ١٤٩ و١٥٦ وما بعدها- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ٢٠٠٢م. ج ١. ص ٢٢٥.

٤. ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي "رحلة ابن بطوطة" دار صادر- بيروت- ١٩٩٢م. ص ٦٩٩.

٥. شغدان، بسام كامل عبد الرزاق "تلمسان في العهد الزياني: ٦٣٣- ٩٦٢هـ / ١٢٣٥- ١٥٥٥م" رسالة لاستكمال متطلبات درجة الماجستير- كلية الدراسات العليا- جامعة النجاح الوطنية- نابلس- فلسطين- ٢٠٠٢م. ص ١٩٦.

٦. الدالي، الهادي المبروك "التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر" الدار المصرية اللبنانية- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٩٩٩م. ص ٣١٧.

٧. ٨ - فضلاً عن المسلك الغربي الذي كان يتجه نحو سجلماسة و الشرقي الذي كان يتجه نحو غدامس و الجريد. انظر: الهادي، روجي إدريس "الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م" ترجمة حمادي الساحلي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٢م. ج ٢. ص ٢٩١.

٨. التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء.م س. ص ٣٠٠.

٩. الميلي، مبارك بن محمد "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" المؤسسة الوطنية للكتاب- دار الغرب الإسلامي- بيروت. ج ٢. ص ٧٦.

١٠. الطمار، محمد "المغرب الأوسط في ظل صنهاجة" ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ١٩٧٧م. ص ١٧٠.

١١. الحريري، محمد عيسى "الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي: حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب و الأندلس (١٦٠ هـ- ٢٩٦ هـ)" دار القلم- الكويت- الطبعة الثالثة- ١٩٨٧م. ص ٢٣٣- إسماعيل، محمود عبد الرازق "الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري" دار الثقافة- الدار البيضاء- الطبعة الثانية- ١٩٨٥م. ص ص ٢٧٦- ٢٧٧.

١٢. الخوارج في بلاد المغرب.م س. ص ص ٢٨٠- ٢٨١.

١٣. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي. م س. ص ص ٢١٩- ٢٢٠ و ٢٣٣.

١٤. الخوارج في بلاد المغرب. م س. ص ص ٢٧٧- ٢٧٨.

١٥. بو رويبة، رشيد "الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها" ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ٢٠١٠م.ص ١٥٠.

١٦. المغرب الأوسط في ظل صنهاجة. م س. ص ٢٢٠.

١٧. نزهة المشتاق.ج ١.م س. ص ٢٦٠.

١٨. نفسه.

١٩. نفسه.

٢٠. المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب. م س. ص ٧٦.

٢١. نفسه.

٢٢. نزهة المشتاق.ج ١.م س. ص ٢٥٠.

٢٣. المغرب الأوسط في ظل صنهاجة. م س. ص ١٧٥.

٢٤. ٢٥ - المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب. م س. ص ٧٧.

٢٥. الوزان، الحسن بن محمد الفاسي "وصف إفريقيا" ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي- الطبعة الثانية- ١٩٨٣م. ج ٢. ص ٢١- تلمسان في العهد الزياني. م س. ص ١٩٤.

٢٦. تاريخ الجزائر في القديم و الحديث. ج ٢. م س. ص ٤٨٣.

٢٧. تلمسان في العهد الزياني. م س. ص ١٩٩.

٢٨. رحلة ابن بطوطة. م س. ص ٦٧٦.

٢٩. م ن. ص ٦٩٠.

٣٠. تلمسان في العهد الزياني. م س. ص ١٩٩.

٣١. تاريخ الجزائر في القديم و الحديث. ج ٢.م س. ص ٤٨٣.

٣٢. نياني، ج.ت (مشرفًا) "تاريخ إفريقيا العام/ المجلد الرابع: إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر" اليونسكو- المطبعة الكاثوليكية- بيروت- ١٩٨٨م. ص ١٠٨.

٣٣. قاسم، جمال زكريا "الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية" دار الفكر العربي- مصر- ١٩٩٦م. ص ١٥٤.

٣٤. الخوارج في بلاد المغرب. م س. ص ٢٨١.

٣٥. الدولة الصنهاجية.ج ٢.م س. ص ٨١.

٣٦. نفسه.

٣٧. هوبكنز.ا.ج "التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية" ترجمة أحمد فؤاد بليع- منشورات المجلس الأعلى للثقافة- ١٩٩٨م.ص ١٦٨.

٣٨. وصف إفريقيا. ج ٢.م س. ص ١٣٦.

٣٩. نزهة المشتاق.ج ١.م س. ص ٢٩٦.

٤٠. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي. م س. ص ٢١١.

٤١. التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء. م س. ص ٢٩٩.

٤٢. زبادية، عبد القادر "دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين" ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر. ص ٤٣.

٤٣. "الاستبصار في عجائب الأمصار" نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد. ص ٢٢٤.

٤٤. التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء. م س. ص ٣٠٠.

٤٥. انظر: وصف إفريقيا. ج ٢.م س. ص ص ١٣٨- ١٤١.

٤٦. م ن. ص ص ١٣٩.

٤٧. الاستبصار. م س. ص ١٧٥.

٤٨. الدولة الصنهاجية. ج ٢.م س. ص ٩٢.

٤٩. المغرب الأوسط في ظل صنهاجة.م س. ص ص ٢١٩- ٢٢٠.

٥٠. الدولة الصنهاجية. ج ٢. م س. ص ٢٩١.

٥١. التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء.م س. ص ٣٠١.

٥٢. نفسه.

٥٣. نفسه.

٥٤. نفسه.

٥٥. إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر. م س. ص ٢١٤.

٥٦. م ن. ص ٢١٥.

٥٧. رحلة ابن بطوطة.م س. ص ٦٩٩.

٥٨. وصف إفريقيا. ج ٢.م س. ص ص ١٣٣- ١٣٤.

٥٩. التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية.م س. ص ١٦٩.

٦٠. وصف إفريقيا. ج ٢. م س. ص ص ١٣٥.

٦١. جوان، جوزيف "الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء" ترجمة مختار السويفي- دار الكتب الإسلامية- دار الكتاب المصري- القاهرة / دار الكتاب اللبناني- بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٨٤م. ص ١٤٧.

٦٢. الدولة الصنهاجية. ج ٢.م س. ص ٨٢.

٦٣. تلمسان في العهد الزياني. م س. ص ١٨٧.

٦٤. م ن. ص ١٨٨.

٦٥. م ن. ص ١٩٩.

٦٦. نفسه.

٦٧. نفسه.

٦٨. م ن. ص ١٨٨.

٦٩. نزهة المشتاق. ج ١. م س. ص ٢٠- التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء. م س. ص ٣٨.

٧٠. الدولة الحمادية: تاريخها و حضارتها. م س. ص ١٥٠.

٧١. الاستبصار.م س. ص ص ٢٢٤- ٢٢٥.

٧٢. انظر: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي. م س. ص ص ٢١٠- ٢١١.

٧٣. م ن. ص ٢٣٤.

٧٤. الشكري، أحمد "الإسلام و المجتمع السوداني- امبراطورية مالي: ١٢٣٠- ١٤٣٠م" المجمع الثقافي- أبو ظبي- ١٩٩٩م. ص ٢٨٨.

٧٥. فيج، جوم دونلي "تاريخ غرب إفريقيا" ترجمة السيد يوسف نصر- دار المعارف- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٩٨٢م. ص ٢٨٥.

٧٦. الإسلام والمجتمع السوداني . م س. ص ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

٧٧. تاريخ غرب إفريقيا م س. ص ٢٨٥.

٧٨. برايما باري، عثمان "جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي" دار الأمين للنشر و التوزيع- القاهرة- الطبعة الأولى- ٢٠٠٠م.ص ٧.

٧٩. باري، محمد فاضل علي و كريدية، سعيد إبراهيم "المسلمون في غرب إفريقيا: تاريخ و حضارة" دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ٢٠٠٧م. ص ٣٥.

٨٠. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي. م س. ص ٢١٢.

٨١. الخوارج في بلاد المغرب.م س. ص ٢٩٩.

٨٢. م ن. ص ٣٠٠.

٨٣. الخوارج في بلاد المغرب. م س. ص ص ٢٩٨- ٢٩٩.

٨٤. المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ٣٦.

٨٥. بانيكار، مادهو "الوثنية و الإسلام: تاريخ الامبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية" ترجمة أحمد فؤاد بليع- منشورات المجلس الأعلى للثقافة- الطبعة الثانية- ١٩٩٨م. ج ٢. ص ٤٩٦.

٨٦. بل ويرجع السعدي سبب تسمية تلك الموضع ب: توات إلى هذه الرحلة، حيث تخلف هنالك كثير من أصحاب منسى موسى "لوجع رجل أصابه في تلك المشي تسمى توات في كلامهم فانقطعوا بها وتوطنوا فيها فسمي الموضع باسم تلك العلة". السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر "تاريخ السودان" طبع هوداس بمشاركة بنوة- المدرسة البارزية لتدريس الألسنة الشرقية- باريس- مطبعة بردين- انجي- ١٨٩٨م. ص ٧- التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء.م س. ص ٦١.

٨٧. الإسلام والمجتمع السوداني . م س. ص ٢٥٩- انظر أيضًا: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي. م س. ص ص ٢١١- ٢١٢.

٨٨. الإسلام والمجتمع السوداني . م س. ص ٢٦٠.

٨٩. م ن. ص ٢٦٣.

٩٠. نفسه.

٩١. أرسل منسى موسى سفارة إلى أبي الحسن المريني، الذي بعث بدوره سفارة إلى منسى سليمان ، و كذلك سفارة ماري جاطة لأبي سالم. انظر: ابن خلدون

٩٢. تلمسان في العهد الزياني. م س. ص ٢٠٠.

٩٣. ابن خلدون، عبد الرحمن "ديوان المبتدأ و الخبر في أخبار العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" ضبط خليل شحادة و مراجعة سهيل زكار- دار الفكر- بيروت- ٢٠٠٠م. ج ٦. ص ص ٢٦٩- ٢٧٠.

٩٤. جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي. م س. ص ٢٢- التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء. م س. ص ١١٣.

٩٥. الغنيوري، عطية مخزوم "دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)" منشورات جامعة قار يونس- بنغازي- الطبعة الأولى- ١٩٩٨م.ص ٢٩١.

٩٦. المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب. م س. ص ٧٧.

٩٧. رحلة ابن بطوطة. ص ٦٩٠.

٩٨. التنبكتي، أحمد بابا "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" تحقيق محمد مطيع- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب- مطبعة فضالة- المحمدية- ٢٠٠٠م. ج ١. ص ٣٧٧.

٩٩. م ن. ص ٢٢٣- الوثنية والإسلام: تاريخ الامبراطورية الزنجية في غرب إفريقية. ج ٢. م س.ص ٥١٤.

١٠٠. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. م س. ج ١. ص ١٣٨- ج ٢. ص ٢٣٤.

١٠١. دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء. م س . ص ٢٩٢.

١٠٢. تاريخ السودان. م س. ص ٥٨.
١٠٣. م ن. ص ٦٠.
١٠٤. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. ج ١ م س. ص ٣٧٨.
١٠٥. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. ج ٢. م س. ص ٢٤٠.
١٠٦. التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء.م س. ص ٨٠.
١٠٧. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. ج ٢. م س. ص ٢٨٣.
١٠٨. م ن. ص ٢٨٦.
١٠٩. التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء.م س. ص ١١٧.
١١٠. دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء. م س. ص ٢٩٣.
١١١. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. ج ٢. م س.ص ٢٨٥.
١١٢. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي. م س. ص ٢١٣.
١١٣. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي. م س. ص ٢١٠.
١١٤. نزهة المشتاق.ج ١.م س. ص ٢٩٦.
١١٥. الدولة الصنهاجية. ج ٢.م س. ص ٢٩١.
١١٦. رحلة ابن بطوطة. م س. ص ٦٨٠.
١١٧. المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ٤٣- ذهني، إلهام محمد علي "جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (١٨٥٠- ١٩١٤)" دار المريخ للنشر- الرياض- ١٩٨٨م. ص ٣١- القادري، عبد القادر "الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي" ضمن مجلة دعوة الحق- إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب- العدد ٢٠٢- ١٩٧٩م- ص ٤٨.
١١٨. تاريخ غرب إفريقيا.م س. ص ٢٨٧.
١١٩. المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ٤٤.
١٢٠. نفسه.
١٢١. الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي. م س. ص ٥١.
١٢٢. المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ٤٤.
١٢٣. تاريخ غرب إفريقيا.م س. ص ٢٨٨- المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ٤٣- جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا. م س. ص ٣١- دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين. م س. ص ٢٣١.
١٢٤. تاريخ غرب إفريقيا.م س. ص ٢٨٨- المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ٤٥.
١٢٥. المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ٤٢.
١٢٦. م ن. ص ٤٣- جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا.م س. ص ٣١.
١٢٧. دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب و المسلمين.م س. ص ٢٢٥.
١٢٨. جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا. م س. ص ٣٣- انظر أيضًا: المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ص ٤٥- ٤٦.
١٢٩. انظر نقًا من حياته في: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين. م س. ص ٢٣٧- المسلمون في غرب إفريقيا. م س. ص ٣٢٣.
١٣٠. نزهة المشتاق. ج ١. م س. ص ١١١.
١٣١. م ن. ص ١١٠.
١٣٢. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي.م س. ص ٢١٢.
١٣٣. رحلة ابن بطوطة. ص ٦٨٣.
١٣٤. انظر: م ن. ص ٦٨٦.
١٣٥. جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي. م س. ص ١٢.
١٣٦. تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء. م س. ص ٤٧.
١٣٧. نفسه.
١٣٨. التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء. م س. ص ٦٢.
١٣٩. جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي. م س. ص ٢٣.
١٤٠. الوثنية و الإسلام: تاريخ الامبراطورية الزنجية في غرب إفريقية. ج ٢. م س. ص ٤٨٨.

١٤١. إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر. م س. ص ١٤٩.

١٤٢. انظر حول هذه النقطة: ابن خلدون، عبد الرحمن "مقدمة ابن خلدون" ضبط خليل شحادة و مراجعة سهيل زكار- دار الفكر- بيروت- ٢٠٠١م. ص ص ٥١١- ٥١٢.

ببيلوغرافيا:

- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي "رحلة ابن بطوطة" دار صادر - بيروت - ١٩٩٢م.
- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي "صورة الأرض" منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت – ١٩٩٢م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن "ديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" ضبط خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار - دار الفكر - بيروت – ٢٠٠٠م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن "مقدمة ابن خلدون" ضبط خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار - دار الفكر - بيروت – ٢٠٠١م.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة – ٢٠٠٢م.
- إسماعيل، محمود عبد الرازق "الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري" دار الثقافة - الدار البيضاء - الطبعة الثانية - ١٩٨٥م.
- باري، محمد فاضل علي وكريدية، سعيد إبراهيم "المسلمون في غرب إفريقيا: تاريخ وحضارة" دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى – ٢٠٠٧م.
- بانيكار، مادهو "الوثنية والإسلام: تاريخ الامبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية" ترجمة أحمد فؤاد بليع - منشورات المجلس الأعلى للثقافة - الطبعة الثانية – ١٩٩٨م.
- برايما باري، عثمان "جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي" دار الأمين للنشر والتوزيع - القاهرة - الطبعة الأولى – ٢٠٠٠م.
- البكري، أبي عبيد "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" جزء من "المسالك والممالك" مأخوذ عن النص الذي نشره دوسلان - الجزائر – ١٨٥٧م - مكتبة المثنى - بغداد.
- بو رويبة، رشيد "الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها" ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر – ٢٠١٠م.
- التنبكتي، أحمد بابا "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" تحقيق محمد مطيع - منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب - مطبعة فضالة - المحمدية – ٢٠٠٠م.
- جوان، جوزيف "الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء" ترجمة مختار السويفي - دار الكتب الإسلامية - دار الكتاب المصري - القاهرة / دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى – ١٩٨٤م.
- الحريري، محمد عيسى "الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي: حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (١٦٠هـ - ٢٩٦هـ)" دار القلم - الكويت - الطبعة الثالثة – ١٩٨٧م.
- الدالي، الهادي المبروك "التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر" الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٩٩م.
- ذهني، إلهام محمد علي "جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (١٨٥٠ – ١٩١٤م" دار المريخ للنشر - الرياض - ١٩٨٨م.
- زبادية، عبد القادر "دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين" ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر.
- السعدي، عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر "تاريخ السودان" طبع هوداس بمشاركة بنوة - المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية - باريس - مطبعة بردين - انجى – ١٨٩٨م.
- شقدان، بسام كامل عبد الرزاق "تلمسان في العهد الزياني: ٦٣٣ - ٩٦٢هـ / ١٢٣٥ - ١٥٥٥م" رسالة لاستكمال متطلبات درجة الماجستير - كلية الدراسات العليا - جامعة النجاح الوطنية - نابلس - فلسطين – ٢٠٠٢م.
- الشكري، أحمد "الإسلام والمجتمع السوداني - إمبراطورية مالي: ١٢٣٠ - ١٤٣٠م" المجمع الثقافي - أبو ظبي – ١٩٩٩م.
- الطمار، محمد "المغرب الأوسط في ظل صنهاجة" ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ١٩٧٧.
- الغنيوري، عطية مخزوم "دراسات في تاريخ شرق

إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)" منشورات جامعة قار يونس - بنغازي - الطبعة الأولى – ١٩٩٨م.
- فيج، جوم دونلي "تاريخ غرب إفريقيا" ترجمة السيد يوسف نصر - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الأولى – ١٩٨٢م.
- القادري، عبد القادر "الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي" ضمن مجلة دعوة الحق - إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب - العدد ٢٠٢ - ١٩٧٩ - ص ص ٤٨ - ٥٣.
- قاسم، جمال زكريا "الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية" دار الفكر العربي - نصر – ١٩٩٦م.
- مجهول "الاستبصار في عجائب الأمصار" نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد.
- الميلي، مبارك بن محمد "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" المؤسسة الوطنية للكتاب - دار الغرب الإسلامي - بيروت.
- نياني، ج.ت (مشرفًا) "تاريخ إفريقيا العام/ المجلد الرابع: إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر" اليونسكو - المطبعة الكاثوليكية - بيروت – ١٩٨٨م.
- الهادي، روجي إدريس "الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م" ترجمة حمادي الساحلي - دار الغرب إسلامي - بيروت - الطبعة الأولى – ١٩٩٢م.
- هوبكنز.ا.ج "التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية" ترجمة أحمد فؤاد بليع - منشورات المجلس الأعلى للثقافة – ١٩٩٨م.
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي "وصف إفريقيا" ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الغرب الإسلامي - الطبعة الثانية – ١٩٨٣م.
- ويدنر، دونالد "تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء" ترجمة راشد البراوي - دار الجيل للطباعة - الفجالة – ١٩٦٢م.

الدكتور محمد كمال الدين عز الدين ودوره في مجال الدراسات المملوكية تأليفًا وتحقيقًا

د. محمد جمال حامد الشوربجي
جمهورية مصر العربية

ملامح من سيرته:

هو محمد كمال الدين عز الدين علي السيد، مدرس بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة المنوفية، نشأ الدكتور محمد في بيئة علمية أزهرية فكان أبوه أحد أساتذة الجامعة الأزهرية، وفي كنف هذه البيئة تعلم الدكتور من أبيه جمع القصاصات من الجرائد والمجلات وتكوين مادة لعدد من مقالاته التي نشرها في العديد من المجلات، كما ساعدته هذه البيئة على تكوين ثقافة علمية جيدة أهلته؛ لأن يشارك وهو في الثانوية العامة سنة ١٩٦٨م في مسابقة علمية أعلن عنها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بدراسة عنوانها "العلوم الطبيعية عند العرب في العصور الوسطى"، وقد حصل على المركز الأول؛ وكُرِّمَ في حفل كبير حضره الرئيس جمال عبد الناصر ونال جائزة قدرها ثلاثين جنيهًا، واستمر على هذا النحو حتى تخرج من الجامعة وتوجه إلى استكمال الدراسات العليا.

كان الدكتور محمد قبل أن يدخل غمار الدراسات التاريخية قد حصل على درجة الماجستير في البلاغة والنقد من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة تقريبًا، وقد حكى لي قصة مؤثرة تدل على صبره في طلب العلم، فيقول: أنه عندما تقدم لتسجيل درجة الماجستير في التاريخ قدمه أحد الأساتذة مع رفيق آخر إلى الأستاذة الدكتورة: سيده إسماعيل كاشف (١٩١٥-٢٠١٥م) ولم تكن الدكتورة تقبل سوى الطالب المتميز الذي عنده صبر على طلب العلم وليس طالب شهادة، فطلبت من الاثنين أن يقوما أولاً بتنظيف مكتبة القسم من الأتربة فرفض رفيق الدكتور أن يقوم بهذا الأمر مصرحًا بأن هذا إذلال له بينما وافق الدكتور، ونزل من فوره إلى المكتبة ليدبر أمره.

كانت الدكتورة قد أخبرت أمينة المكتبة بالأمر فسمحت له بالدخول فقام بتنظيف المكتبة وفرز ما بها من كتب ثم التقى بالدكتورة وقدم لها تقرير شفوي عن المكتبة تحدث فيه عن الكتب الموجودة وليس لها قيمة، والكتب القيمة الغير موجودة؛ والتي ينبغي أن تكون بها، والمخطوطات المهملة بالمكتبة، فعقدت الدكتورة اجتماع ضم دكاترة القسم وطالبتهم بالتعاون مع الدكتور محمد لإصلاح حال المكتبة بشراء

الكتب اللازمة وتصوير المخطوطات، ومن هنا أصبح هناك اتصالاً روحيًا بين الدكتور وأستاذته التي أشرفت على رسالتي الماجستير والدكتوراه ونجد هذا في الإهداءات التي قدمها لها في عدد من كتبه المنشورة.

حصل الدكتور محمد على درجة الماجستير في الآداب من كلية البنات بجامعة عين شمس في سنة ١٩٨٣م عن رسالة بعنوان "التاريخ والمنهج التاريخي عند ابن حجر العسقلاني"، وفي سنة ١٩٨٩م حصل على درجة الدكتوراه من نفس الكلية عن رسالة بعنوان "الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة "دراسة عن التاريخ والمؤرخين" في ثلاث مجلدات كبار، وكلا الرسالتين كانتا تحت إشراف الأستاذة الدكتور: سيده إسماعيل كاشف رحمها الله تعالى.

وقد جاء الجزء الأول في ٣٨٣ص قسمها الدكتور إلى ثلاثة أبواب، فتحدث في الباب الأول "الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة" الذي قسمه إلى ثلاث فصول هي: عوامل ازدهار الحركة العلمية، والمراكز العلمية، والسمات العامة للحركة الفكرية، وتحدث في الباب الثاني عن البدر الزركشي وقسم الباب إلى فصلين، الأول منها تحدث عن حياة المؤلف، والثاني عن جهوده في الكتابة التاريخية واختار من مؤلفاته عقود الجمان، وختم الدراسة بالباب الثالث الذي تحدث فيه عن ابن الملقن وقسم الباب إلى فصلين، الأول منها تحدث عن حياة المؤلف، والثاني عن جهوده في الكتابة التاريخية، وقد نشر هذه الرسالة في ثلاثة كتب هي: ابن الملقن مؤرخًا، والبدر الزركشي مؤرخًا، والحياة الفكرية في مصر في دولة المماليك الجراكسة.

بعد أن حصل الدكتور محمد على الدكتوراه اشتغل في مدرسة بالقليوبية حكى لي عنها النوادر حتى سعى الدكتور عبد العظيم رمضان في تعيينه بكلية الآداب جامعة المنوفية، وفي سنة ١٩٨٩م أصيب الدكتور بفاجعة موت ابنته ولاء- رحمها الله تعالى- فانكب على تأليف كتاب "أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة" ليصبر نفسه ويخفف عنه أثر المصيبة.

قال عنه الدكتور عبد العظيم رمضان- رحمه الله تعالى- في التقديم لهذا الكتاب في معرض حديثه عن التعامل مع الكتب التراثية: "...ومن هنا أشفقت على مؤرخي التاريخ الإسلامي الجادين الذين أثروا المكتبة العربية بمؤلفاتهم القيمة، وأعتقد أن الدكتور محمد كمال الدين واحدًا منهم، وهذا ما دعاني إلى الإلحاح في تعيينه مدرسًا للتاريخ الوسيط في كلية الآداب جامعة المنوفية حتى يستفيد بعلمه الطلبة، وهو ما دعاني أيضًا إلى نشر هذا الكتاب الجاد في سلسلة تاريخ المصريين".

وأذكر من المواقف التي عاينتها في مكتبه بالقسم وأثرت في أيما تأثير أنه في أحد الأيام من سنة ٢٠١١م حضر إلى مكتب الدكتور رجل بجلباب حسبته من الوهلة الأولى أحد طلاب الدكتور جاء لمقابلته دخل الرجل وسلم علينا ثم قال للدكتور: سآتي مرة ثانية، ما أن رحل حتى قال لي الدكتور: أتعرف من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا أستاذ جامعي جاء ليطلب مني أن أتدخل؛ لأنجاح ولده، وأنا لن أقوم بذلك، وهو كثير الإلحاح علي ثم ذكر لي أن أخته كانت طالبة بالجامعة الأزهرية، وقد رسبت في أحد المواد مرة أو مرتين على الرغم من أن والدها هو الذي كان يدرس لها هذه المادة بالجامعة!!، والمواقف والحكايات من وعن الدكتور كثيرة لا يسعها المقام.

ما أن تدخل مكتبه حتى يستقبلك رجل ذا هندام حسن قد أثرت السنين فيه بابتسامة واستقبال جيد ثم يهديك بعض الحلوى التي لا يخلو منها جيبه في كثير من الأحيان، ثم يقدم لك مشروب إن أمكن الأمر، وما أن يدور الحديث

حتى تجد الساعات تمر سراعًا دون أن تدري فتخرج وقد حصلت على كم كبير من المعلومات ووصلت إلى مبتغاك فيما أردت أن تسأله عنه، ومن أعماله الخيرة التي قلما أن تجد أستاذًا يقوم بمثلها أنه يوزع كتبه الجامعية مجانًا على الطلبة الذين يدرس لهم في كافة الكليات، ومن الطرائف التي حكاها لي في أحد الأيام أن رجلاً جاء إليه ليطلب منه أن يعفي ابنه من شراء الكتاب لضيق الحال فقال له الدكتور: أنا لا أبيع الكتاب بل أعطيه مجانًا للطالب، فقال والد الطالب: شوف ابن كذا باع لي الكتاب بعشرين جنيهًا فضحك الدكتور من ذلك، هذه هي صفحات من حياة الدكتور.

الإنتاج العلمي تأليفًا وتحقيقًا: أثرى الدكتور محمد كمال المكتبة العربية بعشرات الكتب في مجال تحقيق التراث ومناهج المؤرخين معظمها في تاريخ العصر المملوكي ومنها:

أعماله المحققة حسب الترتيب الهجائي للمؤلفين:

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت:٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):

- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ٣ج، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٠م.
- البحر الزاخر في علم الأول والآخر، ٢ج، مكتبة سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠١٢م، ١٥٠٠ص.
- ابن جماعة (عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ت:٧٦٧هـ/١٣٦٦م): المختصر الصغير في سيرة البشير النذير، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت:٩١١هـ/١٥٠٥م):

- كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م، ٢٥١ص.
- تاريخ الخلفاء، نظر فيه وزاد في حواشيه، عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد الحنفي ت: ٨٠٩هـ/١٤٠٦م): الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ٢ج، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ٥٨٥ص.
- ابن طولون (شمس الدين محمد الصالحي ت: ٩٥٣هـ/١٥٤٧م): النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ١٩٠ص.
- العراقي (ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم ابن الحسين ت:٨٢٦هـ/١٤٢٢م): الذيل على العبر في أخبار من غبر، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- ابن العسال (مفضل بن أبي الفضائل ت: بعد ٧٥٩هـ/١٣٥٨م): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ بن العميد، ٢ج، دار سعد الدين للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٦م.
- الكافيجي (محيي الدين محمد بن سليمان الرومي الحنفي ت: ٨٧٩هـ/١٤٧٤م): المختصر في علم التاريخ، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ١٤٧ص.
- المقريزي (أحمد بن علي ت:٨٤٥هـ/١٤٤١م): المقريزي وكتابه درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ٣٠٨ص؛ ونشر بدار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م بعنوان "درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة".

ابن الوزير (عبد الباسط بن خليل الحنفي ت:٩٢٠هـ/١٥١٤م):

- نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ١٧٥ص.
- غاية السؤل في سيرة الرسول، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- تاريخ الأنبياء الأكابر وبيان أولي العزم

منهم، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ١٢٨ص.

المؤلفات مرتبة حسب سني التأليف:

- التاريخ والمنهج التاريخي عند ابن حجر العسقلاني، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ٥٦٠ص(١).
- ابن الملقن مؤرخًا، سلسلة أعلام المؤرخين١، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ٨٧ص.
- ابن حجر العسقلاني مؤرخًا، سلسلة أعلام المؤرخين ٢، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- البدر الزركشي مؤرخًا، سلسلة أعلام المؤرخين ٣، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ٢٩٥ص.
- عبد الباسط الحنفي مؤرخًا، سلسلة أعلام المؤرخين ٤، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ٢٤٧ص.
- أبو العباس القلقشندي مؤرخًا، سلسلة أعلام المؤرخين ٥، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ١٥٧ص.
- المقريزي مؤرخًا، سلسلة أعلام المؤرخين ٦، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ٢٤٥ص.
- الجلال السيوطي مؤرخًا، سلسلة أعلام المؤرخين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- الحياة الفكرية في مصر في دولة المماليك الجراكسة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ١٢٤ص.
- أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, ١٩٩٢م، ٢٩٣ص.
- دراسات نقدية في المصادر التاريخية، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ٩٣٦ص(٢).

البحوث:

- حول التعريف بالمخطوطات "ذيل الدرر الكامنة" لابن حجر العسقلاني دراسة وتعريف، مجلة معهد المخطوطات العربية، الكويت، مج٢٨، ج٢، ديسمبر ١٩٨٤م، ص٥٦٥-٥٧٦، وهذا البحث كان سببًا في قيام الدكتور عدنان درويش- رحمه الله تعالى- بتحقيق هذا الكتاب الذي نشره معهد المخطوطات العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٢م، وقد ذكر الدكتور عدنان ملخص هذا البحث في مقدمة التحقيق(٣).
- العلاقة بين التراجم والحوادث في حوليات "إنباء الغمر؛ لأنباء العمر" لابن حجر العسقلاني، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مج٢٩، ج٢، ١٩٨٥م، ص٦٣١-٦٤٦، وهذا البحث هو الفصل الثالث من "التاريخ والمنهج التاريخي عند ابن حجر العسقلاني"، ص٣٠٩-٣٤٠.
- ابن دقماق وكتابه الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين "دراسة وتعريف"، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مج٣٠، ج٢، يوليو- ديسمبر ١٩٨٦م، ص٧٩٥-٨٠٨.
- المكاتب ودورها في النهضة الفكرية والاجتماعية في مصر المملوكي، مجلة الدارة، الرياض، ع١، السنة١٦، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص١٠٢-١١٥، وهذا البحث هو جزء من الفصل الثاني "المراكز العلمية" من الباب الأول "الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة" من رسالته للدكتوراه، ص ٣٧-٥٣، وهذا لا يشين البحث من الناحية العملية فالباحثين ما بعد الدكتوراه كثيرًا ما يفعلون هذا الأمر مع تعديل وتنظيم وحذف وإضافة فيخرج في أبهى حلة، وغرضنا من هذا الأمر هو تبصرة الباحثين عن هذه

الأعمال بأنها موجودة في كتبه الأخرى الكبيرة نسأل الله الإخلاص في القول والعمل.

- مجالس الإملاء في مصر في ظل حكم سلاطين المماليك، بحث منشور ضمن كتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٣٩١-٤١٠، إلى غير ذلك من الدراسات التي لم نتمكن من الوقوف عليها في مجال الدراسات المملوكية.

منهجه في مؤلفاته التي تناولت سير مؤرخي العصر المملوكي ومناهجهم:

وضع الدكتور محمد كمال الدين منهج في دراسة سير المؤرخين ومناهجهم تفرد به عن غيره حتى إذا وجدت كتابًا بلا هوية تعريفية يتحدث عن أحد المؤرخين ومنهجه التاريخي وبه هذه العناصر التي حددها الدكتور في التعريف بالمؤرخ ومنهجه تستطيع أن تقول أن هذا الكتاب هذا أحد مؤلفات الدكتور محمد.

ويمكن أن نحدد منهج الدكتور في عدة عناصر هي: "دراسة حياة المؤلف، مجهوداته في الكتابة التاريخية، نموذج أو بعض النماذج من مؤلفاته"، وفي هذا النموذج يدرس عناصر خمسة هي: "محتواه وتنظيمه، ومنهجه، ومصادره وطرق النقل منها والإسناد إليها، والنقد التاريخي للكتاب، ونقد النشرات السابقة للكتاب إذا كان قد نشر"، وعلى هذا المنهج سار الدكتور في كل مؤلفاته سواء في الماجستير أو الدكتوراه أو سلسلة المؤرخين ونحوها، وسنقوم بتوضيح هذا المنهج من خلال كتابه "أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة".

جاء في مقدمة الكتاب أنه عبارة عن دراسة مركزة عن أربعة كتب رائدة في مجال التاريخ المملوكي لأربعة مؤلفين من المؤرخين الأعلام في دولة المماليك الجراكسة، وهذه الكتب كن لها تأثيرها وإلى المدى البعيد على الكتابة التاريخية وهي: المختصر في علم التاريخ للكافيجي(ت:٨٧٩هـ/١٤٧٤م)، و"تاريخ الدول والملوك" لابن الفرات الحنفي(ت:٨٠٧هـ/١٤٠٥م)، و"الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين" لابن دقماق(ت:٨٠٩هـ/١٤٠٧م)، و"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي(٨٤٥هـ/١٤٤١م).

وبدأ بعد ذلك يعدد فضائل هذه الكتب فيقول مثلاً: إذا بفضل ظهور المختصر في علم التاريخ أنشأ السخاوي كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، وأنشأ السيوطي كتاب "الشماريخ في علم التاريخ"، كما ذكر أن خطط المقريزي كانت الأساس في كل الكتابات التي تحدثت عن القاهرة في فترات لاحقة واعتمد عليها عدد كبير من المؤرخين منهم ابن تغري بردي(ت:٨٧٤هـ/١٤٧٠م) في كتابه "البحر الزاخر في علم الأول والآخر"، وابن إياس في كتابه "نزهة الأمم في العجائب والحكم".

ثم يضيف ملمحًا آخر من ملامح تفرد هذه الكتب وسبب اختياره لها وهو أن كل كتاب يمثل موضوع من موضوعات الكتابة التاريخية فـ"المختصر في علم التاريخ" يمثل فلسفة التاريخ ومنهجه، بينما يمثل "تاريخ الدول والملوك" موضوع التاريخ العام، ويمثل "الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين" التأريخ للدول من خلال تراجم الخلفاء والسلاطين ورابعها خطط المقريزي التي تمثل الجغرافيا التاريخية[٤]، ويتميز الكتاب بصفة عامة وهي ثراء حواشيه بالتعليقات القيمة في بابي التراجم والتعريف بالنسخ الخطية للكتب الواردة في المتن ونحو ذلك، وسوف نوضح عناصر منهج الدكتور من خلال نموذج من هذا الكتاب هو "الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين" لابن دقماق.

أولاً: ترجمة المؤلف:

وفي هذه النقطة يتناول الدكتور تاريخ مولده ونشأته وسبب تسميته بهذا الاسم وطلبه للعلم وأشهر شيوخه ومن تأثر بهم ورحلاته ثم الوظائف التي تولاها، وذكر تاريخ وفاته، ومكانته بين علماء عصره ففي ترجمته لابن دقماق قال: هو صارم الدين إبراهيم بن محمد بن إيدمر العلائي المعروف بابن دقماق، وصحح ما وقع فيه بعض المورخين من اعتبار ايدمر بن دقماق بأن الصواب أن ابن دقماق لقب لايدمر، ثم تحدث عن جده والمناصب التي تولاها في عصر الناصر محمد بن قلاوون وذكر أن المؤلف لم يذكر شيء عن والده سوى تاريخ وفاته سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م.

ثم انتقل إلى ذكر ميلاد ابن دقماق في حدود سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م وأنه نشأ في طبقة أولاد الناس وتزي بزي الجند وتفقه على المذهب الحنفي، وتحدث عن أخلاقه فذكر أنه وصف بأنه "جميل العشرة فكه المحادثة كثير التودد ..."، وبعدها تحدث عن ثقافته فذكر أنه نال قسطًا بسيطًا من العلم وأحب التاريخ فانكب عليه وألف فيه نحو مائتي سفر، ولكنه كان عامي العبارة عريًا عن العربية.

وختم الحديث عن سيرة حياته بمكانته بين علماء عصره فذكر أن ابن دقماق كان على علاقة طيبة بأعلام عصره مثل المقريزي وابن حجر العسقلاني فأشادوا به وبدوره في كتابة التاريخ وتبعهم على هذا ابن تغري بردي والسيوطي وغيره، واعتمد على كتاباته ابن الفرات الحنفي والمقريزي والبدر العيني وغيرهم(٥).

ثانيًا: مجهوداته في الكتابة التاريخية:

قال الدكتور: على الرغم من غزارة كتابات ابن دقماق في التاريخ إلا أنه لم يبق لدينا من مؤلفاته أو عناوينها سوى القليل المبعثر في مكتبات العالم أو المثبت اسمه لدى من ترجم له، ويمكن إجمالها على النحو الآتي: الانتصار لواسطة عقد الأمصار(٦)، وترجمان الزمان في تراجم الأعيان، والجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين(٧)، والدر المنضد في وفيات أمة محمد، وعقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر، وفرائد الفوائد، والكنوز المخفية في تراجم الصوفية، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام(٨)، ونظم الجمان في طبقات أصحاب إمامنا النعمان، وينبوع المزاهر في سيرة الملك الظاهر(٩)، ومما يحمد للدكتور أنه تتبع النسخ الخطية لهذه الكتب في مكتبات العالم فذكر ما استطاع الوقوف عليه منها، ويمكن أن نضيف إلى قائمة هذه الكتب التي ذكرها الدكتور كتاب آخر للمؤلف هو "النفحة المسكية في الدولة التركية"(١٠).

ثالثًا: نموذج من مؤلفاته:

اختار الدكتور محمد نموذجًا من مؤلفات ابن دقماق وهو "الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين" الذي قام بتحقيقه ونشره(١١)، وقد وضع عند دراسته لهذا النموذج عدة قواعد ارتضاها وسار عليها في كل مؤلفاته الأخرى، وهذه القواعد هي: تحليل الكتاب وتنظيم مادته، وأسلوب الكتاب، ومصادر مادته وطرق الإسناد إليها والنقل منها، والنقد التاريخي للكتاب، ونقد النشرات التى صدرت له، وهذا النقد له فائدته في دفع بالمتخصصين لإعادة تحقيق الكتاب، وقد قام الدكتور بهذا الأمر فقد أعاد تحقيق الكتاب الذي نحن بصدد دراسته، وفيما يأتي عرض لهذه العناصر في ضوء كتاب الجوهر الثمين.

١ ـ محتواه وتنظيمه وأسلوبه:

قال الدكتور: احتوى الكتاب على مقدمة قصيرة أشار فيها إلى أنه جمعه بإشارة الظاهر برقوق تتبعها ترجمات سريعة كتبت بأسلوب عامي لا يرتبط بقواعد اللغة، أثبت فيها ما توارد على الذهن ورددته الألسن مما جعله يغفل الكثير من الحوادث في حياة هؤلاء ومن عاصرهم من أشخاص ودول، لكنه مع ذلك يبقى مادة أساسية

الدكتور محمد كمال الدين عز الدين ودوره في مجال الدراسات المملوكية تأليفًا وتحقيقًا

لدارسي التاريخ الاسلامي لا غنى لهم عنها باعتباره الكتاب الوحيد الذي وصلنا من مؤلفات ابن دقماق مما يعد نموذجًا للتعريف بمنهجه في الكتابة التاريخية ومفهومه لها. ثم إن القسم الأخير منه والذي رتبه على الحوليات المتعاقبة الواردة في ثنايا ترجمات سلاطين المماليك يعد مادة أساسية استقى منها مؤرخي القرنين الثامن والتاسع مادتهم(١١).

٢- **منهجه:** استطاع الدكتور محمد إجمال منهج المؤلف في النقاط الآتية:

- الترجمة لبعض الشخصيات ذات التأثير الفعال في الجوانب المصاحبة للشخصيات المترجم لها مثل ترجمته للحجاج بن يوسف الثقفي في إطار الترجمة للوليد بن عبد الملك.
- اعتنى في ترجمات الخلفاء والسلاطين بالآتي: اللقب والكنية والاسم، المولد، تقدير عمر المترجم له حال توليه الخلافة أو الوفاة، مدة الخلافة أو السلطنة، أهم أعماله، سجاياه وصفته، الوفاه من حيث كيفيتها وعلتها وتاريخها وموضع الدفن، وزراءه وكتابه وقضاته ونحوهم، بعض الحكايات والطرائف المتعلقة بالمترجم له، العناية بإثبات الأوليات والأخرويات المتعلقة المترجم له كقوله هو أول من فعل كذا أو هو آخر من فعل كذا وفي أثناء إيراده لذلك يأتي ببعض القصص الخرافية التي يعتقد صحتها، وأشار إلى أن هذه العناصر قد تأتي كلها في ترجمة الخليفة أإو السلطان أو بعضها، وقد تأتي مرتبة على النحو السابق أو يحدث فيها قديم وتأخير، وقد يطول الكلام في عنصر وتقتضب في آخر.
- اهتم في الحوليات بجانب الأحداث السياسية بالأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية.

وخلص الدكتور محمد إلى أن ابن دقماق لم يرد بمادة الكتاب الترجمة البحتة للخلفاء والسلاطين اقتصارًا على العناصر المدروسة في ترجماتهم بعيدًا عن ما يحوطهم من حوادث على اختلاف أنواعها هادفًا من وراء ذلك إلى قياس مراكز دولهم لما فيه من أهمية في تقويمهم(١٢).

٣- **مصدر مادة الكتاب وطرق الإسناد إليها والنقل منها:**

اهتم الدكتور في دراسة هذا العنصر بعدة نقاط هي: أنواع المصادر التي اعتمد عليها، طرق الإسناد إلى هذه المصادر، وطرق النقل منها.

- أنواع المصادر: ذكر الدكتور أن ابن دقماق اعتمد على المشافهة وضرب مثالاً على ذلك بقول ابن دقماق في ترجمة الظاهر برقوق "أخبرني بذلك قاضي القضاة الأزرقي وذكر لي أنه ..."، كما اعتمد على المصادر السابقة والمعاصرة وعدد منهم ١٧ كتاب منهم: تاريخ اليعقوبي (ت:٢٨٤هـ/٨٩٧هـ)، والكامل للمبرد (ت:٢٨٥هـ/٨٩٨هـ)، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (ت:٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وفيات الأعيان لابن خلكان(ت:٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وتاريخ الإسلام للذهبي(ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م)(١٤).
- الإسناد للمصدر: ذكر الدكتور أن مصادر ابن دقماق تنوعت في الاسناد إلى المصادر على النحو الآتي:

* الإسناد إلى المصدر مصرحًا بعنوان واسم مؤلفه: ويمثله قوله: "...حكى القاضي أبو الفرج المعافى في كتابه الجليس والأنيس قال...".
* الإسناد إلى المصدر البعيد مع إغفال المصدر القريب المأخوذ لديه عنه: مثل قوله: "...وقال قتادة: كان عمر يلبس جبة صوف مرقوعة بأدم ويطوف في السوق ومعه الدرة يؤدب

بها الناس"، ويقابله في دول الإسلام للذهبي "... وقال قتادة: كان عمر يلبس جبة صوف مرقوعة بأدم ويطوف في السوق ومعه الدرة يؤدب بها الناس".

* إغفال الإسناد للمصدر: استطاع الدكتور الوقوف على عدد من المصادر التي نقل منها ابن دقماق ولم يشر إليها منها: تاريخ الإسلام للذهبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ويضرب أمثلة على ذلك منها قول ابن دقماق: "وكان القادر بالله أبيض كبير اللحية يخضبها، وكان كثير التهجد بالليل، كثير الصدقات"، ويقابله عند الذهبي: "وكان القادر بالله أبيض كبير اللحية يخضبها، وكان كثير التهجد بالليل، كثير الصدقات".

- طرق النقل: ذكر الدكتور أن ابن دقماق راوح في كتابه بين النقل الحرفي من المصادر والتصرف في عباراتها من ناحيتي النسق الترتيبي والتعبيري ويضرب الأمثلة على ذلك(١٥).

٤ـ النقد التاريخي للكتاب:

بعد أن انتهى الدكتور محمد كمال من دراسته للكتاب كان عليه أن ينقده من وجهة النظر التاريخية فيقول: ابن دقماق شأنه شأن الكثير من المؤرخين التقليديين لا يتوغل في الحوادث لمعرفة الأسباب الدافعة إليها حتى تمكنه من تعليلها وإصدار حكم صائب على أصحابها، كما أنه شديد التعاطف مع الخلافة العباسية وسلطان عصره الظاهر برقوق.

واستطاع الوقوف على فلسفة ابن دقماق الخاصة في إثبات ترجمات كتابه فقد جرد بعض الشخصيات المترجم لها في الكتاب من صفة السلطنة كما فعل مع شجر الدر التي لم يعدها من سلاطين البيت الأيوبي ويظهر هذا من ترجمة السلطان تورانشاه والسلطان الأشرف موسى، ولا من سلاطين الترك ويظهر هذا من ترجمة السلطان عز الدين أيبك، وإنما عدها فترة انتقالية بين عصرين، أو إسقاط الترجمة من التسلسل الترتيبي المتبع كما فعل مع سلطنة المنصور محمد بن العزيز عثمان التي تقع بين سلطنة العزيز عثمان والعادل أبو بكر وذلك؛ لأنها فترة قصيرة ولم يفعل فيها شئ مما جعله من وجهة نظره غير جدير بالسلطنة(١٦).

٥ـ نقد نشرات الكتاب:

ختم الدكتور حديثه للكتاب بنقد نشرة الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور-رحمه الله رحمة واسعة- نقدًا موضوعيًا مبنيًا على قواعد علم تحقيق المخطوطات فأشار إلى الأخطاء التي وقع فيها الدكتور سعيد في عنوان الكتاب؛ حيث ذكر عنوان الكتاب على النحو الآتي: "الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين" والصواب "الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين" معتمدًا في إثبات ذلك على أربع نسخ خطية للكتاب.

كما أشار إلى أن الدكتور سعيد قام بالتلفيق بين النسخ ولم يعتمد واحدة ويقابل عليها النسخ الأخرى، كما أن النشرة المحققة لم تراجع على الأصول مراجعة جيدة ولذا جاء النص كثير من السقط والتصحيف والتحريف وضرب الكثير من الأمثلة على ذلك، وانتهى إلى أن الكتاب يحتاج إلى إعادة تحقيقه وقد اضطلع هو بهذه المهمة نشره نشرة محققة تلافي فيها هذا السلبيات السالف ذكرها(١٧).

منهجه في تحقيق مصادر العصر المملوكي:

نستطيع القول من خلال عدد من تحقيقات الدكتور مثل "حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور" لابن تغري بردي، و"المختصر في علم التاريخ" للكافيجي، و"نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين" لعبد الباسط الحنفي إن منهجه يتلخص في النقاط الآتية:

- **مقدمة التحقيق:** وفيها يتحدث الدكتور عن ترجمة المؤلف، ومؤلفاته واهتم بذكر المؤلفات التاريخية وأهمل في ذكر المؤلفات الأخرى للمؤلف في العلوم الأخرى، فقد ذكر لعبد الباسط الحنفى خمسة كتب هي: تاريخ الأنبياء، والمجمع المفنن، والروض الباسم، ونيل الأمل، ونزهة الأساطين، وأهمل بعض مؤلفاته الأخرى في الطب والتصوف ونحو ذلك[١٨].

وهنا قد يقول قائل أن الدكتور قد فصل في ذكر هذه المؤلفات في كتابه المستقل عن المؤرخ ومنهجه كما فعل في كتاب المقريزي مؤرخًا، فيرد عليه بأن هذا ليس مبررًا مقنعًا؛ لأن من سيشتري الكتاب ليس مطالبًا منه أن يشتري أو يحصل على الكتاب الآخر عن سيرة المؤلف وإلا كان الأولى أن يضع الدكتور كتابه عن سيرة المؤلف ضمن مقدمة التحقيق فيجعل من يحصل على الكتاب لا يحتاج لكتب أخرى لفهم منهج المؤلف ومعرفة تاريخه كما يفعل الدكتور أيمن فؤاد سيد فمقدمة التحقيق أو ما نسميها بالدراسة عنده تكاد في كثير من الأحيان أن تكون كتاب مستقل إذا فصله عن الكتاب المحقق[١٩]، ولكن لكل شخص منهجه الذي يعتد به ويعده صوابًا.

وعلى العموم لم يسر الدكتور محمد على نمط واحد في كل تحقيقاته فقد يذكر للمؤلف كل مؤلفاته[٢٠] أو بعضها أو المؤلفات التاريخية فقط[٢١]، أو لا يذكر مؤلفات المؤلف بل يشير إلى أن مؤلفاته كثير كما ذكر المؤرخون كما فعل عند ترجمته للكافيجي في مقدمة تحقيق كتاب المختصر، وقد وقفنا بفضل الله على كثير من مؤلفات الكافيجي الخطية بدار الكتب المصرية نذكر منها مثلاً: الإحكام في معرفة الإيمان والأحكام (١/٣٩٥ مجاميع)، الإشراق في مراتب الطباق (٤/٣٩٥ مجاميع)[٢٢]، والبشارة (١٥/٣٩٥ مجاميع) وغيرها الكثير، ويحمد للدكتور أنه كثير الاهتمام بذكر مخطوطات هذه الكتب ومظانها في مكتبات العالم قدر الوسع والإمكان.

بعد ذلك يقوم الدكتور بالتعريف بالكتاب متبعًا في ذلك منهجه الذي ذكرناه في دراسة النماذج التي اختارها للتعريف بمناهج المؤرخين فيقوم بتحليل الكتاب وتنظيم مادته، ودراسة أسلوب الكتاب، ومصادر مادته وطرق الإسناد إليها والنقل منها، والنقد التاريخي للكتاب، ونقد النشرات التى صدرت له، وقد أثبت براعة وتمكن في دراسة هذه النقاط بحكم الدربة والخبرة.

ثم ينتقل إلى التعريف بالنسخ الخطية الموجودة للكتاب ووصفها، ثم منهجه في التحقيق ويمكن أن نحدد معالم هذا المنهج من خلال تحقيقه لكتاب نزهة الأساطين لعبد الباسط الحنفي على النحو الآتي:

- المقارنة بين النسخ واعتماد إحداها أم أو أصل مع تعليل سبب اختياره لهذه النسخة، وفي حالة وجود سقط أو خرم في النسخة الأم يعتمد نسخة أخرى تلي الأولى في المنزلة وما أن ينتهي السقط أو الخرم يعود للنسخة الأولى ومقابلة النسخ الأخرى عليها.
- تصويب الأخطاء النحوية الشائعة في متن الكتاب كنحو قوله: ثاني عشرين= ثاني عشري، وستة عشر سنة = ست عشرة سنة، وكذا الأخطاء الإملائية مثل قوله: الخلقات = الخانقاه ...الخ.
- نبهت إلى أخطاء التأريخ لديه سواء بتصويب الكثير منها في الحواشي ردًا على ما جاء في المتن، أو بتصويب مادة المتن ذاتها إذا كانت الخطأة بينة فيه بينًا فاحشًا، أو تأكد لدي أنها سهو قلم، ويضرب الأمثلة على ذلك فيقول: ومن أمثلة الأولى قوله في ترجمة "المظفر حاجي": "تسلطن في يوم مقتل أخيه الكامل شعبان، وهو يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة"، إذ نُبِّه في الحواشي إلى أن هذا التاريخ "ليس سوى

يوم خلعه، أما قتله فكان ظهر الأربعاء ثالث جمادى الآخرة"، ومن أمثلة الثانية قوله في ترجمة "العادل أبي بكر": "...ومات في يوم الخميس سابع جمادى الآخرة سنة اثني عشر(هكذا) وستمائة"، وقد صوبت السن في المتن بـ"خمس عشرة وستمائة" اعتمادًا على ما جاء في مصادر التحقيق مع الإشارة إلى ذلك في الحاشية.

- سدد بعض الفراغات التي أهملت سهوًا في النسختين، ومن ذلك قوله في ترجمة العزيز يوسف: "...وخلع يوم الاربعاء تاسع عشر ربيع سنة ..." واضعًا الزيادة بين معقوفتين هكذا "ربيع[الأول]"، وقد تكون إضافة حرف أو كلمة لاستقامة المعنى واضعًا ذلك بين معقوفتين.
- ترقيم ترجمات الكتاب معنونًا لكل ترجمة واضعًا ذلك بين معقوفتين ليفهم أنهما ليسا أصلاً من الكتاب ولكن من وضع محققه.
- أما التعليقات فمتنوعة فمنها: تصحيح الأخطاء التاريخية الشائعة، وتحقيق نسبة سلطان إلى جالبه من التجار أو معتقه من الأمراء، وضبط التواريخ، والتأريخ للمعارك الحربية الواردة في المتن والتعريف بها، التعريف بالبلدان والآثار المعمارية والوظائف والمصطلحات، وفي نهاية توضيح منهجه للتحقيق يعتذر عن الإكثار من التعليقات التي أثقلت الكتاب ويؤكد على أهميتها في إضاءة الكتاب وفهم ما فيه[٢٣]، ويختم مقدمة التحقيق بعدد من صور النسخ الخطية التي اعتمد عليها.

ـ **النص المحقق:** وفيه يظهر منهج المحقق الذي سبق ذكره، وفيما يخص الحاشية فقد قسمها إلى قسمين الأول للفروق بين النسخ، والثاني للتعليقات والتصويبات ونحوها، وسايره على هذا الدرب الدكتور أيمن فؤاد في تحقيقاته التي نشرها.

ـ **الكشافات "الفهارس":** تنوعت الفهارس عند الدكتور تبعًا لتنوع مادة الكتاب فقد صنع لكتاب "نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين" لعبد الباسط الحنفي ثلاث فهارس هي: فهرست الأعلام والألقاب والأمم والدول، وفهرست أسماء الأمكنة والبلدان والآثار، وفهرست المحتوى[٢٤]، بينما جعل لكتاب "المختصر في علم التاريخ" للكافيجي سبعة فهارس هي: فهرست الأعلام، وفهرست الأمكنة والبلدان، وفهرست الآيات القرآنية، وفهرست الأحاديث النبوية، وفهرست الأشعار، وفهرست أسماء الكتب الواردة في المتن، وأخيرًا فهرست المحتوى[٢٥]، وفي تحقيقه لكتاب "حوادث الدهور" لابن تغري بردي خصص جزءًا كاملاً هو الجزء الثالث للفهارس.

وأعتقد أن الدكتور مع زيادة دربته في فن التحقيق كان يبدع وينوع في الفهارس الفنية للكتاب، ويظهر هذا من تواريخ إصداره لهذه الكتب، ففي بداية التحقيق في الثمانينيات كانت المؤلفات صغيرة والفهارس بسيطة، ثم زاد حجم الكتاب المحقق نسبيًا، وتنوعت الفهارس في فترة التسعينات، واستمر الأمر في تطور حتى بلغ أشده اليوم مع إصداره نشرة محققة لكتاب "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ بن العميد"[٢٦] للمفضل بن أبي الفضائل (ت:٧٥٩هـ/١٣٥٨م) سنة ٢٠١٥م بالطبع لم أطلع عليه ولكني على تمام الثقة أنه قمة النضج في تحقيقات الدكتور محمد.

الخاتمة:

من خلال ما سبق نستطيع القول إن الدكتور محمد كمال قد وضع منهجًا متميزًا سار عليه في جميع أعماله التي نشرها، وأصبح مدرسة سار على دربها عدد من الباحثين وبخاصة في التأريخ لسير المؤرخين ومناهجهم، وقدم لنا خلال رحلته التأليفية تراجم لمعظم مؤرخي العصر المملوكي مثل المقريزي وابن الفرات، والبدر الزركشي،

وابن حجر، والسيوطي، والكافيجي، وابن تغري بردي، والقلقشندي، وابن الملقن، وابن دقماق، وعبد الباسط الحنفي، ونختم هذه الدراسة بالدعاء له بدوام الصحة والعافية.

الحواشي

١. قام الدكتور محمد بعمل مراجعة للكتاب ونشرها في مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، مج١٤، ع٢، ١٩٨٦م، ص٣٢٧-٣٣٠.

٢. وقفت على قطعة من هذا الكتاب هي ٢٠٤ص، وتحتوي على دارسات نقدية لعدد من الكتب المملوكية هي على الترتيب: المختصر في علم التاريخ للكافيجي، وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات الحنفي، والبحر الزاخر في علم الأول والآخر لابن تغري بردي، ودرر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة للمقريزي، وكشف الصلصلة عن وصف الزلزلة للسيوطي، والإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام للمقريزي، والتحدث بنعمة الله تعالى للسيوطي، وحياة الحيوان الكبرى للدميري.

٣. ص٤٢-٤٧.

٤. أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, ١٩٩٢م، ص٩-١١.

٥. أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص١٠٥- ١٠٨.

٦. المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت،(د.ت).

٧. صدر بتحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٢م.

٨. صدر بتحقيق: سمير طبارة، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٩. أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص١٠٩-١١١.

١٠. صدر بتحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

١١. عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ٨٥ص.

١٢. أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص١١٢-١١٣.

١٣. المصدر نفسه، ص١١٤-١٢١.

١٤. المصدر نفسه، ص١٢٢-١٢٣.

١٥. المصدر نفسه، ص١٤٢-١٢٦.

١٦. المصدر نفسه، ص١٣٠-١٣٥.

١٧. المصدر نفسه، ص١٣٦-١٥٤.

١٨. نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٩.

١٩. انظر الدراسة التي قدم بها تحقيقه لكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي والتي وصلت إلى ١٤٠ص.

٢٠. حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٠م، ص٢٧-٣١.

٢١. نزهة الأساطين، ص٩.

٢٢. حقق الأستاذ عبد الواحد جهداني رسالة "الإشراق في مراتب الطباق"، ونشرها بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع ٢٥، ٢٠٠٥م، ص١٣٣- ١٣٧.

٢٣. نزهة الأساطين، ص٣٢-٣٨.

٢٤. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٦٥-١٧٥.

٢٥. عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص١٣٣.

٢٦. صدر هذا الكتاب بتحقيق: بلوشيه أدغار، باريس، ٢٠٠٤م، وقد أعاد الدكتور تحقيقه بسبب ما أصاب هذه النشرة من تصحيفات وقع فيها بلوشيه.

المصـادر والمراجع

- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م): حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ٣ج، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٠م.
- عبد الباسط الحنفي (عبد الباسط بن خليل الملطي الحنفي ت: ٩٢٠هـ/١٥١٤م): نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- محمد كمال الدين عز الدين: أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, ١٩٩٢م.

الخطّ العربي: هندسة روحانيّة بآلة جسمانيّة

عاطف عبد الستّار
تونس

المقدّمة:

لم يقتصر الخطّ العربي يومًا بوصفه قيمة تعبيريّة وتشكيليّة ذات خصوصيّة جماليّة مُستقلّة بذاتها، على تصوير حروف الكلمات العربية وإعجامها وتشكيلها على وجه فنّي جذّاب فيزيد ذلك في إقبال ناظريها لتدبّر معانيها - طالما أنّ جمال الحروف وتناسقها تلبس جمال المعاني ثوبًا يزيدها جاذبيّة فيتفاعل هذا الجمال مع جمال المعاني- فحسب، بل حوت مباحثه أيضًا أصول الكتابة وقواعد رسم الحروف والحركات الّتي وجب على الخطّاط مراعاتها لضمان سلامة الخطّ، فذلك يساعد على فهم المعنى علاوة على إمتاع النّظر وإراحة النّفس وجذب المشاهد(1)، فيتحقّق بذلك غرض الكتابة ويلتقي المعنى والمبنى ويتعانق الذّوق والحسّ، فيُؤثّر ذلك كلّه في العقول والنّفوس، فيُمتع النّظر ويُطيّب النّفس، ويُنمّي الذّوق.

ولقد ارتبط الخطّ العربي في الحضارة العربية الإسلاميّة بمجالات الثّقافة والفنون والعمارة والصّنائع والتّعليم والإدارة، وتطوّر بشكل ملحوظ

في علاقته بتلك المجالات، كيف لا وقد أضحى تعبيرًا حيًّا عن هويّة الأمّة الإسلاميّة المرتبطة بالعلم والكتاب، بما يعكسه من عمق تاريخي وما ينطوي عليه من حسّ فنّي وما يُغذّيه من تذوّق جمالي، وفي فضله قال الكندي (أبو يوسف يعقوب بن اسحاق ابن الصباح) "لا أعلم كتابة تحتمل من تجليل حروفها وتدقيقها ما يحتمل الكتابة العربية، ويُمكن فيها من السّرعة ما لا يُمكن في غيرها من الكتابات"(2). كما ارتبط أيضًا بالدّول المتعاقبة في العالم الإسلامي، طالما أنّ الدّولة كانت في حاجة ملحّة إلى الخطّ لترتيب شؤونها ولتسيير أمورها، ومع تعاظم الدّول تعاظم دور الخطّ وعلا شأنه وصار الخطّاط مقرّبًا من الحاكم أو الخليفة ملازمًا له، ومن أبرز الخطّاطين المسلمين في العصر الوسيط نذكر ابن مقلة الّذي يُعدّ مؤسّس الخطّ

العربي، ابن البوّاب، وياقوت المستعصمي، وحمد الله الأماسي، والحافظ عثمان، ومصطفى راقم، وحامد الآمدي وغيرهم كثير ممّن لا يتّسع المجال لذكرهم جميعًا[٣].

وأمّا من جانب تشكيلي فيُعدّ الخطّ العربي أكثر الخطوط تنوّعًا ومرونة وجماليّة وقابليّة للتطوّر والتّأقلم مع جميع الفضاءات وحضورًا في جميع الحقول المعرفيّة تقريبًا، ثمّ ما فتئ أن ازداد هذا الإحساس بالقيمة الفنيّة والجماليّة للخطّ العربي عندما اقتحم عالم الفنون التّشكيليّة ليصير عنصرًا تشكيليًّا مؤثّثًا للّوحة المسنديّة أو غيرها، ومنذ ذلك الحين لم يعد تطوير نماذج الخطّ العربي وتشكيلاته حكرًا على العرب وحدهم، بل هناك العديد من الشّعوب الإسلاميّة أضافت الكثير إلى الحرف العربي وسجّلت إبداعات رائدة وخطوات جبّارة، وساهمت بقدر كبير في انتشاره كالمغاربة والأتراك والفرس، كما أظهرت نماذج محليّة للخطّ العربي عند الأفارقة ومسلمي الصّين والقارّة الهنديّة، وقد يكون ذلك دلالة واضحة وصريحة على كونيّة الحضارة الإسلاميّة وانفتاحها على الإنسانيّة جمعاء من ناحية، ثمّ على مرونة الخطّ العربي وقابليّته غير المتناهية للتشكّل والتكيّف مع مختلف الثّقافات والبيئات الفنيّة من ناحية ثانية[٤].

إنّ مقاربتنا للخطّ العربي في هذه الورقات سوف تنطلق من قراءة تاريخيّة تتتبّع بدقّة نشأة الأبجديّة العربيّة في أشكالها الأولى المجرّدة وتطوّرها عبر العصور، ثمّ قراءة ثانية تشكيليّة تبيّن كيفيّة استلهام الحرف العربي وتوظيفه كعنصر تشكيلي يقتحم فضاءات الحداثة وعوالمها الإبداعيّة، وسنعمل في هذا المقال على الالتزام بالمنهج الآتي:

- في لحظة أولى سنحاول تعريف الكتابة والخطّ والوقوف على تعدّد مدلوليهما في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة.
- في لحظة ثانية سنعمل على تقصّي أصول الخطّ العربي وظروف نشأته وتفرّعه إلى عدّة أنواع أو أنماط.
- وفي لحظة ثالثة وأخيرة سنحاول التّأكيد على ثنائيّة الخطّ العربي والتّشكيل.

١) في اصطلاح الخطّ والكتابة وتعدّد مدلوليهما في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة:

مثّل نزول القرآن الكريم باللّغة العربية حدثًا بارزًا ولحظة فارقة في تاريخ الخطّ العربي وكلّ الكتابات والأبجديّات العالميّة بصفة عامّة، ليس فقط لكون القرآن بتكوينه ومواده وهيئته ومبناه يُمثّل أساس التمثّل في سلوك الآتيف وبنية الآتيف بمتعلّقاتها كلّها (من موادّ وهيئة) حسب شربل داغر[٥]، وإنّما؛ لأنّ الله عزّ وجلّ قد شرّفه بأن وضع "**القلم في المكان الرّفيع، ونوّه بذكره في المنصب الشّريف حين قال** ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾، **فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخطّ بالقلم**"[٦]، فجعل ذلك من الخطّ يكتسب قيمة أنطولوجيّة وكسمولوجيّة لمّا أقام وصلاً لعلاقة بين "اللّوح المحفوظ" والوجود، بين الكلمات والكائنات، بين الخطّ بوصفه فعلا تدوينيًّا والرّسم بوصفه تعيينًا للمحسوسات والأشكال..[٧] ومنذ ذلك الحين ارتبط الخطّ بالبيان الإلهي، وأصبحت لفظة الجلالة "الله" (تكرّرت ٤١١٣ مرّة في القُرآن) الكلمة العربيّة الأكثر قولاً وترديدًا وكتابة، فكان "**الارتباط الخطّ بقُدسيّة أسماء الله الحُسنى الدّور البارز الّذي دفع**

الخطّاط العربي إلى أن يُعبّر عن ذلك الإرتباط من خلال جماليّة الخطّ وجلال الصّورة المكتوبة"[٨].

كما كان لأحاديث النبيّ الكريم ﷺ دور آخر بارز في سعي الفنّان أو الخطّاط المسلم إلى إتقان الخطّ فقد قال رسول الله ﷺ **"قيّدوا العلم بالكتابة"**[٩]، وقال لرجل شكا إليه سوء حفظه **"استعن بيمينك"**[١٠]، وقال **"الخطّ الحسن يزيد الحقّ وضوحًا"**[١١]، وقال **"إنّ من حقّ الولد على والده أن يعلّمه الكتابة وأن يُحسن اسمه وأن يُزوّجه إذا بلغ"**[١٢]، وقال **"إذا كتب أحدكم بسم الله الرّحمن الرّحيم فليمدّ الرّحمن"**[١٣]، وقال ﷺ **"إذا كتبتم بسم الله الرّحمن الرّحيم فبيّن السّين فيه"**[١٤]، وقال لكاتبه معاوية رضي الله عنه **"ألق الدواة وحرف القلم وأنصب الياء وفرّق السّين ولا تعور الميم وحسّن الله ومدّ الرّحمن وجوّد الرّحيم"**[١٥].

ولقد نشطت حركة التّدوين المنظّم للقُرآن الكريم للعلوم العربيّة والشرعيّة في القرن الثّاني الهجري (٨م)، وألّفت كتب مستقلّة في بيان قواعد الكتابة، وفي توضيح استخدام العلامات والحركات، وإنّ من يروم دراسة نشأة الكتابة العربيّة (أي الإملاء) وتطوّرها عبر التّاريخ ليجد لحسن حظّه من المصادر القيّمة ما يروي به عطشه ويشفي به غليله ويُمتّع ناظره ويُنمّي معرفته حول علم لا يقلّ أهميّة عن بقيّة العلوم الّتي ظهرت وترعرعت في ظلّ الحضارة الإسلاميّة، علم يقدّم توضيحات عن أصل العلامات الكتابيّة ودلالتها، ويمدّنا بتفسيرات لغويّة وتاريخيّة لكلّ اختلاف بين المنطوق والمرسوم، وكلّ ذلك من شأنه أن يجعل الباحث يتعامل مع نظام واضح الأبعاد محدّد الدّلالات فيمنحه ذلك معرفة بالبعد التّاريخي للخطّ العربي ويمنعه من ارتكاب أخطاء كتابيّة كثيرة ثبت شيوعها وللأسف الشّديد عند فئة لا بأس بها من الكتّاب اليوم، ومن هذه المصادر نذكر:

كتاب **"المطالع النصريّة في الأصول الخطيّة"** للهوريني، و"كتاب الهجاء" للكسائي (علي بن حمزة، ت ١٨٩هـ)، وللسّجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد البصري، ت ٢٥٥هـ)، و**"كتاب أدب الكاتب"** لابن قتيبة الدّينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، و**"كتاب الخطّ والهجاء"** لابن يزيد المبرد (أبو العبّاس محمّد، ت٢٨٥هـ)، و**"كتاب الهجاء"** لابن كيسان (أبو الحسن محمّد بن أحمد، ت٢٩٩هـ)، و**"كتاب الخطّ والقلم"** لابن سلمة (أبو طالب المفضل، ت حوالي ٣٠٠هـ)، و**"كتاب الخطّ"** لابن السرّاج (أبو بكر محمّد بن السري، ت ٣١٦هـ)، و**"كتاب الهجاء"** للجعد (أبو بكر محمّد بن عثمان، ت بعد٣٢٠هـ)، وللأنباري (أبو بكر محمّد بن القاسم بن بشّار، ت٣٢٨هـ)، و**"كتاب أدب الكتاب"** للصّولي (أبو بكر محمّد ابن يحيى، ت ٣٣٦هـ)، و**"كتاب الخطّ"** للزّجاجي (أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق، ت٣٣٧هـ على الأرجح)، و**"كتاب الهجاء"** لابن درستويه (أبو محمّد عبد الله بن جعفر، ت ٣٤٧هـ)، و**"متن الشافية، مجموع مهمات المتون"**، لابن الحاجب (جمال الدّين أبى عمرو عثمان بن عمر، ت ٦٨٦هـ)، و**"صبح الأعشى في صناعة الإنشا"** للقلقشندي (أحمد بن علي بن أبي اليمن، ت ٨٢٥هـ/١٤١٨م) وغيرهم الكثير...[١٦]

ويُعدُّ الخطّ كما هو معلوم فنًّا مبنيًّا على أسس زخرفيّة وقواعد هندسيّة سواء في الحروف الهجائيّة أو في الكتابة المختزلة أو في الأرقام العدديّة[١٧]، وتشمل الخطاطة أيضًا الكتابة

الصوريّة والرمزيّة والمسماريّة وغيرها ممّا استعملته الأمم والأقوام في العهود الغابرة[18]، والخطّ والكتابة والرّقم والسّطر والزّبر كلّها تعني شيئًا واحدًا، وقد استخدمها الإنسان منذ زمان طويل، ثمّ قام بإدخال التّعديلات والتّحسينات عليها، ويصعب تعيين أيّ اللّغات كانت هي الأقدم في حياة الإنسان، إلّا أنّه من الممكن الجزم بأنّ الكتابات الهيروغليفيّة والآشوريّة والبابليّة والمسماريّة والفينيقيّة كانت من أقدم الكتابات الّتي ظهرت في الشّرق الأدنى والأوسط وقد عرّف الإمام جمال الدّين عثمان بن عمرو المعروف بابن الحاجب (٥٧٠-٦٤٦ هـ) الخطّ قائلًا: "**الخطّ تصوير اللّفظ بحروف هجائه**"[19]، ثم قال في موطن آخر: "**والأصل في كلّ كلمة أن تكتب بصورة لفظها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها**"[20].

وللكتابة لغة معان عديدة، منها الفرض والحكم والقدر، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨]؛ أي فرض[21]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [التّوبة: ٣٦]؛ أي حكمه[22]، وفي قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التّوبة: ٥١]؛ أي قضاء الله وقدره[23]. وتأتي الكتابة بمعنى الجمع، والكتيبة ما جُمع فلم يُنشر، ومنها كتيبة الجيش[24]. ومن معاني خطّ فكّر يُقال: فلان يخطّ في الأرض، إذا كان يُفكّر في أمره ويُدبّره[25]، وفي هذا يُصنّف الجاحظ الخطوط إلى خطّ الحازي والعرّاف والزّاجر، وخطوط أخر تكون مستراحًا للأسير والمهموم والمفكّر، كما يعتري المفكّر من قرع السّنّ، والغضبان من تصفيق اليد وتجحيظ العين[26].

والأخطّ الدّقيق المحاسن، ورجل مخطط؛ أي رجل جميل. وذهب القلقشندي إلى اعتبار أنّ "**أعظم شاهد لجليل قدرها (الكتابة)، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أنّ الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتدّه من وافر كرمه وأفضاله فقال عزّ اسمه** ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: ٣-٤]"[27]. فالكتابة هي الأداة النّاقلة للعلوم والأفكار، بها يُطلب العلم ويتطوّر، وبها تُحفظ أصناف العلوم ومختلف إنتاجات البشر، وهي "**حرفة يحترفها طائفة من النّاس وكانت تتطلّب معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسعة في الإطّلاع على النّحو الّذي ألّف فيه صبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الإرب للنّويري**"[28]، و"**الكتابة، والكتاب، والكَتْبُ، مصادر (كَتَبَ) إذا خطّ بالقلم، وجَمَعَ، وخَاطَ وخَرَزَ. يُقال (كَتَبَ قِرطاسا)، أي: خطّ فيه حُروفا وضمّها إلى بعضها، و(كَتَبَ الكتائب)؛ أي جمعها.**"[29]. وشاع إطلاق الكتابة عُرفًا على "**إعمال القلم باليد في تصوير الحُروف ونَقشِها، وعلى نفس الحروف المكتوبة، فعلى الإطلاق الأوّل تُعرّف بما عرف في (الشّافية)، و(جمع الجوامع). حيث قال (الخطّ تصوير اللّفظ برسم حروف هجائه، بتقدير الابتداء به، والوقف عليه). وعلى الإطلاق الثّاني تُعرّف (الكتابة) بأنّها نقوش مخصوصة دالّة على الكلام دلالة اللّسان على ما في الجنان، الدّال على ما في خارج الأعيان)**"[30]. وقد اشتمل هذا التّعريف على قواعد الوجود الأربعة المذكورة في قولهم: لكلّ شيء وجودات أربع: وجود في البنان بالكتابة، ووجود في اللّسان بالعبارة، ووجود في الجنان – أي العقل – بالتصوّر، ويُعبّر عن هذا أيضًا بوجود الأذهان، والرّابع هو الوجود في العيان – أي بالتحقّق خارجًا عن

الأذهان، وقد جمعها ناظم جمع الجوامع أوّل الخاتمة في بيت فقال:

مَراتـبُ الوُجـود أربـعٌ فقط
حقيقةٌ، تصـوّرٌ، لَفْـظٌ، فَخَطٌّ(٣١)

ونُطلق الكتابة في الاصطلاح الخاص بالأدباء على صناعة الإنشاء الّتي ربّما كان القلم فيها بيد الكاتب، أمضى من الحسام بيد الضّارب، فيقولون فلان شاعر وذاك كاتب – أي: مُنشِئٌ ناثرٌ، وهذا المعنى هو الّذي عناه الشّاعر النّابغي بقوله:

ومـا كلّ مـن لاق اليـراع بكاتـب
ولا كلّ من راش السّـهام بصائب(٣٢)

وعدّ ابن خلدون الخطّ: **"رسوم وأشكال حرفية تدلّ على الكلمات المسموعة الدالّة على ما في النّفس فهو ثاني رتبة عن الدّلالة اللّغويّة"**(٣٣)، وهو **"ما تعرف به صور الحروف المفردة، وأوضاعها، وكيفيّة تركيبها خطًا"**(٣٤)، وقال أبو دلف **"الخطّ رياض العلوم"**،(٣٥) وقال النظّام **"الخطّ أصيل في الرّوح وإن ظهر بحواسّ البدن"**(٣٦)، وقال أفلاطون **"الخطّ عقال العقل"**، وقال إقليدس **"هندسة روحانيّة وإن ظهرت بآلة جسمانيّة"**(٣٧)، وهو **"آلة جسمانيّة تضعف بالتّرك وتقوى بالإدمان"**(٣٨)، وهو **"ملكة تنضبط بها حركة الأنامل بالقلم على قواعد مخصوصة"**(٣٩). وأمّا كمال عبد جاسم الصّالح الجميلي فقد عرّف الخطّ قائلاً **"هو فنّ كتابة الحروف بقواعد خاصّة تزيدها وضوحا وجمالا وجذبًا"**(٤٠)، ومن العلماء من عدّ الخطّ أشرف العلوم منزلة وأعمّها نفعا بقوله **"وجميع العلوم تُعرف بالدّلالة عليها أو اللّفظ أو الخطّ فالإشارة تتوقّف على المشاهد، واللّفظ يتوقّف على حضور المخاطب والسّماع، أمّا الخطّ فلا يتوقّف على شيء من ذلك، فهو أعمّها نفعا وأشرفها"**(٤١). وممّا قالوا في الخطّ أيضًا القصيدة الّتي مدح بها المقنّع الكندي الوليد ابن اليزيد:

كالخـطّ فـي كُتُـب الغـلام أجاده
بمـداده، وأسـدّ مـن أقلامـه
قلـم كخرطـوم الحمامـة مائـل
مُسـتحفظ للعلـم مـن علاّمـه
يَسِـمَ الحـروف إذا يشـاء بناءهـا
لبيانهـا بالنّقـط مـن أرسـامه
مـن صُوفـة نَفَـث المداد سُخامه
حتّـى تغيّـر لونهـا بسُـخامه
يَخْفَـى(٤٢) **فيُقصـم من شـعيرة أنفه**
كقُلامـة الأظفـور مـن قلاّمـه
وبأنفـه شـقّ تـلاءم فلستوى
سُـقِي المـداد، فـزاد فـي تَلاَمِـه
مُسـتعجم وهـو الفصيـح بـكلّ ما
نطق اللّسـان بـه على اسـتعجامه.

والخطّ وسيلة تخاطب الحاضر والغائب ويُترجم إلـى كلّ اللّغات، ويبقى على مدى الأزمان، كما رُوي عن المأمون عندما وصف الخطّ بقوله **"لو فاخرتنا الملوك والأعاجم بأمثالها لفخرنا بما لدينا من أنواع الخطّ: يُقرأ بكلّ مكان ويُترجم إلى كلّ لسان ويُوجد في كلّ زمان"**(٤٣)، فالخطّ يأخذ أهميّة الكتابة ويفوقها؛ لأنّه بلاغتها وكمالها وجمالها، وهو الصّورة النّاصعة لها. وقالوا: **"بُنيت الكتابة**

على خمس: قوّة الأخماس، وحدة الألماس، وجودة القرطاس، ولمعان الأنفاس، وحبس الأنفاس"[٤٤]، وفي هذا الإطار يُفرّقا بن خلدون بين الخطّ والكتابة، وذلك لقوله: "**ودُرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخطّ والكتابة والعلم إلى مصر والقاهرة**"[٤٥]، كما قال في موطن آخر "**ولمّا احتاجت الدّولة إلى الكتابة استعملوا الخطّ وطلبوا صناعته**"[٤٦]، ولم يقل استعملوا بالعود على الكتابة وإنّما خصّ الخطّ بالاستعمال؛ لأنّه يلحقه في ما بعد بالإتقان فيسترسل "**فطلبوا صناعته وتعلّموه وتداولوه فرقّت فيه الإجادة**"[٤٧]، وهكذا يُفاضل ابن خلدون بين الخطّ والكتابة على الرّغم من اجتماع كلّ منهما لديه وهذا ما يبدو واضحًا من عنوان الفصل الثّلاثين "**الخطّ والكتابة من عداد الصّنائع الإنسانيّة**" من الباب الخامس "**في المعاش ووجوهه من الكسب والعلوم والصّنائع**" من المقدّمة.

٢) نشأة الخط العربي وتطوره عبر التاريخ:

ذهب علماء اللّغة والمؤرّخون أشواطًا بعيدة في البحث عن نشأة الخطّ والأبجديّة في العالم، فدرسوا أيّام الأمم القديمة وآثارهم ونقوشهم وأثبتوا بعد دقّة الاستقراء أنّ أوّل من اخترع الأبجديّة في العالم هم الفينيقيّون الكنعانيّون من نسل سام بن نوح عليه السّلام في عصر "حيرام" ملك بيبلوس سنة ١٣٠٠ ق م، ثمّ تبنّى اليونانيّون تلك الأبجديّة سنة ١٠٠٠-٨٠٠ ق م[٤٨]، وقد صارت أبجديّة الكنعانيين مصدرًا لكلّ الكتابات الأبجديّة العالميّة، فتأثّرت بها جميع اللّغات السّامية من آراميّة وسريانيّة وكلدانيّة وعبرانيّة وعربيّة، واللّغات اللاّتينيّة من يونانيّة وإيطاليّة وفرنسيّة وأسبانيّة وإنجليزيّة... وقد استخدم العرب كغيرهم من الأمم الكتابة في كلّ مجالات الحياة تقريبًا فسجّلوا أحداثهم اليوميّة[٤٩]، وكتبوا العهود والمواثيق وثبّتوا الأحلاف وخطّوا الرّسائل والصّكوك، وسند ملكيّة الرّقيق[٥٠]، ومن بين المدن والحواضر القديمة التي عرف أهلها الكتابة والقراءة في شبه الجزيرة العربية، المناذرة واللّخميين بالحيرة والغساسنة بتخوم الشّام، والقرشيّون بمكّة[٥١]، والأوس والخزرج واليهود بالمدينة[٥٢] وثقيف بالطّائف، وهذا بالإضافة إلى بعض مدن شمال الجزيرة كدومة الجندل.. فالكتاب عند المسلمين إذًا هو "الّذي يُؤدّي إلى النّاس كتب الدّين، وحساب الدّواوين مع خفّة نقله، وصغر حجمه"[٥٣].

ولعلّ عناية العرب في أيّام الجاهليّة بالمعلّقات والحرص على حفظها من الاندثار وتعليقها على جدران الكعبة خير دليل على أهميّة الخطّ ليس في تخليد ذكرى الشّعراء وقصائدهم فحسب، بل أيضًا في حفظ موروث فنّي يجمع بين المنقول والمنظور في أكثر بلاد الأرض قداسة، وفي هذا الإطار يذكر ابن خلدون في مقدّمته أنّ "**عن عبد الرحمن بن زيد بن أنعم المعافري عن أبيه زياد ابن أنعم قال: قلت لعبد الله بن عبّاس: معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهليّة بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع وتفرّقون فيه ما افترق هجاء بالألف واللاّم والميم والشّكل والقطع وما يكتب به اليوم قبل أن يبعث الله النبي ﷺ ؟ قال: نعم**"[٥٤].

ونستشفّ من هذا الشّاهد أنّ العرب كانوا في الجاهليّة وعلى الرّغم من اعتمادهم كثيرًا على الذّاكرة في تلقّي المعلومة ورسوخها وتمريرها من جيل إلى آخر، إلاّ أنّ ذلك لم يمنعهم البتّة من كتابة مآثرهم وتدوينها في كتب يجمعون فيها

ما اجتمعوا عليه ويفرّقون فيها ما افترقوا هجاء بالألف واللاّم والميم والشّكل والقطع.. فظهرت نظرًا لذلك أنواع كثيرة من الخطوط كانت شائعة في ذلك العصر مثل الخطّ التّدمري(٥٥)، والخطّ النّبطي(٥٦)، والخطّ السّرياني(٥٧)، المشتقّة جميعها من الخطّ الآرامي(٥٨)، فأمّا أهل الحجاز فمنهم من استعمل الخطّ السّرياني لفترات طويلة من الزّمن وبخاصّة اليهود منهم الّذين كانوا يُحسنون قراءة هذا الخطّ وكتابته، وقد "**حدثت أنّ قريشًا وجدوا في الرّكن كتابًا بالسّريانيّة فلم يدروا ما هو حتّى قرأه لهم رجل من يهود**"(٥٩)، وهذا ما أكّده أيضًا المسعودي في "**مروج الذّهب**"، وابن عبد ربّه في "**العقد الفريد**"(٦٠)، ومنهم من كتب بخطّ المسند الحميري وهو خطّ أهل اليمن وحافظ عليه إلى أيّام النبيّ ﷺ (٦١) تمامًا مثل عرب العراق الّذين آثروا الخطّ الحميري على بقيّة الخطوط(٦٢) لكثرة مبادلاتهم التجاريّة مع أهل اليمن ممّا يُسهّل المعاملات بينهم، كما عرف أهل الحجاز أيضًا الخطّ النّبطي لاتّصالهم الوثيق بالأنباط ببلاد الشّام، وقد دلّ القرآن عن ذلك صراحة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞﴾ [قريش: ١-٢]، كما أكّد ابن سعد أيضًا هذا القول لمّا ذكر أنّه كان من جملة أسواق يثرب سوق يُعرف بسوق النّبط(٦٣).

ومن هذا المنطلق اختلف النّاس في أوّل من وضع الخطّ العربي، وذهب المؤرّخون وعلماء اللّغة المستشرقون منهم والعرب أشواطًا بعيدة في محاولة تحديد الظّرفيّة التّاريخيّة الّتي شهدت بداية ظهور أولى معالم الحروف الأبجديّة العربيّة، وأشاروا إلى أنّ هناك أممًا كثيرة تنتمي إلى الشّعوب السّامية(٦٤) سكنت الجزيرة العربية وبلاد ما بين النّهرين، ومنهم الأكاديّون والآراميّون والبابليّون والفينيقيّون والكنعانيّون والعبرانيّون والعرب، وكان لهؤلاء جميعًا ثقافات متنوّعة وكتابات أكثر تنوّعًا اندرج أغلبها في سلسلة تطوّريّة استغرقت قرونًا عديدة فانقرض بعضها واستمرّ البعض الآخر، وأكّد العلماء أنّ هذا المجال الجغرافي الشّاسع قد عرف منذ أوائل القرن الرّابع قبل الميلاد ممالك عربيّة متحضّرة مثل ممالك الأنباط وتدمر كتبوا باللّغة الآراميّة الّتي خلفت البابليّة في مدوّنات السّياسة والتّجارة(٦٥).

كما تكشف العودة إلى بعض المصادر العربيّة القديمة الّتي تعود إلى القرن الرّابع الهجري (١٠م) بوضوح اضطراب الآراء وتباين الرّوايات بشكل يجعلنا أكثر حذرًا في التّعامل معها؛ حيث قال هشام الكلبي "**أوّل من صنع ذلك قوم من العرب العاربة نزلوا في عدنان بن أد وأسماؤهم: أبو جاد، هواز، حطي، كلمن، سعفص، قريسات. هذا من خط ابن الكوفي والأعراب وضعوا الكتاب على أسمائهم ثمّ وجدوا بعد ذلك حروفًا ليست من أسمائهم وهي الثاء والخاء والذال والظاء والشّين والغين فسمّوها الرّوادف، قال وهؤلاء ملوك مدين وكان مهلكهم يوم الظلّة في زمن شعيب النبيّ عليه السّلام**"(٦٦)، ورُوي عن كعب الأحبار قوله أنّ أوّل من وضع الكتابة العربية والفارسية وغيرهما هو آدم عليه السّلام قبل موته بثلاث مائة سنة، كتبها في طين ثمّ طبخه، فلمّا أصاب الأرض الطّوفان أيّام نوح بقي ذلك، ووجد كلّ قوم كتابهم فكتبوه، فأصاب إسماعيل عليه السّلام الكتاب العربي، وقد أنكر ابن النّديم هذا القول بشدّة وقال "**وأنا أبرأ إلى الله من قوله**"(٦٧). ورُوي عن ابن عبّاس قوله أنّ أوّل من كتب بالعربية "**ثلاثة رجال من**

بولان وهي قبيلة سكنوا الأنبار وأنّهم اجتمعوا فوضعوا حروفًا مقطعة وموصولة وهم مرامر بن مرّة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، ويُقال مروة وجدلة، فأمّا مرامر فوضع الصّور وأمّا أسلم ففصل ووصل، وأمّا عامر فوضع الأعجام، وسُئل أهل الحيرة ممّن أخذتم العربي؟ فقالوا من أهل الأنبار"[٦٨]. وذكر ابن النّديم في "الفهرست" أنّ الله عزّ وجلّ أنطق إسماعيل عليه السّلام بالعربية المبينة وهو ابن أربع وعشرين سنة، وقال محمّد بن اسحاق أنّ ما تقبله النّفس هو أنّ الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وأرم وحويل، وهؤلاء هم العروب العاربة[٦٩]، وروى مكحول الشّامي[٧٠] عن رجاله أنّ أوّل من وضع الكتاب العربي نفيس، ونضر، وتيما، ودومة، هؤلاء ولد إسماعيل وضعوه مفصّلاً وفرقه قادور بنت بن هميسع بن قادور وقال إنّ نفرًا من أهل الأنبار من إياد القديمة وضعوا حروف ألف، ب، ت، ث، وعنه أخذت العرب[٧١]، وجاء في كتاب "مكّة" لعمر بن شبّة **أنّ قومًا من علماء مضر قالوا الّذي كتب هذا العربي الجزم رجل من بني مخلّد بن النضر بن كنانة فكتبت حينئذ العرب وعن غيره الّذي حمل الكتابة إلى قريش بمكّة أبو قيس بن عبد مناف ابن زهرة وقد قيل حرب بن أميّة"**[٧٢].

وعلى هذا النّحو تتعدّد الرّوايات وتختلف المقاربات وتتباين فيما بينها وإنّ مُعظمها يفتقر إلى التّوثيق، ولكنّ الثّابت أنّ العرب قد عرفوا نوعين من الخطّ منذ الجاهليّة وقبل مجيء الإسلام وهما خطّ المسند المشتقّ من الخطّ الكنعاني وريث الهيروغليفيّة، وهو القديم الواسع الانتشار في جنوب الجزيرة العربيّة وبعض أنحائها الشماليّة، وكان قد زال من الاستخدام في الفترة القريبة من ظهور الإسلام، وقد تبنّى هذا الرّأي كثير من الباحثين المعاصرين منهم محمّد طاهر الكردي، وحفني ناصف، ثمّ الخطّ النّبطي الّذي كان معروفًا في الحجاز والمناطق الواقعة في شمال الجزيرة العربية وشمالها الشرقي، وقد استعمل في ما بعد في تدوين القرآن الكريم وفي كتابة العهود والمواثيق وكلّ شؤون الدّولة الإسلاميّة.

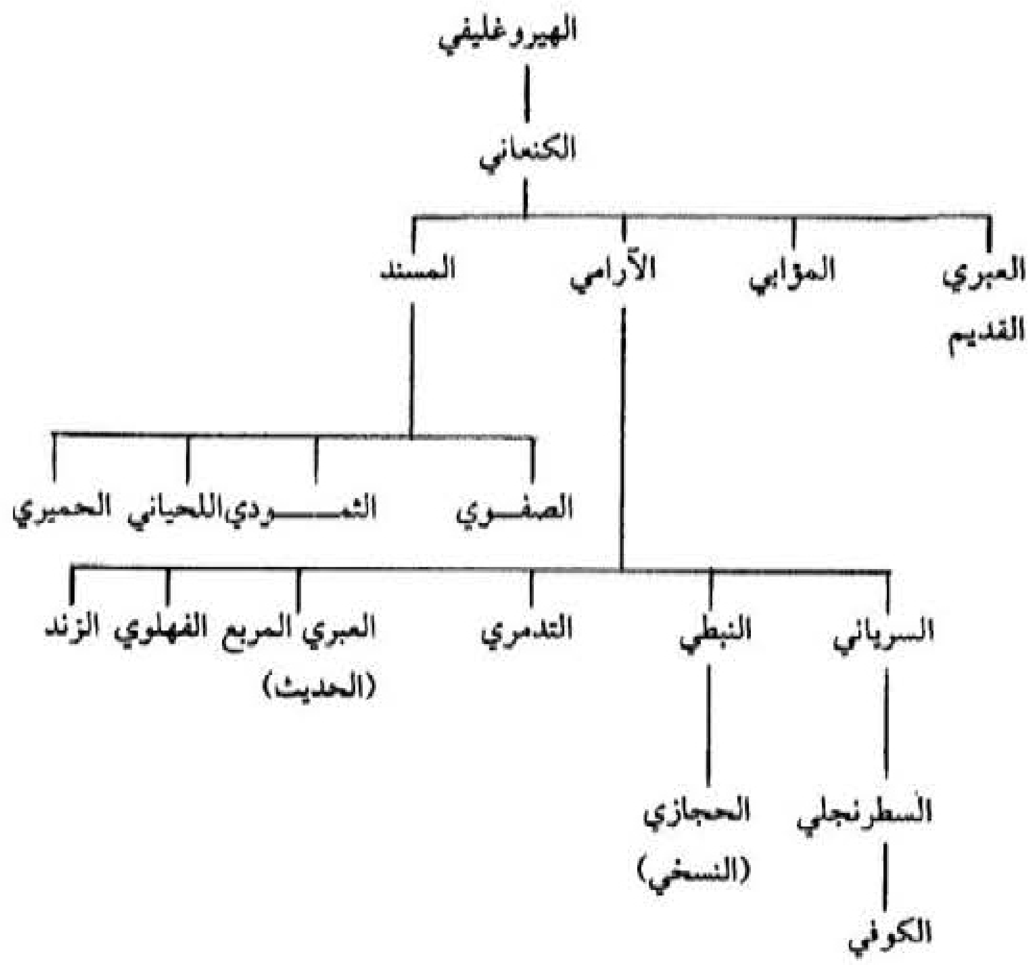
فأمّا خطّ المسند فهو خطّ مشتقّ من الأبجديات الشامية الشماليّة، السينائيّة، أو الفينقيّة، أو الكنعانيّة، وهو **"أقدم الأقلام الّتي عرفت في شبه جزيرة العرب حتّى الآن، ويبدو أنّه كان معروفا في كلّ شبه جزيرة العرب قبل الإسلام، وربّما كان القلم العام للعرب قبل المسيح**؛ أي **قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يظنّ بعد الميلاد، ومن ثمّ سمّاه بعض المحدثين بالقلم العربي الأوّل**، أو **القلم العربي القديم"**[٧٣]، وقد عرّف المؤرّخون واللّغويّون القدماء كلمة "المسند" وكان معناها واضحًا لديهم على نحو محدّد، فهذا ابن منظور يرى أنّ **"المسند خطّ لحمير مخالف لخطّنا هذا، كانوا يكتبونه أيام ملكهم"**[٧٤]، وهذا ابن خلدون يُعرّف المسند بأنّه كتابة حمير وأهل اليمن الأقدمين، وهو يخالف كتابة العرب المتأخّرين من مصر، **"وقد كان الخطّ العربي بالغًا مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التّبابعة لمّا بلغت من الحضارة والتّرف، وهو المسمّى الخطّ الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التّبابعة في العصبيّة والمجدّدين لملك العرب بأرض العراق، ولم يكن الخطّ عندهم من الإجادة كما كان عند التّبابعة لقصور**

ما بين الدّولتين، وكانت الحضارة وتوابعها من الصّنائع وغيرها قاصرة عن ذلك، ومن الحيرة لقّنه أهل الطّائف وقريش"(٧٥). وبيّن من هذين التّعريفين أنّ خطّ المسند يختلف عن كتابة العرب بعد الإسلام، كما أنّه ارتبط بحمير حتّى صار منسوبًا إليهم ومُعرَّفًا بهم، وهذا ما أكّده أيضًا صاحب "الفهرست" الّذي روى أنّ أحد الموثوقين بهم **"زعم أنّه سمع مشايخ من أهل اليمن يقولون أنّ حمير كانت تكتب بالمسند على خلاف أشكال ألف وباء وتاء"**(٧٦)، وكأنّ هذا الصّنف من الخطوط لم يُعرف إلاّ عن حمير وبحمير.

لذلك أقرّ علماء اللّغة بأسبقيّة الخطّ الحميري على بقيّة الخطوط والأبجديّات في شبه الجزيرة العربيّة، ونعني بذلك (النّبطي والسّرياني والحجازي والتّدمري وغيرهم) ولكن مع ذلك فهم يشدّدون أنّ اللّغة الحميريّة تختلف عن العربيّة العدنانيّة، وأنّ حروفها تختلف عن الأبجديّة العربيّة الكلاسكيّة الّتي ظهرت قبيل الإسلام، وخلاصة ما يقولون أنّ حروف الكتابة في الحميريّة والحبشيّة تكاد تكون واحدة من شدّة التّشابه(٧٧). في حين يرى القلقشندي أنّ خطّ المسند سمّي كذلك **"لأنّهم (العرب القدامى) كانوا يسندونه إلى هود عليه السّلام"**(٧٨)، وأمّا إسرائيل ولفنسون فبرّر هذه التّسمية معتبرًا أنّ الخطّ المسند يميل إلى رسم الحروف رسمًا دقيقًا مستقيمًا على هيئة الأعمدة، فالحروف عندهم على شكل العمارة الّتي تستند على أعمدة... في حين يرفض الدّكتور جواد علي هذا التّفسير بحجّة أنّ كلمة (مسند) في العربيّة الجنوبيّة تعني كلمة الخطّ أو الكتابة في لغة القرآن، وقد وردت في مواضع متعدّدة من الكتابات والنّقوش.. وهي بذلك لم تكن حكرًا عند اليمانيين على حمير أو غيرهم، ولكن قد يكون لحمير مساهمة فعّالة في وضع أو توضيح أو تطوير أسلوب كتابة الحروف أو بعضها، أو نشر هذا الخطّ بين العرب فنُسب إليهم على سبيل الاستدلال لا على سبيل التّعريف والتّحديد، أو أن يكون الحميريّون آخر من كتب بهذه الأبجديّة.

وفي هذا الإطار يتنزّل قول الدّكتور غانم قدوري الحمد: "وتسمية **(المسند) بخطّ حمير لا تدلّ إلاّ على أنّهم آخر من كتب به"**(٧٩). وهذا في تقديرنا القول الأقرب إلى الصّواب لا لشيء إلاّ؛ لأنّ المعينيّين ثمّ السبئيّين في اليمن كانوا أسبق من الحميريين في استخدام هذا الخطّ (المسند) وتوظيفه في مختلف مجالات الحياة، بل واستخدمت الخطّ المسند أيضًا أقوام عربيّة أخرى سكنت في أنحاء شبه الجزيرة الشماليّة، وتركت نقوشًا كثيرة مكتوبة بخطّ متحدّر من المسند، وأقدم هذه النّقوش هو اشتهر بين العلماء باسم النّقوش الثموديّة واللّحيانيّة والصفويّة، نسبة إلى قبائل ثمود ولحيان وهي قبائل عربيّة قديمة استوطنت شمالي الجزيرة العربية، أمّا الصفويّة باسمها مأخوذ من جبل الصّفاة الموجودة في بادية الشّام؛ حيث عثر على تلك النّقوش في المنطقة القريبة منه، وهذا ما يعني صراحة أنّ خطّ المسند ليس حكرًا على الحميري طالما أنّه يتألّف أو ينقسم بدوره إلى خمسة خطوط فرعيّة أخرى وهي الخطّ الصّفوي، والثّمودي، واللّحياني، والسّبئي، والمتّصل (شكل رقم ١+٢).





شكل (١): الخطوط المنبثقة عن خطّ المسند.

شكل (٢): مراحل نشأة وتطوّر الخطّ العربي في جزيرة العرب.

وأمّا فيما يتعلّق بالخطّ الحميري، فهو جزء أو نموذج من خطّ المسند العربي انتقل من اليمن إلى العراق، ثمّ من العراق إلى الطّائف ومكّة، وكان القحطانيّون اليمنيّون - وهم عرب الجنوب بشبه الجزيرة العربية- قد وضعوا الحروف الحميريّة فكتبوا بها كثيرًا حتّى شاع استعمالها في بلاد العرب أيّام ازدهار دولتهم. وممّا يستدلّ به على ذلك ما ذكره ابن خلدون في المقدّمة: **"وقد كان الخطّ العربي بالغًا مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التّبابعة لما بلغت من الحضارة والتّرف، وهو المسمّى الخطّ الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لمَا كان بها من دولة آل المنذر نسباء التّبابعة في العصبيّة والمجدّدين لملك العرب بأرض العراق، ولم يكن الخطّ عندهم من الإجادة كما كان عند التّبابعة لقصور ما بين الدّولتين، وكانت الحضارة وتوابعها من الصّنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطّائف وقريش"**(٨٠). ويتميّز خطّ المسند بالخصائص الآتية:

- خلوّه من أيّة علامة للحركات أو حروف المدّ.
- تتكوّن أبجديّته من تسع وعشرين حرفًا تمامًا كالأبجديّة العربيّة الشماليّة، مع زيادة حرف واحد ينطق بين السّين والشّين.
- تُكتب حروفه منفصلة مع تكرار الحرف المشدّد مرّتين غالبا، ويفصل بين الكلمة والأخرى خطّ عمودي.
- تبدأ الكتابة على غرار الكتابة العربية من اليمين نحو الشّمال (صورة رقم ١).

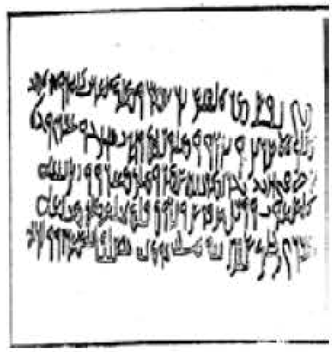




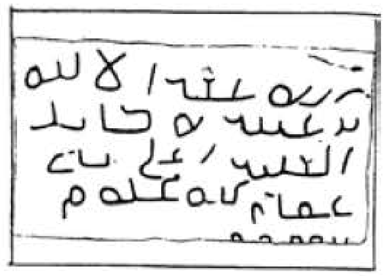


صورة رقم (١): نقوش مختلفة بخطّ المسند الحميري.

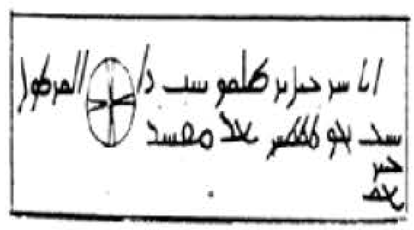
وأمّا الخطّ النّبطي فأخذه العرب من أبناء عمومتهم من الأنباط(٨١)، الّذين استخدموا الكتابة الآراميّة الّتي كانت سائدة في الشّام زمن قيام دولة الأنباط وكان لهذا الإستخدام للكتابة الآرامية إيذانا ببداية ظهور الخطّ العربي الشّمالي، فعلى أيديهم تطوّرت أشكال الحروف الآراميّة، ثمّ طوّر العرب أشكال بعض الحروف النّبطيّة وابتكروا أشكالاً مغايرة في محاولة لفصل الحروف ووصلها(٨٢)، (أشكال رقم ٣+٤+٥) وما أن بزغ فجر القرن السّادس للميلاد إلاّ وكان للعرب خطّ جديد أطلق عليه العلماء "الخطّ العربي" الّذي تطوّر بين حوران وشمال الحجاز(٨٣)، وهذا ما جعل العلماء يقتنعون بأنّ أصل الخطّ العربي من الخطّ النّبطي(٨٤).



شكل رقم (٣): نقش النمارة النّبطي والمؤرّخ سنة ٣٢٨م وهو عبارة عن شاهد قبر الملك العربي امرؤ القيس بن عمرو وربّما يكون بن عدي ابن نصر أحد ملوك الحيرة. (ابن حبيب، المحبر، مطبعة جمعيّة دائرة المعارف العثمانيّة الدكن، ١٩٤٠م، ص ٣٦٩).



شكل رقم (٤): نقش أمّ الجمال، سنة ٢٥٠م.



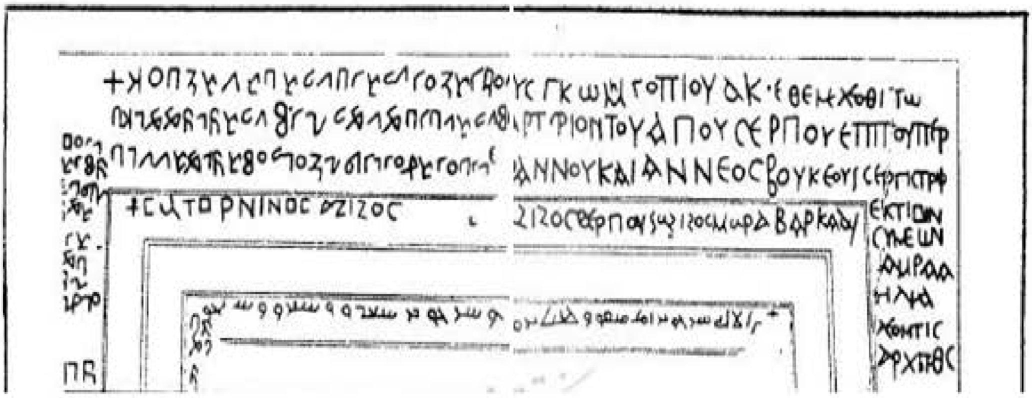
شكل (٥): نقش حران مؤرّخ سنة ٥٦٨ م.

وإنّ المتأمّل في عديد حروف الخطّ العربي يلاحظ أنّ لها شكل متميّز لا يتطابق مع النّقوش المتبقّية من الخطّ النّبطي كالألف والدّال والحاء والكاف والميم والسّين والشّين والرّاء والتّاء، كما حوّرت أشكال بعضها الآخر نحو التّبسيط كالواو والفاء والقاف، أمّا بقيّة الحروف كالجيم والطّاء واللّام والنّون والياء واللّام، فقد ظلّت نبطيّة واستمرّ استعمالها حتّى يومنا هذا (شكل رقم ٦). وذكر المؤرّخون أنّ الخطّ النّبطي جاء إلى مكّة والطّائف من العراق عن طريق التّجارة الّتي كان قريش يمارسونها مع سكّان تلك المدن، وجدير بالملاحظة أنّ الكتابة العربيّة الجاهليّة كانت خالية من الحركات والنّقط (التّشكيل والتّنقيط).[٨٥]



شكل (٦): تطابق بعض حروف الخطّ العربي مع حروف الخطّ النّبطي.

وقد أفادنا المستشرق وعالم اللّغة الألماني الأستاذ "جيرارد أندرس" (Girrard Anders) في هذا الإطار علمًا بأنّه من الممكن أن يرجع تاريخ الخطّ العربي - مع افتراض الأصل النّبطي- إلى منتصف القرن الرّابع بعد الميلاد؛ حيث يقول **"ويمكن أن نؤكّد باختصار أنّ الخطّ العربي نشأ بعد منتصف القرن الرّابع بعد الميلاد وقبل سنة ٥١٢م [تاريخ نقش زبد** (شكل رقم ٧)**] وأنّه كان معروفًا في الحجاز وفي الحيرة حوالي منتصف القرن السّادس. ووجدت رسوم الحروف الأساسيّة للخطّ العربي كاملة بذلك الشّكل الأقدم لها ثمّ استمرّت في التطوّر من جهة حسن الخطّ في الزّمن الآتي وميزت بينها علامات مميّزة غير أنّها لم تتغيّر بعد تغيّرا جوهريًّا"**[٨٦].



شكل رقم (٧): نقش زبد مؤرّخ سنة ٥١٢ ميلادي.

ومن هنا نستنتج أنّ العرب القاطنين بشمال الجزيرة العربيّة كانوا يكتبون ما يريدون تدوينه بالأحرف الآراميّة في بداية أمرهم ثمّ اشتقّوا أبجديتهم النبطيّة من الآراميّة، ومن أهمّ خصائص الخطّ النّبطي نذكر أربعة منها:

أولاً: خلوّه من التّنقيط والتّشكيل، ولم تكن للحركات علامات خاصّة بها، إذ يشترك أكثر من حرف برمز كتابي واحد، فيما يُحدّد السّياق الحرف المقصود.

ثانيًا: تُحذف في الكتابة النّبطيّة الألف المتوسّطة الّتي ترمز إلى المدّ الصّوتي، وكذا الياء والواو في بعض الحالات، وهو ما حافظت عليه الكتابة العربية إلى اليوم؛ حيث يُنطق المدّ وتُحذف الألف الّتي تُرمز إليه لتُكتب الكلمة على النّحو الآتي (لكن، هذا..).

ثالثًا: تُرسم تاء التّأنيث في آخر بعض الكلمات الّتي تتمّ بالهاء، بالتّاء المفتوحة مثل كلمة "قريت" (قريةٌ).

رابعًا: زيادة واو في آخر أسماء الأعلام، واستمرّ ذلك في اللّغة العربيّة مع بعض الأسماء مثل إسم "عمرو".

٢) إرساء قواعد الخطّ العربي وظهور الأقلام وتفرّعها:

سعى المُسلمون عُمومًا إلى حفظ ونشر وإتقان القُرآن الكريم بوصفه كلام الله تعالى كُلّ على طريقته، فأمّا القُرّاء فتنافسوا في تجويده مُحقّقين بذلك جمالاً صوتيًا، وأمّا الخطّاطون فخاطبهم علي بن أبي طالب **"جـوّدوا كتاباتكم فإنّها تزيد الحقّ سطوع البرهان"**، ومنذ تلك اللّحظة أصبح تجويد الخطّ العربي مطلب كُلّ خطّاط مُسلم، ومع تنامي وعي الخطّاطين بالإمكانات الجماليّة للخطّ العربي وقابليّة توظيفه في زخرفة الجدران والكتب إضافة إلى وظيفته التّقليديّة المُتمثّلة في الكتابة والبيان والتّبليغ، أبدعوا في تكوين تشكيلات زخرفيّة في قمّة مراتب الجمال والرّوعة وبخاصّة في العهد العبّاسي، فبلغت حوالي مائة نوع أو يزيد تفور بالحياة والجمال. وقد شهدت تركيبة الخطّ العربي إدماجًا لعدّة عناصر أخرى لا تنتمي إلى عالم الكتابة والحروف، لكن استطاع الخطّاط المُسلم أن يجمع بينها على نفس المحمل، فانسجم الخطّ مع الزّخارف النباتيّة والهندسيّة إمّا بأسلوبه الصّارم أحيانًا

والّذي يعتمد على هندسة المساحات والحروف (الخطّ الكوفي)، وإمّا بأسلوبه اللّين الّذي يجعل الخطوط اللّيّنة مُلتفّة ومُنبسطة في كُلّ الاتجاهات ضمن تركيبات خطّيّة تُظهر دومًا متانة التّكوين والتّوزيع المُتوازن للمساحات نتيجة التطوّر الّذي عرفه علم الهندسة في ظلّ الحضارة الإسلاميّة.

واكتسب الخطّ العربي بوصفه علامة بصريّة مكتوبة، جماليّة أصبحت تُضاهي جماليّة العلامة الصوتيّة المسموعة وبخاصّة أنّه لم **"يُعارض التصوّر الدّيني المُتعلّق بمسألة الخلق الفنّي، فوجد فيه المُسلمون مُتنفّسا لهم يكتشفون به قُدرتهم على الزّخرف والتزويق"**(٨٧)، فانصرف المصوّر المسلم نحو التّصوير الرّمزي وانصرف الخطّاط المُسلم نحو البحث عن عوالم جديدة يتجاوز من خلالها إطار المنع الشّرعي من ناحية، والماضي التّصويري للحضارات الأخرى من ناحية ثانية عبر بلورة حضور الخطّ العربي على كامل الموادّ والخامات وفي كافّة المجالات الحياتيّة. كما كان للنّهضة العلميّة الإسلاميّة أساسًا علم الرّياضيات والهندسة تأثير كبير في ازدهار فنّ الخطّ العربي والفنون الإسلاميّة عموما؛ حيث وقع ترجمة النظريّات الهندسيّة والرياضيّة إلى علامات بصريّة تجلّت أساسًا من خلال الفنّ المعماري الّذي أصبح بدوره شاهدًا على تطوّر الهندسة العمليّة في ظلّ الحضارة الإسلاميّة.

وقد استفادت الزّخارف من علم الهندسة أيّما استفادة، إذ تحوّلت من طور التّسطيح والبساطة إلى التّعقيد والعمق، وتماشت في هذا الإطار وتكاملت مع الخطّ العربي لتوافق حروفه بما فيها من انبساط واستقامة وتعريق... مع أهمّ قواعدها الأساسيّة، ألا وهي قابليّته للتّجريد؛ حيث يسهل الوصل بين مدوده بين أطراف الخطوط والتّسويقات المُتنامية، فيتحوّل هو الآخر إلى خطوط هندسيّة ثريّة على مُستوى الشّكل تفيض بالمعاني والدّلالات، ويُجسّد هذا الإتّحاد التقاء المكتوب المُقدّس بالمُزخرف أي إلتقاء الدّيني بالدّنيوي. وينقسم الخطّ العربي إلى قسمين: الخطّ اليابس والخطّ اللّين، فأمّا فاليابس فهو الخطّ الكوفي الّذي اقتبسه الكوفيّون من الخطوط القديمة المستخدمة في العصر الجاهلي وحتّى العصر الأموي. وأمّا اللّين فهو أنواع: وأبرزها النّسخ والثّلث والفارسي والدّيواني والرّقعة والخطّ المغربي. وقد تفنّن الخطّاطون في اشتقاقها في الأقطار الّتي فتحها المسلمون، فالنّسخ والثّلث ظهرا في العراق وظهر الخطّ الفارسي فى إيران والهند، والرّقعة والدّيواني فى تركيا والخطّ المغربي فى شمال أفريقيا والأندلس. وفيما يأتي نماذج من هذه الخطوط عبر العصور:

١- **الخطّ الكوفي**: نسبة إلى الكوفة، وذكر القلقشندي نقلاً عن الشّاطبي أنّه يرجع إلى أصلين وهما التّقوير والبسط؛ أي اللّيّن والمزوي، وجاء في "علم الكتابة" للتّوحيدي أنّ قواعد الخطّ الكوفي في زمنه اثنتا عشرة قاعدة: **"الإسماعيلي والمكّي، والمدني والأندلسي، والشّامي والعراقي، والعبّاسي والبغدادي، والمُشعّب والرّيحاني، والمُجرّد والمصري"**(٨٨). وكلّ هذه التّسميات إقليميّة ليس بينها فروق وخصائص.



صورة (٢): مصحف بكتابة كوفيّة قديمة مكتوب على رقاق الجلد (٣هـ/٩م).



صورة (٣): صفحة من مصحف إيران ٤٨٤هـ/١٠٩٢م، بلكوفي المشرقي بخطّ عثمان ابن الحسين الوراق الغزنوي، مكتبة طوب قابي باسطنبول.

٢- **الخطّ الفارسي:** ظهر ببلاد فارس بعد الفتح الإسلامي: ويتميّز بالرّشاقة في حروفه فتبدو وكأنّها تنحدر في اتّجاه واحد، وتزيد من جماله الخطوط الليّنة والمدوّرة فيه؛ لأنها أكثر مرونة لاسيما إذا رسُمت بدقّة وأناقة وحسن توزيع، وقد يربط الخطّاط بين حروف الكلمة الواحدة والكلمتين ليصل إلى تأليف إطار أو خطوط منحنية وملتفّة يُظهر فيها عبقريّته في الخيال والإبداع.





صورة رقم (٤): نماذج من الخطّ الفارسي.

٢- **خطّ الرّقعة:** نشأ هذا الخطّ في عهد السّلطان محمّد الفاتح، وهو يجمع بين حروف خطّ النّسخ والدّيواني الدّقيق القديم، وربّما كانت تسميته بالرّقعة نسبة إلى قلم الرّقعة الّذي كان يكتب به هذا النّوع من الخطوط.



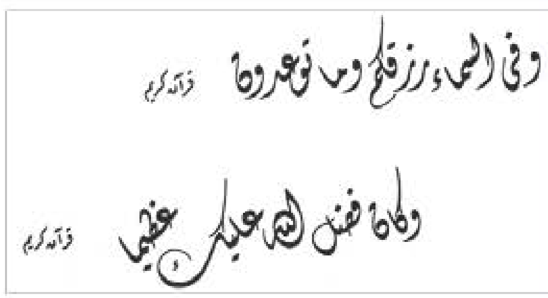
شكل رقم (٨):
بعض الخصائص الجماليّة لخطّ الرّقعة.

٣ـ **خط النّسخ:** وسمّي بالنّسخ؛ لأنّ الكتّاب كانوا ينسخون به المؤلّفات، وقد نشأ بالشّام:



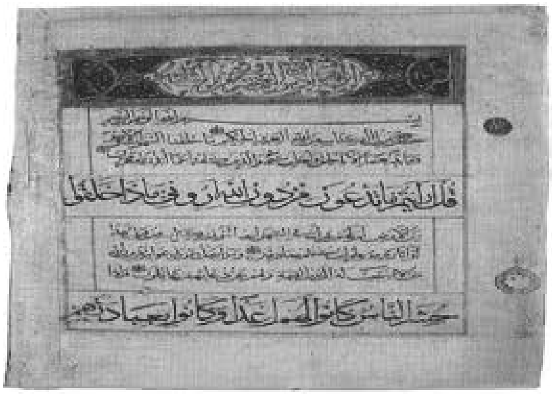
صورة رقم (٥): مصحف مزخرف ومذهب بخطّ النّسخ (٩٨٢هـ) للخطّاط الفارسي محمّد ابن مطهر (تقي الدّين)، محفوظ في مكتبة تشستر بيتي برقم ١٥٣٤.

٤ـ **الخطّ الدّيواني:** وهو الخطّ الّذي يختصّ بالكتابات الرسميّة في ديوان الدّولة العثمانيّة.



صورة رقم (٦): نماذج من الخطّ الدّيواني.

٤ـ **خطّ الثلث:** من الخطوط الصّعبة إذ لا يعد الخطّاط خطّاطًا إلّا إذا أتقنه، ويُعد عنه بأمّ الخطوط وسمّي بذلك؛ لأنّ قلم الطّومار وهو أجلّ الأقلام مساحة، عرضه أربع وعشرون شعره، وقلم الثّلث منه بمقدار ثلثه وهو ثماني شعرات، ويستعمل لكتابة أسماء الكتب المؤلّفة، وأوائل سور القرآن الكريم، والحرف فيه يميل إلى التّقوير والاستدارة:



صورة رقم (٧): مصحف مذهّب بخطّ الثّلث (٨٦٤هـ) للخطّاط عبد الله الطباخ الهروي، محفوظ في مكتبة تشستر بيتي برقم ١٤٩٩.

٥ـ **الخطّ المغربي:** هو سليل الخطّ الكوفي الدّيني اليابس المنقّط الّذي ظهر في مبدأ أمره في القيروان في أواخر العصر الأموي ثمّ انتشر في أرجاء شمال أفريقيا والأندلس وغرب أفريقيا.



صورة (٨): صفحة قرآنيّة بالخطّ المغربي من الأندلس ٩هـ/١٤م.



صورة (٩):
مصحف مذهّب بالخطّ المغربي المضبوط.

للخطّاط المصري محمّد بن أحمد جموع (١٠٤٤هــ)، محفوظ بالمكتبة المركزيّة للمخطوطات الإسلاميّة بالقاهرة

٦- **الخطّ الحديث**: هو مجموع الخطوط الّتي اشتقّها الخطّاطون والمهتمّون بالفنون التّشكيليّة واستعملوها فى تكوين لوحاتهم الفنيّة وفي عناوين الكتب والصّحف والمجلّات والإعلانات:



صورة رقم (١٠): مثال من الخطّ الحديث.

وعلى هذا النّحو تحوّل الخطّ من مُجرّد كتابة لغرض التّبليغ، إلى علامات وتصاوير تُشكّل مع بعضها بنية ثقافيّة أكثر قابليّة لتحقيق التّواصل بالنّظر إلى الاختلاف الجذري بين الشّعوب في تلك الآونة، فظلّ الخطّاط المُسلم يبحث عن طرق وأساليب جديدة للتّعامل مع الحروف حتّى يحفظ مخطوطاته ويُزيّنها ويجلب القُرّاء إليها من ناحية، ويُحقّق التّكامل بين شكل العمل الفنّي ومضمونه من ناحية ثانية، فنادرا ما يتمعّن القارئ في الكتابة بالقدر الّذي يتفحّص فيه المعنى؛ لأنّ الكتابة في نظر العديد عبارة عن سفينة تحمل أثقالاً؛ أي وسيلة تقليديّة لتبليغ الأفكار وليست غاية في حدّ ذاتها، كما أنّ المراحل الّتي سبقت الحضارة الإسلاميّة لم تشهد عناية كبيرة بالكتابة وبالخطوط على النّحو الّذي نراه لدى الخطّاطين المُسلمين، فالخطّ تحوّل معهم إلى منظومة تشكيليّة ذات جماليّة انبنت مفهوميًّا وتقنيًّا على التّجريد والاستطراد، ممّا يمنح الخطّاط الحريّة اللّازمة للتّشكيل والتفنّن في استخدام الخطوط بأصنافها على أنواع عديدة من الخامات كالمعادن والرّخام والجصّ والزّجاج والخزف...



صورة (١١): نموذج من الخطّ الكوفي على عاجيّة على صحن خزفي مطلي بطلاء

متحف اللّوفر بباريس.



صورة (١٢): نموذج من الخطّ الكوفي علبة من الأندلس (٣٥٧هـ/٩٦٨م) الفخّار من خراسان (٤٦،٨سم)، معرض فريير للفنون واشنطن.

وقد وضع المُتصوّفة أسسًا فلسفيّة جعلت طريقة التّعبير بواسطة الحرف تتطلّب من العمل الفنّي طابعًا تأمليًّا أكثر منه بصريًّا، فللحرف من منظور صوفي معاني فلسفيّة وروحيّة تتجاوز المعنى المُتداول لتمنحه دلالات وجوديّة، فالوجود حسب ابن عربي **"كلمات الله المسطورة في الآفاق، والقُرآن كلمات الله المسطورة في المُصحف"**(٨٩)، فإن كان الكون يُمثّل كلمات الله تعالى في الآفاق، فإنّ اللّغة إذا بوصفها مجموعة من الرّموز والعلامات، هي بمثابة التجلّي الوجودي للحقيقة الإلهيّة الأزليّة والسرمديّة في الكون، ويكون نظام ترتيب الحروف في الوجود بمثابة نظام ترتيب الموجودات؛ لذلك فإنّ المسعى لفهم كنه الحروف وفكّ "شفراتها" وسبر أغوارها، هو في الواقع سبيل لفهم الحقيقة الوجوديّة وإدراك أسرار نشأة الكون، وهذا تقريبًا ما عبّر عنه عبد الكبير الخطيبي في مُحاولة تفسيره للنظريّة الصوفيّة المُتعلّقة بأصل الكتابة العربيّة قائلاً "إنّ الحروف العربيّة الثّمانية والعشرين هي التّجسيد الإلهي في جسم الإنسان، ومن ثمّ فإنّ الحرف الخطّي ككُلّ أثر إلهي يكتسح كُلّ الفنون التزينيّة الإسلاميّة، وينحت المكان مُتأمّرًا بلا هوادة ضدّ الفراغ، باتّخاذه مسكنًا داخل مُطلق هذا الدّاخل المُطلق"(٩٠).

٤) القيم الجمالية لفن الخط العربي:

يُعدّ الخطّ العربي أكثر الخطوط تنوّعًا ومرونة وجماليّة وقابليّة للتطوّر والتّأقلم مع جميع الفضاءات وعلى كلّ الخامات تقريبًا (رخام، حجارة، خزف، عاج، ذهب، فضّة، قماش، ورق..)، ولئن اقتصر هذا الفنّ في اللّحظات الأولى على تلك التّنويعات الّتي تجمع بين الخطّ والزّخرفة، إلاّ أنّه سرعان ما اندمج مع الرّسوم المنمنمة الّتي تحتوي على مخلوقات حيّة وبشريّة في الكتب المختلفة، على سبيل الشّرح والتّوضيح، أو لوحات مرافقة للقصص والمقامات(٩١)، فكان الخطّ مرافقًا ومكمّلاً لها، إلاّ أنّ هذا الإحساس بالقيمة الفنيّة والجماليّة للخطّ العربي قد ازداد عندما اقتحم الحرف عالم الفنون التّشكيليّة ليصير عنصرًا تشكيليًّا مؤثّثًا للّوحة المسنديّة أو غيرها، فصار مفردة أو عنصرًا تشكيليًّا أساسيًّا أكسب العمل الفنّي قيما جماليّة، رمزيّة وتأمّليّة، وأبعادًا روحيّة وحضاريّة، تتخطّى الرّؤية البصريّة ولا تتوقّف عندها، وقد نجح الفنّان المسلم في استنباط أسلوب تشكيلي فريد من نوعه يعتمد بالأساس

على توظيف الحروف العربيّة كعناصر تشكيليّة مستقلّة بذاتها، تتفاعل مع بقيّة العناصر داخل الفضاء ولكن لا تضمحلّ أو تفقد دورها أو تُفرغ من قيمتها الجماليّة.

فهناك أعمال ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالقيمة التّشكيليّة للحرف وأثره في عين المشاهد، فسعى أصحابها إلى إدخال الحرف في السّياق العام للّوحة ليُصبح جزءًا من العمل الفنّي ومن علاماته البارزة(٨٤)، مثل شاكر حسن آل سعيد ورافع النّاصري وضياء عزّاوي غيرهم (صور رقم ١٣+١٤+١٥)، وهناك أعمال أخرى جاء فيها الحرف مقروءًا محافظًا على دلالاته اللغويّة، فاكتسب بذلك قيمة بصريّة تشكيليّة داخل الفضاء التّصويري، فكان الشّكل والمضمون هنا متلازمين.





صورة رقم (١٣): بعض أعمال حسن شاكر آل سعيد.

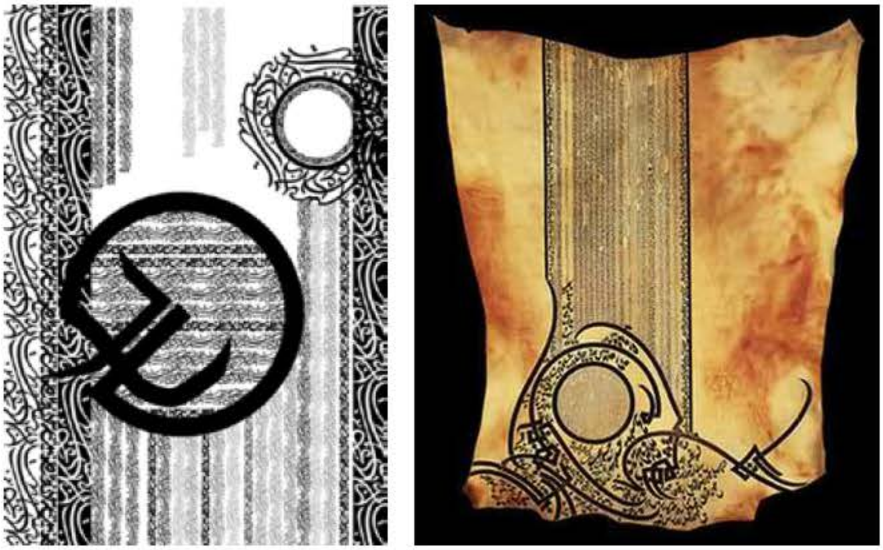


صورة رقم (١٤)
أحد أعمال رافع النّاصري.



صورة رقم (١٥):
لوحة خطيّة للفنّان العراقي ضياء عزّاوي.

وفي مقابل ذلك لم يعر بعض الفنّانين أيّ اهتمام بالأثر البصري للكتابة ولا بدلالاتها اللغويّة؛ أي أن تتحوّل الحروف المتلاصقة والمتباعدة والمتنوّعة من حيث الحجم والنّسب والوجهة، إلى نسيج خطّي يملأ مساحة اللّوحة كلّها دون أن يكون هناك نصّ مقروء، مثل أعمال نجا المهداوي مثلاً (صورة رقم ١٦) الّتي ظلّت تلبّي رغم تفريطها في القيمة اللّغويّة للنصّ شعورًا بضرورة تعميق الرّوابط بالمعالم التراثيّة؛ حيث تعتمد هذه الأعمال جماليًّا على بعض القواعد الّتي تنطلق من علاقات التّناسب التي تُؤسّسها جملة من الحروف اللّامقروءة المنتشرة بكثافة على المحمل جنبًا إلى جنب مع بعض العناصر التّشكيليّة كالنّقطة والدّائرة والمربّع.. فيجعل ذلك من الحروف أكثر طواعيّة وانسجامًا مع الفضاء، قابلة لاكتساب خصوصيّات هندسيّة عدّة تُضفي طابعًا حركيًّا من خلال حركات المدّ والرّجع والتّشابك والتّداخل...وهو ما ولّد تقاليد وتقنيّات جديدة في التّعامل مع هذا النّوع من الفنون، ففي "اجتماع الحروف والكلمات واتّصالها، وانفصالها، وانتظامها على حواملها، واحترام مقاديرها على البياضات الّتي بينها وتناسب الشّكل والنّقط فيها مادّة فنيّة أوّليّة لتشكيل عوالم جماليّة"(٩٢) تعمد إلى تحويل دلالة النصّ الأدبي إلى علامات بصريّة يزول فيها التّعارض بين الشّكل والمحتوى وبين الدّال والمدلول، إنّها تنتظم لوحًا آخر للقراءة، منفصمًا بين الكتابة والحريّة الخطيّة والتّشكيل إلى درجة "يكفّ معها مسار الخطّ عن أن يكون هدفًا في ذاته؛ لأنّه إيقاع وحجم معًا، والحركة الأولى لصورة آتية لا ريب فيها، إن آجلاً أو عاجلاً، هي العلامة، فمن خلال العلامة ينكشف الإنسان للاّمنتهى رغبته.."(٩٣) إنّها سطوة رائعة لفنّ الخطّ على مستويين كما أشار إلى ذلك فرانسوا شانغ (Schang)، فهو من جهة يقوم بتحويل اللّغة إلى فضاء ذي حريّة شعريّة، وهو من جهة ثانية وفي الآن نفسه يقوم بإعادة تأليف الفضاء المجرّد لتحويله إلى أشكال زخرفيّة فيغيّر من مشهديّته ومن سجلّه البصري، إنه يغدو متعلّقًا بالآتيف التّصويري نفسه.



صورة (١٦): بعض أعمال نجا المهداوي.

وهكذا نصل في آخر هذا العنصر إلى القول بأنّ الفنّان العربي المعاصر قد أبدى عناية كبيرة بالجانب التّشكيلي البحت للعمل الفنّي المفعم بالرّمزيّة والتّعبيريّة المستوحاة في جانب منها من الواقع الفنّي الغربي وفي جانب آخر من الواقع العربي المعاش الّذي لازال يتأرجح بين الماضي والحاضر، إلاّ أنّ ذلك لا يعني أنّه قد تخلّى عن الجانب الباطني أو الرّوحي للحرف العربي، فهو على وعي تامّ بحسّه الفنّي المرهف أنّ مكوّنات الحروف العربيّة الصّارمة في بنائها الهندسي وقدرتها على التكيّف مع كلّ الفضاءات والخامات، وليونتها في تشكّلها البنائي البسيط أو المعقّد، تستطيع أن تتضمّن معنى باطنيًّا يسمو على معناه اللّغوي والتّشكيلي في الآن نفسه، طالما أنّ الهدف كان دائمًا هو التّعبير عن حالة لا مرئيّة مطبوعة بداخل النّفس العربية من جهة، ومؤكّدة ومثبتة من خلال العامل الدّيني من جهة ثانية، وهي تتزاوج بوضوح بين المرئي بدلالته اللغويّة واللاّمرئي بدلالته الفنيّة والجماليّة، فعندها يتحقّق التّكامل بين شكل العمل الفنّي ومضمونه، وكما قال القلقشندي "مادّة اللّفظ طبيعيّة ومادّة الخطّ صناعيّة، وأنّه ثمّة توافقًا بين العلامة المُصوّرة المرئيّة، وبين اللّفظ المسموع"[٩٤].

ومن هنا يخرج الخطّ مع المسلمين من إطاره الوظيفي المحض ليكتسب بعدًا جماليًّا ينتشله من الجمود والجفاف ليلج به عالمًا جديدًا ملؤه الأشكال والألوان، فيه تتحوّل الكتابة إلى عنصر تشكيلي ويندمج الشّكل بالمضمون ليُعبّرا بوضوح عن قدرة الفنّان المسلم على صنع الجمال وأداء المعنى في كلّ عصر، وبذلك أصبح الخطّ العربي قاسمًا مشتركًا لكلّ الفنون الإسلاميّة الّتي أعارها طابَعهُ الجمالي القائم على التّناسب بين الخطّ والنّقطة والزّخرفة بمُختلف أشكالها، وتحوّلت كتابة الخطّ العربي إلى آثار فنيّة منحت "للمكتوب قداسة تكاد تُضاهي قداسة الصّوتي، إذ القُرآن نزل خطابًا مسموعًا وظلّ إلى حدود فترة الخلفاء الرّاشدين يُتلى فحسب أو يُلقّى شفويًّا، لكن لمّا ظهرت الحاجة إلى تدوينه أخذت الكتابة تكتسب أهميّة كُبرى ذات طبيعة مُزدوجة فهي من ناحية سجلّ النصّ القُرآني ومحمله، وهي من جهة أخرى مجال للفنّ والمُمارسة الجماليّة"[٩٥].

الخاتمة:

اكتسب الخطّ في الفنون الإسلاميّة على اختلافها قيمًا تشكيليّة ملازمة لما يتضمّنه من دلالات خاصّة وموضوعيّة، فهو على ارتباط وثيق بجميع أصناف العمائر والفنون التّطبيقيّة على حدّ سواء، ويدخل في نطاق الرّسم والتّصوير ويشترك مع الأنماط الزّخرفيّة (الهندسيّة والنباتيّة)، فيكتسب في مختلف الحالات قيما تشكيليّة امتازت بها الفنون الإسلاميّة دون غيرها، ذلك أنّ للخطّ العربي إضافة إلى قيمته الدّينيّة، خصائص تشكيليّة مميّزة وظّفها أسلافنا في جميع الفضاءات والصّروح وعلى جميع الخامات ممّا جعله يتخطّى في حالات كثيرة وظيفته الاتّصاليّة ليتحوّل إلى أشكال ذات قيم بصريّة ثريّة من حيث الشّكل والمضمون. وعلى الرّغم من أنّ الخطّ العربي قد اكتسب مع العرب – بعد نزول القرآن باللّغة العربيّة- قيمة أنطولوجيّة وكسمولوجيّة لمّا أقام وصلاً لعلاقة بين "اللّوح المحفوظ" والوجود، بين الكلمات والكائنات، بين الخطّ بوصفه فعلا تدوينيًّا والرّسم بوصفه تعيينًا للمحسوسات والأشكال على حدّ تعبير منصف عبد الحقّ.

وعلى الرّغم من أنّ العرب الأول قد برعوا

الرّياسيّين. والمراد بهذا الحديث هو إظهار أسنان السّين الثّلاثة ووضوحها وضوحًا تامًّا وانفصالها عن سنّة الياء حتّى لا يحصل هناك لبس، فلو نقصت من الكلمة سنّة واحدة أو لم تظهر أسنان السّين الثّلاثة لتغيّر لفظ الكلمة ومعناها، لذلك لا نجد في الخطّ الكوفي سينًا بغير أسنان في جميع قواعده والسّين مطموس عليه بالضّرورة. أمّا ما اصطلحوا عليه في نحو خطّ الرّقعة والفارسي والدّيواني من عدم وضع أسنان للسّين أحيانًا فلا بأس من اتّباع هذه القاعدة ما دامت معروفة لدى النّاس جميعًا. محمّد طاهر ابن عبد القادر الكردي المكّي الخطّاط، تاريخ الخطّ العربي وآدابه، نفسه، ص ١١.

(١٤) أخرجه القاضي عياض في الشّفاء عن ابن أبي سفيان، وأخرجه الدّيلمي في مسند الفردوس. وأمّا المراد بـ"ألق الدواة" أي اجعل نحو حرير أو صوف في المداد، لأنّ ذلك يمنع من اصطدام رأس القلم بقعر الدواة فيحفظ من الكسر والتّحريف من ناحية، ولا يرفع القلم بسبب وجود الليقة حبرًا كثيرًا من ناحية ثانية وفي هذا من سهولة الكتابة وتحسينها ونظافتها ممّا لا يخفى. وقوله "وحرف القلم" أي اجعل قطّه منحرفة سواء كان كثيرًا أو قليلاً بحسب قاعدة كلّ خطّ، لأنّ ذلك يُساعد في تحسين الخطّ ولذا قيل "إن أتقنت قلمك أتقنت خطّك وإن أهملت قلمك أهملت خطّك". وقوله "انصب الباء" أي اجعل الباء منصوبة مرفوعة عن أسنان السّين لئلاّ تلتبس بها. وقوله "ولا تعور الميم" فالمراد عدم طمسها ففي طمسها تشويه لنفس الحرف كما هو ظاهر، لذلك لن نجد في الخطّ الكوفي بجميع أنواعه حرف الميم مطموسًا (من المعلوم أنّ العرب في ذلك العهد ما كانوا يعرفون سوى الكوفي)، وقوله "وحسّن الله ومدّ الرّحمن وجوّد الرّحيم" فالمراد إجادة كتابة القرآن الكريم وتحسين الخطّ والإعتناء بذلك تعظيمًا لله عزّ وجلّ تصديقًا للآية الكريمة ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾. الكردي المكّي الخطّاط، تاريخ الخطّ العربي وآدابه، ص ١٢-١٣.

(١٥) الهوريني (أبو الوفا نصر الوفائي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، المطالع النصريّة للمطابع المصريّة في الأصول الخطّيّة، تحقيق عبد الوهّاب محمود الكحلة، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠١م/ بن قتيبة الدّينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، "كتاب أدب الكاتب"، تحقيق محمّد الدّالي، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٢م/ ابن درستويه (أبو محمّد عبد الله بن جعفر، ت ٣٤٧هـ)، كتاب الهجاء، تحقيق ابراهيم السّامرّائي وعبد الحسين الفتلي، دار الكتب الثقافيّة، الكويت، ١٩٧٧م/ ابن الحاجب (جمال الدّين أبي عمرو عثمان بن عمر، ت ٦٨٦هـ)، متن الشافية، مجموع مهمات المتون، ط، ٤، ١٩٤٩م/ القلقشندي (أحمد بن علي بن أبي اليمن، (ت: ٨٢٥هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسّسة المصريّة العامّة، نسخة مصوّرة عن الطّبعة الأميريّة، مصر، د.ت...

(16) Abdul Kabir Khatibi and Mohammad Sejelmasi, The Splendour of Islamic Calligraphy ,Thomas and Hudson: London, 1976, 20.

(١٧) سهيلة ياسين الجبوري، الخطّ العربي وتطوّره في العصور العباسيّة، مكتبة الظهراء، بغداد، ١٩٥٨م، ص ١-٢.

(١٨) ابن الحاجب (جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر)، متن الشافية، مجموع مهمات المتون، ط، ٤، ١٩٤٩م، ص ٥٥١.

(١٩) ن.م، ن.ص.

(٢٠) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ١٩٩٩م، ج٥، مادّة "كَتَبَ"، ص ٣٨٦١.

(٢١) الرّاغب الأصفهاني (أبي القاسم الحسين بن محمّد)، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق والدّار الشاميّة بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص ٦٩٩.

(٢٢) ن.م، ن.ص.

(٢٣) انظر لسان العرب، نفس الصّفحة.

(٢٤) نفسه، مادّة خطط، ج٢، ص ١١٩٨.

(٢٥) الجاحظ، الحيوان، نفسه، ج١، ص ٦٣.

(٢٦) القلقشندي (أحمد بن علي بن أبي اليمن، (ت: ٨٢٥هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسّسة المصريّة العامّة، نسخة مصوّرة عن الطّبعة الأميريّة، مصر، د.ت، ج١، ص٣٥.

(٢٧) ابن النّديم، الفهرست، نفسه، مقدّمة المحقّق.

(٢٨) الهوريني (أبو الوفا نصر الوفائي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، المطالع النصريّة للمطابع المصريّة في الأصول الخطّيّة، تحقيق عبد الوهّاب محمود الكحلة، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص١٣.

(٢٩) نفسه، ص ١٤.
(٣٠) ن.م، ن.ص.
(٣١) نفسه.
(٣٢) ابن خلدون، المقدّمة، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة ،٢٠٠٤، ص ١٠٥.
(٣٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نفسه، ج٣، ص ٨.
(٣٤) ابن النّديم، الفهرست، ص ١٦.
(٣٥) نفسه، نفس الصّفحة.
(٣٦) نفسه، ص ١٣.
(٣٧) محمّد طاهر الكردي، الخطّ العربي تاريخه وآدابه، مكتبة الهلال، ط١، ١٩٣٩م، ص ٧- ٨.
(٣٨) نفسه، ص ٨.
(٣٩) كمال عبد جاسم الصّالح الجميلي، أثر القرآن الكريم في الخطّ العربي، مجلّة البحوث والدّراسات القرآنيّة، بغداد، العدد التّاسع، ص ٣٠٣.
(٤٠) الشّيخ شمس الدّين الأكفاني وهو طبيب باحث بالحكمة والرياضيات توفّي بالقاهرة في ٧٤٩هـ. القلقشندي، صبح الأعشى نفسه، ج٣، ص ٧.
(٤١) يحْفَى: أي يرقّ سنّه، فيتعثّر في الكتابة، وهو مأخوذ من حفا القدم والخفّ والحافر. قال ابن منظور "إذا انسحجت القدم أو فِرْسِنُ البعير أو الحافر من المشي حتّى رقّت قيل حَفِيَ يَحْفَى حَفًا، فهو حَفٍ". ابن منظور (أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم)، لسان العرب المحيط، دار صادر بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص ١١٩، مادّة "حَفَا".
(٤٢) سهيلة الجبوري، الخطّ العربي وتطوّره في العصور العبّاسيّة، مطبعة الزّهراء، ١٩٦٢، ص ٣.
(٤٣) شربل داغر، مذاهب الحسن: قراءة معجميّة تاريخيّة للفنون العربية، المركز الثّقافي العربي، بيروت، لبنان، ص ٣٣٧.
(٤٤) ابن خلدون، المقدّمة، دار القلم، بيروت، ١٨٩١، ط٤، ص ٤٢٠..
(٤٥) نفسه، نفس الصّفحة.
(٤٦) انظر أيضًا محمّد الهادي دحمان، الخطّ العربي في السّياق الخلدوني، مقال في مؤلّف جماعي بعنوان "الخطّ العربي بين العبارة التّشكيليّة والمنظومات التواصليّة"، نفسه، ص ٢٥.
(٤٧) فريد نان توتل، المنجد في الأدب والأعلام، المطبعة الكثوليكيّة، بيروت، ١٩٥٦م، ص ٤٠٠.
(٤٨) ناصر الدّين الأسد، مصادر الشّعر الجاهلي، ص ٦٧.
(٤٩) نفسه، ص ص ٦٦-٦٧-٦٩-٧٣.
(٥٠) صلاح الدّين المنجد، دراسات في تاريخ الخطّ العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢م، ص ٢٣.
(٥١) عبد العزيز الدّالي، الخطاطة الكتابيّة العربيّة، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩م، ص ٤٢.
(٥٢) الجاحظ، نفسه، ص ٥٠.
(٥٣) ابن خلدون، نفسه، ص ٥٠٢.
(٥٤) تعود أقدم الكتابات التّدمريّة إلى القرن الأوّل قبل الميلاد ويمتدّ تاريخها إلى القرن الثّالث الميلادي، لمزيد من التّفصيل يُمكن العودة إلى ولفنسون إسرائيل، تاريخ اللّغات السّامية، مطبعة الإعتماد بمصر، ط١، ١٩٢٧م، ص ١٢٨.
(٥٥) اشتقّ الأنباط الخطّ النّبطي من الخطّ الآرامي، وعلى الرّغم من تطوّره النّسبي منذ أواخر القرن الثّاني قبل الميلاد، إلاّ أنّه لم يأخذ طابعه المميّز إلاّ في القرن الأوّل قبل الميلاد. Diringer (D), op. cit, pp ١٣٦-١٤٠.
(٥٦) علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النّهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٩م، ص ١٥.
(٥٧) الخطّ الآرامي وهو أحد الفروع الرئيسيّة للخطّ الشّامي الشّمالي، وقد انحدر عنه في أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن التّاسع قبل الميلاد. يُمكن العودة إلى: . Diringer (D), The Alphabet, London, ١٩٦٨, VOL I, p ١٩٨
(٥٨) بن هشام (أبو محمّد عبد الملك)، سيرة النبيّ ﷺ، مراجعة وضبط وتعليق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الطّلائع للنّشر والتّوزيع والتّصدير، القاهرة، ج١، ص ٢٠٧.
(٥٩) المسعودي، مروج الذّهب ومعادن الجوهر، مطبعة السّعادة، مصر، ١٩٤٩م، ج١، ص ٢٠٧/ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ١٩٤٧م، ج٤، ص ١٥٦.
(٦٠) علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص ٥٥.
(٦١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نفسه، ج٣، ص ١٤.
(٦٢) ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد البصري، ت ٢٣٠هـ)، الطّبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ١٩٦٠، ج١، ص ٤٥.

(٦٣) نسبة إلى سام بن نوح عليه السّلام، "وُلد بعد مضيّ خمسمائة سنة من عمر أبيه، سكن بعد الطّوفان وسط الأرض، واليمن إلى حضرموت، وعمان إلى البحرين، فمن ولده إرم وأرفخشد، فمن ولد أرفخشد قحطان بن عاد وابنه يعرب بن قحطان، فهم أوّل من تكلّم بالعربيّة..وفي زمانه فرّق الله الألسنة، فجعل في ولد سام تسعة عشر لسانا، وكانت وفاته يوم الجمعة وكان عمره ستّمائة سنة". القرماني (أحمد بن يوسف: ت١٠١٩هـ/١٦١٠م)، أخبار الدّول وآثار الأول في التّاريخ، دراسة وتحقيق فهمي سعد وأحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج١، ص ٦٥.

(٦٤) نفسه، ص ٦٧.

(٦٥) ابن النّديم، الفهرست، نفسه، ص ٦.

(٦٦) الفهرست، نفسه، ص ٧.

(٦٧) ن.م، ص ٦-٧.

(٦٨) ن.م، ن.ص.

(٦٩) مكحول مكحول الشّامي مولى امرأة من هذيل، توفّي سنة ستّ عشرة ومائة وله من الكتب: كتاب "السّنن في الفقه"، وكتاب "المسائل في الفقه". ابن النّديم، الفهرست، ص ٣١٨.

(٧٠) انظر الفهرست، ص ٧.

(٧١) ن.م، ن.ص.

(٧٢) غانم قدوري الحمد، علم الكتابة العربية، دار عمار للنّشر والتّوزيع، الأردن، ٢٠٠٤م.

(٧٣) ابن منظور، لسان العرب، نفسه، ص ٨٧٥.

(٧٤) ابن خلدون، المقدّمة، نفسه، ص ٥٠٢.

(٧٥) ابن النّديم، الفهرست، ص ٨.

(٧٦) مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٦٧.

(٧٧) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نفسه، ج٣، ص ١٠-١١.

(٧٨) غانم قدوري الحمد، الكتابة العربية، نفسه.

(٧٩) ابن خلدون، المقدّمة، نفسه، ص ٥٠٢.

(٨٠) النّبط في أصل اللّغة الماء الّذي ينبط من قعر البئر إذا حفرت، واستنبط الماء استخرجه، واستوطن الأنباط في أيّام الجاهلية على تخوم المدينة في حوران والبتراء ومعان، ويجاورون العرب الحجازيين في تبوك ومدائن صالح في شمال الحجاز، وكانت مملكة الأنباط تمتد من سيناء إلى جنوب سوريا، وقد أسّس الأنباط في العهد الهيلينى مدنا فارهة مثل البتراء ومدائن صالح وتدمر وتبوك وانتشروا شمال الحجاز، وسيطروا على الطّرق التجاريّة بين الهند والشّام وجنوب اليمن، من صنعاء إلى مكّة، ومن يثرب إلى مصر والبحر المتوسّط، وأسّسوا دولة قويّة عاصمتها "البتراء" دمّرها الرّومان سنة ١٠٦م، كما امتدّت علاقاتهم التجاريّة إلى اليونان وإيطاليا وشمال افريقيا، وساهم هذا الإمتداد في انتقال كافّة مظاهر الحضارة بما في ذلك الكتابة، وقد عثر على بعض النقوش النبطيّة الّتي تشبه إلى حدّ كبير أقدم النّقوش العربيّة المعروفة. إبراهيم جمعة، دراسة في تطوّر الكتابات الكوفيّة، دار الفكر العربي، ص ١٧.

(٨١) سهيلة الجبوري، أصل الخطّ العربي وتطوّره حتّى نهاية العصر الأموي، مطبعة الأديب، بغداد، ١٩٧٠م، ص ٤٨.

(82) - Abbott Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its kuranic Development with a full Discription of the Kuran Manuscripts in the Sriental Institute, Chicago, 1938, p 8-9.

(٨٣) "جعل تاريخ النّبط منذ صارت مملكتهم ولاية رومانيّة في أوائل القرن الثّاني للميلاد وتبه من بعدهم تاريخ التّدمريين وهم عرب أيضًا حذوا حذو النّبط في استعمال الكتابة الآراميّة ووجد العلماء في آراميّتهم صبغة ضعيفة من العربية ما يدلّ على أنّها بسبيل من عربية من قبلهم لا أثر فيها لأحكام البداوة ولا للغريزة الصّحيحة... وثم كتابة أخرى وجدوها على قبر امرئ القيس بن عمرو من ملوك اللّخميين الّذين كانوا يتولّون للفرس ومقرّهم الحيرة على أطراف العراق ولكنّهم اكتشفوا هذا القبر بين آثار الغساسنة في حوران وهم الّذين كانوا يتولّون للرّوم على مشارف الشّام والكتابة بالحرف النّبطي ويؤخذ منها أنّها كتبت سنة ٣٢٨ للميلاد وهي لغة عربيّة تشوبها صبغة آراميّة". علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، نفسه، ص ٦٧-٦٨/ نيلسن ودانليف وآخرون، التّاريخ العربي القديم، ترجمة حسين علي وزكي محمّد حسن، مطبعة النّهضة المصريّة، ١٩٥٨م، ص ٣٨.

(٨٤) لم يكن الخطّ العربي في بداياته منقوطا ولا مُشكلا كما هو الحال اليوم، ولكنّ ضرورة التّمييز بين الحروف المتشابهة عندما تمّ تحويرها من الكوفي اليابس إلى مجموعة الخطوط جعل من الخطّاطين يعمدون إلى تنقيط الحروف وشكلها، ويُعدّ أبو الأسود الدّؤلي أوّل من نقّط الخطّ العربي في

الخطّ العربي: هندسة روحانيّة بآلة جسمانيّة

حين أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أوّل من شكله. فخري النجّار، الخليل بن أحمد الفراهيدي، آراء وإنجازات لغويّة، دار صفا للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٨م/ أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، معجم القراءات القرآنية، مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٨، ص ٥١.

(٨٥) سعيد حسن بحيري، ترجمة الأساس في فقه اللّغة العربية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٨٢.

(٨٦) نرجس الدّرويش، الفقه والفنّ في القرن الخامس للهجرة، شهادة دراسات مُعمّقة في الأدب والحضارة العربيّة، كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات منّوبة ١٩٩٧- ١٩٩٨م، ص ٨١.

(٨٧) ناجي زين الدّين المصرف، بدائع الخطّ العربي، مؤسّسة رمزي للطّباعة والفنون، بغداد، ١٩٨٢، ص ٣٣.

(٨٨) محيّ الدّين بن عربي، التجلّيات الإلهيّة، تحقيق عبد الكريم التّمري، بيروت، دار الكتاب العلميّة ٢٠٠٢م ص ٩.

(٨٩) عبد الكبير الخطيبي، الإسم العربي الجريح، ترجمة مُحمّد بنيس ط ٢ الرّباط المغرب، منشورات عُكاظ، ٢٠٠، ص ١٥٤.

(٩٠) علي محمّد أمين، عبقريّة الخطّ العربي، مجلّة الوحدة، العدد ٩، بيروت، مارس ١٩٩٢م.

(٩١) محمود أمهز، التيّارات الفنيّة المعاصرة، شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، بيروت ١٩٩٦م، ص ٣٩٦/ شربل داغر، الحروفيّة، فنّ وهويّة، شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٩٢.

(٩٢) الحبيب بيدة، الخلفيّة الفلسفيّة والجماليّة للخطّ العربي، دار الفكر دمشق، ١٩٨٩ن، ص ٦١.

(٩٣) عبد الكبير الخطيبي، مقدّمات في الفنّ العربي المعاصر، ترجمة فريد الزّاهي، مجلّة نزوى، العدد ٢٩، م٢٠٠٩-٠٧-١٤، http://www.nizwa.com.

(٩٤) عفيف البهنسي، معجم مُصطلحات الخطّ العربي والخطّاطين، مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٩٥م، المُقدّمة.

(٩٥) فريد الزّاهي، الجسد والصّورة والمُقدّس في الإسلام، نفسه، ص ١٣٣.

المصـادر والمراجع

- إبراهيم جمعة، **دراسة في تطوّر الكتابات الكوفيّة**، دار الفكر العربي(د.ت)
- أحمد صبري زايد، **تاريخ الخطّ العربي وأعلام الخطّاطين**، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٨م
- أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، **معجم القراءات القرآنية**، مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٨م
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، **الحيوان**، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، ط٢، ١٩٦٥م
- ابن الحاجب (جمال الدّين أبي عمرو عثمان بن عمر، ت ٦٨٦هـ)، **متن الشافية، مجموع مهمات المتون**، ط ٤، ١٩٤٩م
- الحبيب بيدة، **الخلفيّة الفلسفيّة والجماليّة للخطّ العربي**، دار الفكر دمشق، ١٩٨٩م
- ابن خلدون، المقدّمة، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة ،٢٠٠٤م
- ابن درستويه (أبو محمّد عبد الله بن جعفر، ت ٣٤٧هـ)، **كتاب الهجاء**، تحقيق ابراهيم السّامرّائي وعبد الحسين الفتلي، دار الكتب الثقافيّة، الكويت، ١٩٧٧م
- الرّاغب الأصفهاني (أبي القاسم الحسين بن محمّد)، **مفردات ألفاظ القرآن**، دار القلم، دمشق والدّار الشاميّة بيروت، ط١، ١٩٩١م
- ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد البصري، ت ٢٣٠هـ)، الطّبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م
- سعيد حسن بحيري، **ترجمة الأساس في فقه اللّغة العربية**، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م
- سهيلة ياسين الجبوري، الخطّ العربي وتطوّره في العصور العباسيّة، مكتبة الظهراء، بغداد، ١٩٥٨م
- شربل داغر، **الحروفيّة، فنّ وهويّة**، شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، بيروت، ١٩٩٠ م
- شربل داغر، اللّغة بديلاً عن الوجود والخطّ بوصفه رسما، مقال في مؤلّف جماعي بعنوان **"الخطّ العربي بين العبارة التّشكيليّة والمنظومات التواصليّة"**. منشورات المجمع التّونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، تونس، ٢٠٠٨م
- صلاح الدّين المنجد، دراسات في تاريخ الخطّ العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢م
- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ١٩٤٧م
- عبد العزيز الدّالي، الخطاطة الكتابيّة العربيّة، مكتبة

الخانجي، مصر، ١٩٧٩م

- عبد الكبير الخطيبي، الإسم العربي الجريح، ترجمة محمّد بنيس ط ٢ الرّباط المغرب، منشورات عُكاظ، ٢٠٠٠م
- عبد الله بن علي الشلال وآخرون، الإملاء للصف الأوّل المتوسّط، المملكة العربية السعودية، ط ٤، وزارة المعارف، ٢٠٠٢م
- عفيف البهنسي، معجم مُصطلحات الخطّ العربي والخطّاطين، مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٩٥م
- علي محمّد أمين، عبقريّة الخطّ العربي، مجلّة **الوحدة**، العدد ٩، بيروت، مارس ١٩٩٢م
- عمر أفا ومحمّد المغراوي، **الخطّ المغربي تاريخ وواقع وآفاق**، منشورات وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٧م
- فخري النجّار، **الخليل بن أحمد الفراهيدي، آراء وإنجازات لغويّة**، دار صفا للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٨م
- فريد نان نوئل، **المنجد في الأدب والأعلام**، المطبعة الكثولكيّة، بيروت، ١٩٥٦م
- ابن قتيبة الدّينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، **"كتاب أدب الكاتب"**، تحقيق محمّد الدّالي، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٢م
- القرماني (أحمد بن يوسف: ت١٠١٩هـ/١٦١٠م)، **أخبار الدّول وآثار الأول في التّاريخ**، دراسة وتحقيق فهمي سعد وأحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢م
- القلقشندي (أحمد بن علي بن أبي اليمن، (ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسّسة المصريّة العامّة، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، مصر، د.ت..
- كمال عبد جاسم الصّالح الجميلي، أثر القرآن الكريم في الخطّ العربي، مجلّة **البحوث والدّراسات القرآنيّة**، بغداد، العدد التّاسع
- محمّد طاهر بن عبد القادر الكردي المكّي الخطّاط، **تاريخ الخطّ العربي وآدابه**، مكتبة الهلال، مصر، ط١، ١٩٣٩م
- محمود أمهز، التيّارات الفنيّة المعاصرة، شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، بيروت ١٩٩٦م
- محيي الدّين بن عربي، التجلّيات الإلهيّة، تحقيق عبدالكريم النّمري، بيروت، دار الكتاب العلميّة ٢٠٠٢م
- المسعودي، **مروج الذّهب ومعادن الجوهر**، مطبعة السّعادة، مصر، ١٩٤٩م
- مصطفى صادق الرّافعي، **تاريخ آداب العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م
- منصف عبد الحقّ، **الكتابة والتّجربة الصّوفيّة**، منشورات عكاظ، الرّباط، ١٩٨٨م
- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر بيروت، ١٩٩٩م
- ناجي زين الدّين المصرف، **بدائع الخطّ العربي**، مؤسّسة رمزي للطّباعة والفنون، بغداد، ١٩٨٢م
- ابن النّديم (محمد بن إسحاق، ٢٩٦ ٣٨٥هـ)، الفهرست، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، د.ت
- نرجس الدّرويش، **الفقه والفنّ في القرن الخامس للهجرة**، شهادة دراسات مُعمّقة في الأدب والحضارة العربيّة، كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات منّوبة ١٩٩٧- ١٩٩٨م
- نيلسن ودانليف وآخرون، **التّاريخ العربي القديم**، ترجمة حسين علي وزكي محمّد حسن، مطبعة النّهضة المصريّة، ١٩٥٨م
- ابن هشام (أبو محمّد عبد الملك)، سيرة النبيّ ﷺ، مراجعة وضبط وتعليق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الطّلائع للنّشر والتّوزيع والتّصدير، القاهرة
- الهوريني (أبو الوفا نصر الوفائي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، **المطالع النصريّة للمطابع المصريّة في الأصول الخطيّة**، تحقيق عبد الوهّاب محمود الكحلة، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠١م
- Abbott Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its kuranic Development with a full Discription of the Kuran Manuscripts in the Sriental Institute, Chicago, 1938
- Abdul Kabir Khatibi and Mohammad Sejelmasi, The Splendour of Islamic Calligraphy ,Thomas and Hudson: London, 1976.
- Diringer (D), The Alphabet, London, 1968, VOL I
- http://www.nizwa.com.

المخطوط الجزائري ومكانته بين المصادر الإسلامية

- شرح أم البراهين للإمام السنوسي أنموذجًا -

أ. د. مرزوق العمري

جامعة باتنة - الجزائر

مقدمة:

سجل لنا التاريخ الإسلامي أن جميع الأقطار الإسلامية ساهمت في خدمة المصادر المعرفية الإسلامية تأليفًا بما في ذلك الجزائر على الرغم من أن الشهرة لم تكن متكافئة؛ فقد اشتهرت مصادر ومخطوطات قطر على حساب مصادر قطر آخر، وهذا يعود لعدة عوامل منها هجرة هذا المخطوط أو ذاك، وإذا ذكرت ظاهرة هجرة المخطوط يذكر شرح أم البراهين في علم الكلام للإمام السنوسي التلمساني (٨٣٠هـ/٨٩٥هـ) هذا المخطوط الذي يمكن القول إن شهرته ملأت الآفاق ويلاحظ عليها أنها كانت خارج الجزائر أكثر من داخلها. تعد أم البراهين متنًا وشرحًا من أهم المصادر الإسلامية في علم الكلام في زمانها؛ حيث ساهمت بشكل متميز في خدمة الدرس الكلامي فدرست في معظم مساجد العالم الإسلامي.

وكان الإقبال عليها بكيفيات مختلفة؛ بشرح المتن ووضع حواشي على الشرح وكان الإقبال على هذا النص متنًا وشرحًا فقام المحققون بتحقيقه مرات عديدة، ونظمت حوله الكثير من المنظومات، الأمر الذي جعل منه نصًا ظاهرة في عصره بالفعل، وصار من أهم المصادر المقررة في الجوامع الإسلامية الكبرى مثل جامع الأزهر والقرويين...وغيرهما. وعليه فمصدر بهذه الأهمية وهذا التأثير وهذا الحضور في تاريخ العلوم الإسلامية جدير بأن يحظى بالدراسة وذلك للمبررات الآتية:

١- مبرر معرفي يتمثل في التعريف بأم البراهين متنًا وشرحًا كنموذج للمخطوط الجزائري الذي كان من أهم المصادر الإسلامية في علم التوحيد، والذي يقدم في بعض الأحيان دونما إشارة إلى جزائريته.

٢- يشهد الدرس الكلامي في الراهن دعوات كثيرة إلى التجديد والإحياء، وهي العملية التي انطلقت منذ أكثر من قرن من الزمان

وما تزال مستمرة وهذا بالنظر إلى الوظيفة المنوطة بعلم الكلام وهي الدفاع عن العقائد، وهي عملية تستدعي استيعاب الماضي للانطلاق نحو المستقبل.

٣- التعريف بالمخطوط الجزائري ومن خلال ذلك يتسنى لنا معرفة مدى إسهام القطر الجزائري في خدمة التراث الإسلامي وخدمة المعرفة بشكل عام من خلال نموذج من النماذج، وهو شرح أم البراهين في علم الكلام للإمام السنوسي.

انطلاقًا من هذه المبررات تتحدد لنا إشكالية هذه الدراسة، والتي يمكن صياغتها في التساؤلات الآتية: من هو الإمام السنوسي؟ ماذا عن أم البراهين متنًا وشرحًا؟ ما هي المكانة التي تبوأها هذا المصدر بين المصادر الإسلامية؟ وفيم تتجلى هذه الأهمية وهذه المكانة؟.

وقد اقتضت هذه العملية العودة إلى المصدر موضوع الدراسة بطبيعة الحال بالإضافة إلى ما كتب حوله من شروح وحواشي وتعليقات هنا وهناك ساهمت في إبراز قيمة هذا المصدر الجزائري بين المصادر الإسلامية، مثل حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين، ومن الدراسات الحديثة الإمام السنوسي وعلم التوحيد لجمال الدين بوقلي حسن.

أولاً: الإمام السنوسي ونص أم البراهين:

أ- التعريف بالإمام السنوسي:

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي؛ فاسمه محمد وكنيته أبو عبد الله الشهير بالسنوسي، وهي نسبة إلى القبيلة التي ينحدر منها وهي قبيلة بني سنوس بالمغرب الأقصى. ولد الإمام السنوسي في حدود ٨٣٠هـ الموافق لـ ١٤٢٦م، ومسألة الميلاد عادة ما تكون محل اختلاف وتكون أمرًا غير مضبوط؛ لأن الاهتمام بالأعلام لا يكون لحظة ميلادهم وإنما يكون بعد نبوغهم وهذا بكل تأكيد بعدما تتقدم بهم السن؛ ولذلك نجد الحفناوي في كتابه "**تعريف الخلف برجال السلف**" يورد مقاربتين في تاريخ ميلاد الإمام السنوسي إحداهما فيما ذكره تلميذه الملالي أن شيخه أخبره قبل موته بعامين أنه بلغ خمسًا وخمسين سنة فإذا أضيفت سنتان يعني هذا أنه مات وهو ابن السابعة والخمسين، ومن جهة أخرى ذكر أنه مات وهو في الثالثة والستين من العمر. ومعنى ذلك أنه ولد سنة ٨٣٠هـ(١).

ولم تذكر تراجمه مكان ولادته بالضبط بقدر ما ركزت على شهرته التلمسانية التي بها صار يعتقد أنه من مواليد تلمسان. وفي تلمسان نشأ الإمام السنوسي في بيت علم وأدب، فكان والده أبو يعقوب يوسف شيخًا صالحًا وزاهدًا معروفًا بالعلم والخشوع. لما بلغ السنوسي سن التعلم كان أبوه هو معلمه الأول فتتلمذ على يده في وقت كانت فيه تلمسان مركزًا علميًا ودينيًا إسلاميًا مشهورًا، بالإضافة إلى تتلمذه على يد والده وكان هذا ديدن أبناء الأسر العلمية أنهم يتعلمون على يد آبائهم، تعلم أيضًا على يد ثلة من خيرة علماء تلمسان في ذلك الوقت منهم: العالم الولي نصر الزواوي الذي أخذ عنه الكثير من علوم العربية ولازمه فترة طويلة، ومنهم الإمام القطب الحسن أبركان الذي اشتهر بتبحره في الفقه الذي كان كلما رأى التلميذ السنوسي يدعو له بقوله:" جعلك الله من الأئمة المتقين".

ومنهم محمد بن القاسم بن تومرت الذي أخذ عنه الفرائض والحساب، ومنهم علي البسطي

القلصادي الذي حظي السنوسي بجائزة منه، ومنهم الإمام محمد بن العباس الذي أخذ عنه الأصول والمنطق والفقه والبلاغة وقرأ عليه الجمل للخونجي. من علماء عصره الذين أخذ عنهم العلامة عبد الرحمن الثعالبي الذي قرأ عليه الصحيحين وأجازه، وهذا يدل على أنه في مرحلة طلبه للعلم تنقل إلى مدينة الجزائر وليس الثعالبي هو الذي انتقل إلى تلمسان وأقام بها. وأخذ عن أبي عبد الله المغيلي الجلاب الفقه المالكي وقرأ عليه مدونة مالك، من شيوخه أيضًا إبراهيم اللنتي التازي الذي جالسه وألبسه خرقة التصوف(٢).

وكانت ثمرة اللقاء ومجالسة هؤلاء العلماء الكبار هي لمعان السنوسي وبروزه من دون الكثير من أقرانه؛ إذ أوتي له تحصيل الكثير من العلوم حتى صار عالم تلمسان في زمانه؛ ولا أدل على ذلك مما قاله عنه تلميذه الملالي:" إن الإمام أبو عبد الله السنوسي لم يكن يجهل ما كان شائعا في تلمسان من علوم الظاهر كالفقه والنحو لا بل إنه حظي فيها بنصيب أوفر عرف فروعها فضلاً عن أصولها؛ ولكنه انفرد بالعلوم الباطنية كعلم التوحيد حتى كان قطبًا فيها، ويشهد نشاطه الفكري على أنه كرس جانبًا هامًا من حياته في الإشادة بعلم التوحيد الذي يورث من أخذ به معرفة الله ومراقبته، فهو يعده مفتاحًا لسائر العلوم وعلى قدر معرفة العالم بالله يزداد خوفه منه تعالى وقربه منه، وما كان يمتاز به أيضًا هذا الرجل أنه كان لا يدرس علوم الظاهر إلا ليخرج منها إلى علوم الآخرة لا سيما التفسير والحديث"(٣).

وكما بوأه الله هذه المكانة العلمية المرموقة توجه بكريم الأخلاق كالتواضع ورقة القلب والحلم والصبر وطلاقة الوجه، رغم تعرضه لأصناف الأذى كما هو ديدن العلماء الذين تحدث لهم مجابهات بفعل احتكاكهم بالناس وتصديهم للتدريس وإقبالهم على تغيير المنكر. قيل أنه لما كتب إحدى عقائده جوبه بنقد حاد حتى أصابه من ذلك حزن كبير، وهو ما أشار إليه في بعض كتاباته؛ حيث قال:"...فصار بعضهم ينقل عنا بحسب فهمه الأعوج ودينه الأعرج من الكلمات الكاذبة ما يوجب الإذاية في النفس والدين ويقبل ذلك منه ويشيعه من هو على شاكلته؛ ولم يمتثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات/٦)(٤) وعن حيائه فقد ذكر من اهتم بسيرته أنه كان شديد الحياء حتى قيل أنه أثر عنه أنه قال:" إذا كان الحياء يدخل صاحبه النار فأنا أدخلها"(٥).

بالإضافة إلى ذلك ذكر عنه أنه كان يؤثر الخلوة للاستغراق في الذكر، ويحب أن لا يراه أحد وبخاصة أهل السلطان أو أهل الثراء المفاخرون بالمأكل والملبس، وربما الذي قاده إلى ذلك هو خطه الصوفي إلى أن قال:"... والعاقل الموفق في هذا الزمن من جعل أنيسه في خلوته ذكر مولاه جل وعز وتلاوة كتابه العزيز والنظر في جوامع كلام نبيه صلى الله عليه وسلم ونزه عقله وصرفه في رياض تلك المعاني"(٦). وهذه الأخلاق وهذا العلم بوأه منزلة رفيعة بين أضرابه من علماء زمانه فكانوا يستشيرونه ويتواصلون معه أخذًا برأيه فيما كانوا يفتون به، مثل ما حدث مع الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي استشاره بشأن الفتوى التي أفتى بها بشأن طغيان يهود توات فأجابه الإمام السنوسي برسالة قصيرة يؤيده فيها(٧).

في عام ٨٩٥هـ أصيب الشيخ السنوسي بمرض ألزمه الفراش، وأحس بأن أجله قد قرب فلازم الفراش عشرة أيام انقطع فيها عن المسجد وكان ابن أخيه يلقنه كلمة التوحيد فكلمه قائلاً:" وهل ثمة غيرها؟"(٨)، وكان يقول عند موته:" نسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالمين بها"(٩). ومات يوم الأحد ١٨ جمادى الثانية سنة ٨٩٥هـ رحمة الله تعالى عليه. مات الإمام السنوسي وترك إرثًا علميًا ثمينًا تمثل في الكتب والمتون والشروح والمنظومات في مختلف العلوم الإسلامية، وعدد كبير من التلاميذ ومن مؤلفاته:

١- المقرب المستوفي على الحوفي، وهو أول تأليفه إذ ألفه وهو ابن التاسعة عشر.

٢- مكمل كمال الإكمال في شرح صحيح مسلم.

٣- مختصر شرح الأبي - أحد شيوخ عبد الرحمن الثعالبي توفي سنة ٨٢٧هـ على صحيح مسلم.

٤- شرح على صحيح البخاري، وهو غير كامل.

٥- شرح مشكلات البخاري.

٦- مختصر الزركشي على البخاري.

٧- نظم في الفرائض.

٨- مختصر حاشية التفتازاني على كشاف الزمخشري.

٩- تفسير سور من القرآن الكريم.

١٠- مختصر بغية السالك في أشرف المسالك للإمام الساحلي.

١١- شرح الأبيات المنسوبة للإمام الألبيري وأبيات لبعض العارفين.

١٢- مختصر في المنطق.

١٣- شرح مختصر في علم المنطق.

١٤- شرح مختصر ابن عرفة.

١٥- شرح جمل الخونجي.

١٦- عقيدة أهل التوحيد والتسديد الشهير بالعقيدة الكبرى.

١٧- عمدة أهل التوفيق والتسديد.

١٨- العقيدة الوسطى.

١٩- شرح العقيدة الوسطى.

٢٠- العقيدة الصغرى الشهيرة بأم البراهين.

٢١- شرح العقيدة الصغرى.

٢٢- صغرى الصغرى.

٢٣- شرح صغرى الصغرى.

٢٤- المقدمات المبينة للعقيدة الصغرى.

٢٥- شرح المقدمات.

٢٦- شرح نظم الحوضي في العقائد.

٢٧- شرح لامية الجزائري.

٢٨- شرح جواهر العلوم للعضد الإيجي في علم الكلام.

٢- أم البراهين متنًا وشرحًا:

أ- المتن: المتون نمط من أنماط الكتابة عند المسلمين، فبالإضافة إلى المطولات، والكتب العادية هناك المختصرات أو المتون، وقد تبلور هذا النمط من التأليف وشاع حتى شمل العلوم الإسلامية كلها، وكانت المتون تؤلف على وجهين: أحدهما منظومات أو قصائد شعرية، والثاني نصوصًا نثرية عادية، وقد برزت ظاهرة المتون في وقت مبكر نسبيًا من تاريخ الإسلام؛ ولكنها شاعت بشكل خاص حينما انتعشت

الحركة التعليمية عند المسلمين؛ أي ابتداء من القرن الرابع للهجرة، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله:" ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والإنحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجًا مختصرًا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منه بالمعاني الكثيرة في ذلك الفن"(١٠).

من أهم المتون التي حفظها لنا التاريخ الإسلامي في باب العقائد متن "**أم البراهين**" للإمام محمد بن يوسف السنوسي، وهو متن في علم الكلام الذي تميز به الإمام السنوسي فعلى الرغم من كتابته في سائر العلوم الإسلامية مثل الفقه والحديث والتفسير....وغيرها إلا أن اهتمامه بعلم الكلام كان متميزًا حتى صنف بأنه من المتكلمين أكثر مما صنف بأنه فقيه أو مفسر أو نحوي؛ ولذلك نجد الحفناوي في ترجمته له ينسبه إلى الفن الذي نبغ فيه، وهو علم الكلام أو علم التوحيد فقال:" محمد السنوسي التوحيدي"(١١) وهذا ما صار مألوفًا لدى الدارسين الذين جاءوا بعد السنوسي حتى زملتنا هذا، يقول جمال الدين بوقلي حسن:" لقد ألف أبو عبد الله السنوسي نفسه في العقيدة فأكثر، إذ معظم اهتماماته كانت موجهة نحو هذا الجانب من علم التوحيد حتى غلب عليه لقب "**صاحب العقائد**" "(١٢).

لقد كان وضع المتون ثم الإقبال على شرحها موضة الكتابة في ذلك الوقت؛ لأنه يمكن القول إن عصر السنوسي هو العصر الذي بدأ فيه تراجع الدور الحضاري للمسلمين الذي كانت أبرز تجلياته تراجع الحركة العلمية فكان الاكتفاء بوضع المتون ثم إنجاز شروح وحواشي، أو جمع المدون حفاظًا على الذاكرة كما فعل الإمام السيوطي معاصر الإمام السنوسي.

إذا عدنا إلى متن أم البراهين يمكن القول إنه نص قصير مركز احتوى على أهم المسائل الكلامية، وأول ما يلاحظ عليه أنه متن وضع في سياق مدرسي كلامي معين هو السياق السني الأشعري تحديدا؛ ووروده في هذا الإطار ما ذكره بعض محققيه:" فهو لا يشد الباحث برأي طريف أو فكرة جديدة أو طرح جديد لقضية من قضايا الأصول، وإنما بالمنهج المدرسي الذي اتبعه السنوسي باقتدار، وأصبح علامة من علامات الفترة التاريخية التي عاشها السنوسي أو سبقته بقليل، وما لحقها من فترات"(١٣).

من جهة أخرى هذا المتن يقدم مسائل العقيدة بشكل موجز ومبسط؛ لأنه برز في فترة كما سبقت الإشارة صار جهد العلماء فيها مسخرًا للحفاظ على ما هو موجود أكثر من إقبالهم على إنجاز عمل إبداعي، ومنهم الإمام السنوسي الذي آل على نفسه تبسيط المعلومات العقائدية وجعلها في متناول الطلاب وذلك حتى يسهل الحفظ والاستظهار. وهذا ما يتجلى في مقدمة شرحه على هذا المتن إذ قال:" عقيدة صغيرة الجرم كثيرة العلم محتوية على جميع عقائد التوحيد، ثم تأييدها بالبراهين القاطعة القريبة لكل من له نظر سديد، ثم ختمتها بشيء لم نره سمح به أحد غيرنا من المتقدمين ولا من المتأخرين، وهو أن شرحنا كلمتي الشهادة التي لا غنى للمكلف عن معرفتها"(١٤).

أما عن مضمون هذا المتن وعن المسائل التي تضمنها وقررها صاحبها فيه فقد اقتصرت على باب الإلهيات وباب النبوات مع وجود ملحق شرح فيه كلمة التوحيد. افتتح السنوسي متنه بالحديث عن الحكم العقلي كحكم عقدي

وذكر أقسامه الثلاثة، وهي: الوجوب والإمكان والاستحالة. و استنادًا إلى هذه الأحكام الثلاثة عرض عقيدة الألوهية فأورد ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله عز وجل، مع تركيز ظاهر على جانب الصفات دون جلب الوجود الذي عاد إليه من خلال شرحه لكمة التوحيد.

أما الباب الثاني فكان حول النبوات وفيه تطرق إلى بيان ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام، وفي كل ذلك كان يورد البراهين الدالة على الوجوب أو الجواز أو الاستحالة؛ ولذلك استحق هذا المتن أن يكون بعنوان: **"أم البراهين"** كما سماه صاحبه. أما الجزء الثالث من هذا المتن فقد خصصه صاحبه لشرح كلمة التوحيد وفيها عرج على باب السمعيات مثل قوله:" وأما قولنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخل فيه الإيمان بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والكتب السماوية واليوم الآخر؛ لأنه عليه الصلاة والسلام جاء بتصديق جميع ذلك"(١٥).

هذا وصف عام لمتن أم البراهين كنص كلامي جزائري كتبت له الشهرة داخل الجزائر وخارجها إلى أن عد أحد أهم النصوص الكلامية في العالم الإسلامي من جهة اختصاره وبساطته كما سبق الذكر وذلك حتى يتسنى حفظه ودراسته، ومن جهة محتواه الذي تضمن مجمل العقائد الإسلامية بإيجاز وتركيز. وهو المشهور بالعقيدة الصغرى.

ب ـ شرح أم البراهين: الدارس لمتن أم البراهين يلمس الثقة الكبيرة لدى الإمام السنوسي وكأنه استشرف المكانة المحورية التي ستكون لهذا النص بين المصادر الإسلامية، وأدى هذا الاستشراف إلى التفكير في إنجاز شرح له من طرف الإمام السنوسي نفسه صاحب المتن الذي انطلق فيه من إدراكه لعلم التوحيد على أنه سر السعادتين: سعادة الدنيا والآخرة، يقول الإمام السنوسي:" أهم ما يشتغل به اللبيب العاقل في هذا الزمان الصعب أن يسعى فيما ينقذ به مهجته من الخلود في النار وليس ذلك إلا بإتقان عقائد التوحيد" (١٦).

انطلاقًا من إدراكه لأهمية المعتقد الصحيح في ميزان الإسلام وبغرض تكملة الفائدة المرجوة من المتن كان العزم على إنجاز الشرح، وهذا ما يتجلى في مقدمة شرحه إذ قال:" وها أنا أمدك بشرح مختصر لها يكمل المقصود ويكشف لك إن شاء الله بكيمياء السعادة وإكسير النجاة وتظل تجتني بها إن وفق الله ثمرات الإيمان إلى أن ينزل بك عرض الممات"(١٧).

وإن كان المتن مختصرًا بسيطًا إلا أن الشرح زيادة في التوضيح، وهذا ما تقتضيه العملية التعليمية، وعليه فبعض من علق على شرح السنوسي لمتنه اعتبر الشرح: توضيح لأفكار العقيدة المختصرة وتوجيه لذهن الطالب، كما أنه المرجع الذي يُعدُّ إلى حد بعيد أساسا لفهم واستيعاب مذهب الشيخ السنوسي في علم الكلام(١٨). وقد جاء هذا الشرح فيه تفصيل لما أجمل في المتن فمثلاً حينما ذكر ما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل عرج على مسألة التقليد في العقيدة وأنكر على المقلد فقال:" المطلوب في عقائد الإيمان المعرفة وهي الجزم المطابق عن دليل ولا يكفي فيه التقليد"(١٩). وحينما أحصى في المتن صفات الله عز وجل في عشرين صفة علق في شرحه على ذلك بأنها لا تحصى ولكن مالم يرد عليه دليل من النقل ولا العقل لا يؤاخذ عليه المسلم يقول الإمام السنوسي في هذا:" صفات

مولانا جل وعز الواجبة له لا نهاية لها لكن العجز عن معرفة ما لم ينصب عليه دليل عقلي ولا نقلي لا نؤاخذ به بفضل الله تعالى"[٢٠].

ومن خلال شرحه لكلمة التوحيد عرج على بعض المسائل الكلامية مثل: الحسن والقبح العقليين، الصلاح والأصلح، والواجب العقلي... ومن خلال ذلك رد على بعض الفلاسفة والمتكلمين، وبعض أبناء الديانات الأخرى فقال:" والتحسين العقلي هو أصل كفر البراهمة من الفلاسفة حتى نفوا النبوات، وأصل ضلالة المعتزلة حتى أوجبوا على الله تعالى مراعاة الصلاح والأصلح لخلقه، وعللوا أفعاله وأحكامه بالأغراض، وجعلوا العقل يتوصل وحده دون شرع إلى أحكام الله تعالى الشرعية إلى غير ذلك من الضلالات"[٢١]. وهكذا فشرح السنوسي على متنه كان بالفعل تكملة لما جاء في المتن وتفصيل وتوضيح له، وهذا ما جعل من المتن والشرح على حد سواء محل عناية عند المهتمين بالدرس الكلامي في زمن الإمام السنوسي وبعده وتداعى الاهتمام بهذا النص بكيفيات مختلفة، وهو الأمر الذي يكشف عن مكانته بين المصادر الإسلامية وهو ما نتطرق إليه في الجزئية الموالية.

ثانيًا: مكانة أم البراهين بين المصادر الإسلامية: بناء على ما تم بيانه من تعريف بالإمام السنوسي على أنه من أعلم رجال زمانه، ومن خلال التعريف بـ:"**أم البراهين**" متنًا وشرحًا من خلال ذلك ندرك أهمية هذا المصدر الكلامي الجزائري وكيف احتل مكانة مرموقة بين المصادر الإسلامية لها تجليات عدة مثل: التدريس، الشرح، الحواشي، النظم، الترجمة إلى اللغات الأجنبية....وغير ذلك.

١- التدريس: من صور الاهتمام بأم البراهين كنص في العقيدة اعتمادها كنص يدرس في المساجد والزوايا والمدارس الإسلامية المختلفة، في الجزائر وفي غيرها من أقطار الإسلام الأخرى شرقًا وغربًا؛ أما في الجزائر فقد انتشرت انتشارًا عجيبًا إلى درجة أنها صارت في نظر المهتمين بتاريخ الحركة العلمية في الجزائر أنها بالإضافة إلى مؤلفات السنوسي الأخرى المصدر الرئيس في دراسة علم التوحيد في الجزائر. وقد أشار إلى ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله حينما تطرق إلى تدريس العقائد في الجزائر خلال القرن التاسع وبعده فقال:" كانت مؤلفات محمد بن يوسف السنوسي في العقائد هي المصدر المحلي لدراسة علم الكلام"[٢٢].

وقد يعود ذلك ابتداءً إلى الوعي بأهمية العقيدة في البنية الإسلامية وهذا ما كان حاضرًا في كتابات الجزائريين فقد روى ابن مريم في البستان عن السنوسي أنه قال:" ليس علم من علوم الظاهر كلها يورث معرفته تعالى ومراقبته إلا علم التوحيد، وبه يفتح له في فهم العلوم كلها وعلى قدر معرفته بالله يزداد خوفه منه تعالى وقربه منه وانفرد بمعرفته"[٢٣]. إن هذه الأهمية التي يحظى بها علم التوحيد والتي أشار إليها السنوسي كان على أثره تلاميذه في ذلك فقد كان مصطفى الرماصي يقول:" علم الكلام أوثق العلوم دليلاً وأوضحها سبيلاً وأشرفها فوائد وأنجحها مقاصد، إذ به تعرف ذات الحق وصفاته ويصرف عنه ما لا يليق به ولا تقبله ذاته"[٢٤].

قد يكون الإقبال على دراسة علم التوحيد ما تم ذكره من أهمية هذا العلم، وظهور أم البراهين وشرحها في ذلك الوقت أدى إلى الالتفات إليها فاكتشفت أهمية هذا النص وصار أهم نص يعتمد في الدرس الكلامي في الجزائر؛ هذه الأهمية

التي تتجلى في ثناء العلماء عليه في ذلك الوقت بداية بالإمام السنوسي نفسه الذي قال عن متنه: "دونك أيها المتعطش للدخول في زمرة أولياء الله تعالى عقيدة لا يعدل عنها بعد الاطلاع عليها، والاحتياج إلى ما فيها إلا من هو من المحرومين؛ إذ لا نظير لها فيما علمت وهي بفضل الله تزهو بمحاسنها على كبار الدواوين"(٢٥).

وهذا ما يذكره ابن مريم أيضًا إذ يقول عن الإمام السنوسي:" وعقائده كافية فيه خصوصًا الصغرى ولا يعادلها شيء من العقائد"(٢٦). ومن المعاصرين نجد الدكتور أبو القاسم سعد الله بعدما ذكر أن مؤلفات السنوسي كانت هي المصدر الرئيس في دراسة العقائد في الجزائر فصل في ذلك هل تساوت مؤلفات السنوسي في الإقبال عليها أم لا؟ يذكر أنها كانت تتفاوت فيما بينها فيما شهدته من إقبال وأكد أن:" أهم الجميع هي الأولى لوضوحها واختصارها وهي المعروفة أحيانًا باسم أم البراهين"(٢٧). من هنا يتبين لنا أنها اعتمدت كمقرر في كل المساجد والمدارس في دراسة العقائد في وقت مضى. يقول الدكتور سعد الله:" لا تكاد تجد عالمًا خلال هذا العهد لم يدرس لطلابه صغرى السنوسي كما كانت تسمى، أو يتناولها بالشرح و التحشية، وأحيانًا بشرح المشروح وتحشية المحشى، وقد كثرت هذه الشروح والحواشي على صغرى السنوسي حتى أصبحت تشكل ظاهرة في حد ذاتها"(٢٨).

ومن العلماء الذين اعتنوا بتدريسها في الجزائر سعيد قدورة(٢٩) الذي درسها لطلابه متنًا وشرحًا:" ثم بدا له أن يضيف على شرح السنوسي نفسه فوائد وقرر أن يجعل كل ذلك حاشية على الشرح المذكور"(٣٠)

وقد أشار سعيد قدورة في صدارة حاشيته إلى ذلك قائلاً:"...وبعد فلما من الله سبحانه بإقراء العقيدة الصغرى مع شرحها للشيخ السنوسي رضي الله عنه ونفعنا به، وجرى على الخواطر فوائد كنت أستحسنها، وزوائد تلقيتها من بعض المشايخ وقيدتها، استخرت الله تعالى أن نجمع ذلك في هذا الكتاب"(٣١).

وهذه السيطرة التي تحققت لأم البراهين خاصة ولمؤلفات السنوسي عامة لم تكن موقوفة على الجزائر فقط بل تجاوزتها إلى سائر الأقطار الإسلامية يقول الدكتور سعد الله:" سيطرت إذن مؤلفات محمد السنوسي في التوحيد سيطرة تامة على الدارسين لهذا العلم طيلة العهد العثماني، ولم يكن ذلك مقصورًا على الجزائر وحدها بل تجاوزها إلى معظم الأقطار الإسلامية"(٣٢). فقد شرقت أم البراهين فوصلت مصر والسودان والحجاز والشام وامتدت بشكل طبيعي في المغرب الأقصى وموريتانيا وإفريقيا، وصارت موضوع الدرس الكلامي في الأزهر وأقبل عليها شيوخه مدرسين لها في أروقته ومقبلين عليها بالشرح ووضع الحواشي كما سنشير إليه.

ومن شغف العلماء وطلبة العلم بها صارت ملازمة لهم في حلهم وفي ترحالهم هي وسائر كتب السنوسي:" فلم تكن كتب السنوسي مجال اهتمام الدارسين في دور العلم المشهورة فحسب بل كان العلماء الدعاة يوغلون في الصحراء الإفريقية وبأيمانهم "أم البراهين" يرون في تعليمها للمسلمين قربى إلى الله؛ لأنها تحفظ العقيدة من أن يدركها شوب أو نقص...فقد كان الشيخ محمد المصري دار بربر الذي ذهب إلى السودان وانتشر علمه هناك، وكان من أهم الكتب التي صحبته في تلك الرحلة الشاقة أم البراهين

المخطوط الجزائري ومكانته بين المصادر الإسلامية -شرح أم البراهين للإمام السنوسي أنموذجًا-

للإمام السنوسي... ومنهم الشيخ محمد عدلان الشائقي الذي حج وحمل معه من الحج إلى وطنه السودان كتب السنوسي"[٣٣].

والأمر نفسه كان في المغرب الأقصى ومازال فبعض المحققين ما زالوا يعتنون بتحقيقها حتى وقتنا الحاضر؛ وفي القديم تناقلها الشيوخ وطلبة العلم ووصلت إلى الشيخ محمد الورياجلي فأثنى عليها كثيرًا وعلى مؤلفها وأحلها جيبه فكانت ظله وصحبه لا ينقطع عن ملازمتها، وكان هذا التقدير سببًا لدعوة رجال العلم بالمغرب الأقصى إلى دراسة هذا الإنتاج العجيب وحفظه عن ظهر قلب"[٣٤].

وهكذا اتسعت دائرة الاهتمام بأم البراهين في العالم الإسلامي لدى المهتمين بدرس العقيدة إلى درجة أن جعلت في بعض الأحيان تقرأ باستمرار فقد:" كان بعض المحققين يقرؤونها للناس في مجلس واحد كل جمعة"[٣٥]. وهذه شهرة ومكانة لهذا النص قل نظيرها.

٢ **:الشروح:** شرح المتون هو نمط آخر من أنماط الكتابة عند المسلمين، فبعد وضع المتون والمختصرات تستدعي الحاجة توضيحها وتفصيل مجملها والتوسع في بيان مضامينها ويترتب على ذلك كله شرح لهذا المتن أو ذاك، ومن أسباب الإقبال على إنجاز شرح معين أهمية المتن المشروح، وأم البراهين بما تقدم من ثناء العلماء وطلبة العلم عليها شكلت ظاهرة عصرها كما سبق الذكر، وعليه كان إقبال العلماء عليها بالشرح ظاهرة في حد ذاتها تكشف عن مكانة هذا المصدر بين المصادر الإسلامية. والمتتبع لظاهرة الشروح في التراث الإسلامي ومنها الشروح التي كانت على أن البراهين يجد أنها كانت لأغراض شتى أو لمبررات متعددة بعضها ذكرها أولئك الشراح أنفسهم منها:

أ- **الغرض التعليمي:** فالشرح كما سبق الذكر بيان وتوضيح لما جاء في المتن، والمتون كما سبقت الإشارة كانت توضع بالدرجة الأولى لغرض تعليمي، والعملية التعليمية الهدف منها الفهم وعليه يكون تعليم نص معين كأم البراهين بغرض تفهيمه للمتعلم وذلك يقتضي شرحًا فيكون بذلك الشرح متممًا لما جاء في المتن، وهذا ما أفصح عنه الإمام السنوسي نفسه حينما أقبل على إنجاز شرح متن أم البراهين فقال بعدما ذكر أهمية المتن قل مخاطبا المتعلم:" ها أنا أمدك بشرح مختصر لها يكمل لك المقصود ويكشف لك إن شاء الله الغطاء عما أنبهم عليك من المعنى المسدود"[٣٦].

ب- **الغرض الديني الإيماني:** لأنها مما تميزت به البساطة في العبارة وبناء الأدلة والبراهين، وهي الوظيفة الأساسية لعلم الكلام إذ يعرف بأنه:" علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة"[٣٧]. فبإقامة الأدلة تتضح مسائل العقيدة وتثبت في نفس معتنقها، وعليه يرجى منها الأثر الإيماني الذي تحدثه معرفة الله عز وجل في النفوس. يقول السنوسي مخاطبًا متعلمها:" فتظفر إن شاء الله بكيمياء السعادة وإكسير النجاة وتظل تجتني بها إن وفق الله تعالى ثمرات الإيمان إلى أن ينزل بك عرض الممات"[٣٨].

ج- **مطلب العامة:** وهذا ما ذكره بعض الشراح؛ بناء على شهرة أم البراهين وما ترتب من الحاجة العلمية إليها كان بعض العامة وبعض طلبة العلم يطلبون من العلماء والشيوخ ممن يرونه أهلاً للقيام بشرح أم البراهين أن يضع

شرحًا لها يكون مرجعًا يستعان به في فهمها وتعليمها، وهذا ما نجده عند تلميذه الملالي مثلاً؛ حيث يصرح بالباعث على إنجاز شرح لأم البراهين قائلاً:" سألني بعض المحبين أشرق الله قلبي وقلبه بأنوار اليقين وجعلنا وإياه من العلماء العاملين المخلصين أن أضع له شرحًا مختصرًا مفيدًا يستعين به، وهو وغيره من المبتدئين على فهم عقيدة الشيخ الإمام حامل لواء شريعة الإسلام الزاهد العابد السالك الناسك الولي الصالح والورع الناصح القطب العارف بالله الغوث المكاشف إمام الطريقة الجامع بين الشريعة والحقيقة سيدي أبي عبد الله محمد ابن يوسف السنوسي الحسني رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به أفاض علينا من يد الله فأجبته إلى ذلك قاصدًا به نفع نفسه ولمن شاء الله من أبناء جنسه"[٣٩].

د ـ **الهمة العلمية:** وهذا ما تجلى في بعض الشروح؛ لأن مكانة هذا النص وأهميته جعلت الهمم العليمة لدى العلماء تتوق إلى الاعتناء به من جميع الوجوه، ومادامت الشروح نمط من أنماط الكتابة في القديم اندفعت الهمم إلى الاعتناء بأم البراهين شرحًا لها ومن نماذج ذلك شرح أحمد بن عيسى الأنصار الذي يقول في مستهله:"...فقد هممت أن أضع تعليقًا لطيفًا وحلاً منيفًا على أم البراهين أرجو الله النفع به إلى يوم الدين"[٤٠].

ومهما تكن الأسباب الباعثة على هذه الشروح فما يمكن قوله أنها شروح كثيرة وصلت في بعض الأحيان إلى شرح المشروح كما قال الدكتور أبو القاسم سعد الله ومن أهم شروح أم البراهين ما يأتي:

- شرح الإمام السنوسي نفسه، المعروف بشرح أم البراهين.
- كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد لابن مريم التلمساني.
- إتحاف المريدين بعقيدة أم البراهين لأبي العباس الغدامسي.
- بغية الطالبين لما تضمنته أم البراهين لمحمد المصري.
- شرح صغرى السنوسي لمحمد بن أبي القاسم الفجيجي.
- النعم الكبرى بشرح الصغرى لأبي القاسم البوني.
- كنوز الفوائد في شرح صغرى العقائد لمحمد أمزيان.
- شرح عقيدة أهل التوحيد لسليمان بن عمر الجمل.
- شرح صغرى السنوسي لعبد الرحمان الفاسي.
- بهجة الناظرين في محاسن أم البراهين لأحمد الغنيمي الأنصاري.
- شرح السنوسية لمحمد بن ميهوب.
- شرح أم البراهين لأحمد بن عيسى الأنصاري.
- شرح عمر الوزان على أم البراهين.

هذه بعض شروح أم البراهين وهي دالة دلالة واضحة على المكانة التي تحتلها بين المصادر الإسلامية فهذا الإقبال عليها لاشك أنه دلالة على أهميتها عند العلماء، بل نجد في بعض الشروح زوائد وتعليقات وفوائد على هامش الشروح التي يقوم بها هذا الشارح أو ذاك.

٣: **الحواشي:** الحواشي نمط أيضًا من أنماط الكتابة وتكون الحاشية عادة على شرح؛ ولذلك

هي بمثابة استدراك على الشرح، وكثيرًا ما تؤلف هذه الحواشي بعد تدريس شرح معين كما هو معروف في الطريقة التقليدية في التعليم؛ فمن خلال التدريس يلتفت إلى جزئيات قد تكون فاتت الشارح فيستدرك بها بحاشية، وهذا ما نجده عند سعيد قدورة مثلاً الذي أشار في مقدمة حاشيته أن الزوائد التي زادها لم تكن عند الشيخ السنوسي ولا عند عبد القادر الراشدي القسنطيني الذي سبقه في وضع حاشية على شرح أم البراهين. يقول سعيد قدورة عن الهدف من وضعه هذه الحاشية يقول:"تذكرة لنفسي ولمن أراده من الإخوان والأصحاب، مما لم يذكره الشيخ في شرحه لهذا الكتاب، ومما لم يذكره أيضًا شيخ شيوخنا أبو محمد عبد القادر بن أحمد الراشدي في عقيدته"[41].

وأحيانًا تذكر هذه الإضافات على أنها تقييدات كما ذكر الدسوقي في حاشيته إذ يقول:" هذه تقييدات على شرح أم البراهين لمؤلفها سيدي محمد بن يوسف السنوسي"[42]. من العلماء الذين وضعوا حاشية على أم البراهين مصطفى الرماصي الذي تعد حاشيته عملاً ضخمًا بالنظر إلى حجمها[43]. وما دامت أم البراهين متنًا وشرحًا درست في معظم أقطار العالم الإسلامي وضعت حواشي عديدة عليها في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية ومن هذه الحواشي:

- حاشية الحسين الورتلاني على شرح عيسى السكتاني.
- حاشية سعيد قدورة على شرح أم البراهين.
- إتحاف المغرم المغرى في تكميل شرح الصغرى للمقري التلمساني.
- حاشية إبراهيم البيجوري.
- حاشية الدسوقي على أم البراهين لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي.
- حاشية يحي الشاوي.
- حاشية عبد القادر الراشدي القسنطيني.
- حاشية أبوراس المعسكري.
- حاشية عبد الرحمان الأخضري.

٤ -**المنظومات.** مما يؤكد مكانة أم البراهين متنًا وشرحًا بين المصادر الإسلامية إذا تعدد أوجه الاهتمام بها فكما وضعت حولها شروحًا وحواشي تمت بلورتها في منظومات ودائمًا الغرض من ذلك هو تيسير حفظها وتعلمها وتعليمها، ومن أهم المنظومات التي لخصت فيها أم البراهين منظومة المقري التلمساني الشهيرة بـ:**إضاءة الدجنّة في اعتقاد أهل السنّة**، وهي منظومة في العقيدة طويلة بلغت نحو ٥٠٠ بيت، وقد قيل بأن تأليفها من قبل المقري التلمساني أنه حينما كان يدرّس صغرى السنوسي طلب منه أن يضع نظمًا في العقائد، فأخذ كلما أقرأ درسًا نظمه فيقرأه كذلك إلى أن أتمها. وقد بدأ في تأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة ١٠٢٩ هـ وأتمها في القاهرة سنة ١٠٣٦ هـ.

وتولى المقري بنفسه تدريس منظومته هذه في أقطار إسلامية كثيرة؛ فقد درّسها في الحجاز في الحرمين الشريفين، وفي مصر بالجامع الأزهر وبالإسكندرية. وفي الشام في الجامع الأموي بدمشق، و في المسجد الأقصى ببيت المقدس. وهذا دليل على المكانة الكبيرة التي كانت لأم البراهين متنًا وشرحًا في العالم الإسلامي، وكتب لهذه المنظومة الانتشار فصارت تضاهي من ضمن المتون الكبيرة التي كانت تدرّس في العقائد في ذلك الوقت. ولا تزال النسخ المخطوطة لها موزعة على المكتبات الإسلامية منها نسخة بمكتبة الأزهر، ومنها نسخة بمصالح التراث

بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر. ثم تداعت الاهتمامات بأم البراهين من خلال ما كتب حولها فكان الإقبال على شرح إضاءة الدجنة مثلا من طرف شراح كثيرين مثل: الشنقيطي، ومثل عبد الغني النابلسي في شرح له بعنوان:" **رائحة الجنة في شرح إضاءة الدجنة**".

٥- الترجمة: مما تميزت به أم البراهين ومما يدل على أهميتها أيضًا ترجمتها إلى اللغات الأجنبية، وهي خاصية لم تكن لجميع المصادر والمخطوطات الإسلامية في الجزائر أو في غيرها من بلاد الإسلام؛ لقد ترجمها إلى اللغة الألمانية الأستاذ وولف "ph. wolff"، وترجمها لوسياني " luciani" إلى اللغة الفرنسية ونشرت سنة ١٨٨٦م بأمر من رئيس الإدارة العام بالجزائر جول كامبون "j.cambon"(٤٤). وهكذا انتشرت أم البراهين في العالم الإسلامي انتشارًا واسعًا وهيمنت هيمنة واسعة وصارت لها المكانة الكبرى بين المصادر الإسلامية إلى درجة أن الدكتور أبو القاسم سعد الله لما قارنها بغيرها قال:" كأن الفكر الفلسفي والديني قد تجمد عندها فلم يعد قادرا على الخوض في مسائل التوحيد إلا من خلال عمل السنوسي"(٤٥). وهذا دليل على مركزية هذا النص الكلامي الجزائري ومكانته المتميزة بين المصادر الإسلامية.

خاتمة: مما سبق من التعريف بالإمام السنوسي وبكتابه أم البراهين متنًا وشرحًا ومن خلال بيان المكانة العلمية التي يحتلها هذا المتن بتجلياتها المختلفة يمكن تقرير النتائج الآتية:

١- من خلال التعريف بالإمام السنوسي كشفت لنا ترجمته على جوانب حياته الثرية التي بوأته مكانة العالم في التاريخ الإسلامي، من خلال الإشارة إلى مساره التعليمي الجاد، أو من خلال تراثه وإنتاجه العلمي الذي ساهم به في خدمة العلوم الإسلامية وبخاصة علم التوحيد الذي عرف به إلى درجة أنه صار حينما يترجم له يذكر لقب التوحيدي كما وجدنا ذلك في ترجمة الحفناوي له.

٢- نص أم البراهين متنًا وشرحًا من أهم نصوص العقيدة الإسلامية في زمانها ونافست المؤلفات التي جاءت من بعدها، وما يزال الاهتمام بها متواصلاً حتى اليوم من خلال عمل التحقيق الذي يتولاه بعض الباحثين هنا وهناك، وبخاصة بعض ما كتب حولها مما يعد امتدادًا لها بكيفية أو بأخرى.

٣- احتلت أم البراهين مكانة مرموقة بين المصادر الإسلامية في علم الكلام فانتشرت في العالم الإسلامي كله شرقًا وغربًا، فكانت موضوعًا يدرس وكانت متنًا وضعت حوله شروح، وكانت شرحًا وضعت حوله حواشي، ونظمت حوله منظومات...وغير ذلك. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على حضور المخطوط الجزائري في التاريخ الإسلامي ووصوله إلى احتلال المكانة المحترمة بين المصادر الإسلامية.

٤- بهذه المكانة التي تبوأتها أم البراهين أحدثت نتائج عالمية في الدرس الكلامي، فقد كانت محل إعجاب الباحثين المسلمين وغير المسلمين ممن اهتموا بترجمة التراث الإسلامي ضمن حركة الإستشراق، وبذلك عرفت بحركة الكتابة والتأليف التي كانت في الجزائر في القرن التاسع الهجري، وعرفت وقدمت للمتعلم المسلم عمومًا عقائد الإسلام بشكل موجز ومبسط. وهذا من عوامل انتشار وشهرة هذا المخطوط الجزائري.

الحواشي

١- أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، سلسلة الأنيس للعلوم الإنسانية، الجزائر ١٩٩١م، ج١، ص٢٠٧.
٢- ابن مريم: البستان في ذكرى العلماء والأولياء بتلمسان، دراسة وتحقيق: الدكتور عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط١ ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٣٧٥.
٣- جمال الدين بوقلي حسن: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م، ص٦٨.
٤- الإمام السنوسي، شرح العقيدة الوسطى، نقلا عن جمال الدين بوقلي حسن، الإمام بان يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص،٦٩.
٥- ابن مريم: البستان في ذكرى العلماء والأولياء بتلمسان، ص ٣٨٠.
٦- الإمام السنوسي: شرح العقيدة الوسطى، نقلا عن جمال الدين بوقلي حسن، الإمام بان يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص٧١.
٧- جمال الدين بوقلي حسن: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص٧٢.
٨- أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج١، ص٢١٦.
٩- المصدر نفسه والصفحة.
١٠- ابن خلدون: المقدمة، دار القلم بيروت (١٩٨٤م)، ص٥٣٢.
١١- أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج١، ص٢٠٧.
١٢- جمال الدين بوقلي حسن: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م، ص٧٧/٧٦.
١٣- أنظر المقدمة التي أنجزها مصطفى محمد الغماري في تحقيقه لشرح أم البراهين للإمام السنوسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (١٩٨٩)، ص٨/٧.
١٤- الإمام السنوسي: شرح أم البراهين في علم الكلام، تحقيق وتعليق مصطفى محمد الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر (١٩٨٩م)، ص١٩.
١٥- المصدر نفسه، ص٧٨.
١٦- المصدر نفسه، ص١٨.
١٧- المصدر نفسه، ص٢٠.
١٨- جمال الدين بوقلي حسن: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص٨٣.
١٩- الإمام السنوسي: شرح أم البراهين في علم الكلام ص٢٥.
٢٠- المصدر نفسه، ص ٢٩.
٢١- المصدر نفسه، ص٧٧.
٢٢- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٩٩٨م، ج٢، ص٩٢.
٢٣- ابن مريم: البستان في ذكرى العلماء والأولياء بتلمسان، ص٢٧٦.
٢٤- مصطفى الرماصي نقلا عن أبي القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج١، ٩١.
٢٥- السنوسي: شرح أم البراهين في علم الكلام ص١٩.
٢٦- ابن مريم: البستان في ذكرى العلماء والأولياء بتلمسان ص ٢٧٦.
٢٧- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج٢، ٩٣.
٢٨- المرجع نفسه، ص٩٤/٩٣.
٢٩- هو أبو عثمان سعيد بن إبراهيم قدورة، مفتي الجزائر في زمانه، توفي سنة ١٠٦٦هـ أنظر الحفناوي تعريف الخلف برجال السلف، ج١، ص٧١ وما بعدها.
٣٠- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج٢، ص٩٦.
٣١- سعيد قدورة ، حاشية على شرح أم البراهين، مخطوط.
٣٢- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج٢، ٩٣.
٣٣- أنظر المقدمة التي أنجزها مصطفى محمد الغماري في تحقيقه لشرح أم البراهين للإمام السنوسي، ص٩/٨.
٣٤- جمال الدين بوقلي حسن: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص٨٠.
٣٥- المرجع نفسه، ص٧٩.
٣٦- الإمام السنوسي: شرح أم البراهين في علم الكلام ص٢٠.
٣٧- ابن خلدون: المقدمة، دار القلم بيروت (١٩٨٤م)، ص٤٥٨.
٣٨- الإمام السنوسي: شرح أم البراهين في علم الكلام ص٢٠.
٣٩- محمد بن إبراهيم الملالي، شرح صغرى السنوسي، دراسة وتحقيق الباحث علي سالمي، مذكرة جامعية نوقشت بقسم العلوم الإسلامية بجامعة باتنة وكانت تحت إشرافنا. ص٣١.
٤٠- الشيخ أحمد بن عيسى الأنصاري ، شرح أم

البراهين بلا تاريخ ، ص١.

٤١- سعيد قدورة ، حاشية على شرح أم البراهين، مخطوط.

٤٢- محمد الدسوقي: حاشية الدسوقي على أم البراهين وشرحها، ضبط وتصحيح عبد اللطيف حسن عبد الرحمان، درا الكتب العلمية، ط١ ٢٠٠١، ص ٥.

٤٣- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج٢، ٩٧.

٤٤- جمال الدين بوقلي حسن: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص٨٢.

٤٥- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج٢، ٩٤.



الصفحتان الأولى والثانية من المخطوط



الصفحتان الأخيرة وما قبل الأخيرة من المخطوط

المصـــادر والمراجع

- جمال الدين بوقلي حسن: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م .
- ابن خلدون: المقدمة، دار القلم بيروت (١٩٨٤م)
- الإمام السنوسي: شرح أم البراهين في علم الكلام، تحقيق وتعليق مصطفى محمد الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (١٩٨٩م).
- أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، سلسلة الأنيس للعلوم الإنسانية، الجزائر ١٩٩١م.
- محمد بن إبراهيم الملالي، شرح صغرى السنوسي، دراسة وتحقيق الباحث علي سالمي، مذكرة جامعية نوقشت بقسم العلوم الإسلامية بجامعة باتنة.
- محمد الدسوقي: حاشية الدسوقي على أم البراهين وشرحها، ضبط وتصحيح عبد اللطيف حسن عبد الرحمان، درا الكتب العلمية، ط١ ٢٠٠١م.
- ابن مريم: البستان في ذكرى العلماء والأولياء بتلمسان، دراسة وتحقيق : الدكتور عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط١ ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- مصطفى محمد الغماري تحقيق شرح أم البراهين للإمام السنوسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (١٩٨٩م).

المِيزَانُ الوَفِـي
في اللَّحْنِ الجَليِّ والخَفِي

للشيخ الإمام عبد العزيز بن أحمد الدُيرِيني

(٦١٢ - ٦٩٤هـ)

تحقيق وتعليق

د. طه محمد فارس

المِيزَانُ الوَفِي في اللَّحْنِ الجَليِّ والخَفِي

المِيزَانُ الوَفِي في اللَّحْنِ الجَلِيّ والخَفِي

المقدمة

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على سيدنا رسول الله ومن والاه،

وبعد،

فقد دَأَبَ العلماءُ قديمًا وحديثًا على خِدمة كتاب الله، والاهتمام بكافة العلوم التي تتعلّق به، فهمًا واستنباطًا وتلاوةً وإتقانًا، لعلمهم بأنّ شرفَ العِلم متعلّق بشرف المعلوم، ولا ريبَ أنّ أشرف العلوم على الإطلاق هو علم كتاب الله تعالى.

وكان من جملة فُرسان هذا الميدان الشيخُ الإمام عبد العزيز الديريني، الذي تعدّدت جوانبُ اهتمامه بكتاب الله وعلومه، وكان من أبرز أعماله المطبوعة أرجوزته النادرة في التفسير، التي تزيد على ثلاثة آلاف ومائتي بيت.

وها نحن اليوم نقف له على أثر مخطوط، تبرز فيه براعته واهتمامه بإتقان تلاوة كتاب الله، في أهمّ مبحث من مباحث التّجويد، ألا وهو اللحن الجليّ والخفيّ، الذي لا يُدْرك دقائقه وأبعاده إلّا من بلغ الغاية في الدّقّة والإتقان لتلاوة كتاب الله تعالى.

فقد أفرد الإمام الدّيريني هذا المبحث بأرجوزته التي بلغت (٨٧) بيتًا، تناول فيها صورًا كثيرة من اللحن الجليّ والخفيّ الذي يقع فيه القارئُ لكتاب الله، ثم عرّج في آخرها على صور من اللحن الذي يقع به المؤذنون والمُحْرِمُون في الصّلاة.

وقد كان هذا المبحث موضع اهتمام من علماء التجويد، إلا أنهم تعرّضوا له في أثناء كتبهم ومنظوماتهم، ولم أقف قبلُ ـ في حدود علمي ـ على من أفرد هذا المبحث بنظم مستقلّ موسّع، وهو ما دفعني على إخراج هذا النّظم والاهتمام به، على الرّغم من أنّي لم أظفر إلا بمخطوطة يتيمة واحدة لهذا النظم.

فالله أسألُ أن يوفقني لما قصدت، ويجعلني من خدمة كتابه وعلومه، ويجعل القرآن لي نورًا وحجة وهداية، والحمد لله ربّ العالمين.

كتبه

د. طه محمد فارس

قسم الدِّرَاسَة

المبحث الأول

ترجمة ناظم قصيدة (الميزان الوفي) (1)

أولًا: اسمه وكنيته ولقبه ونسبه:

عبد العزيز بن أحمد بن سعيد بن عبد الله، أبو محمد، عزُّ الدِّين(2)، الدَّمِيري(3)، الدِّيرِيني(4)، المصري.

ثانيًا: مولده ونشأته:

ولد الشيخ في قرية دِيرين، ونشأ بها، وذلك في سنة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة وستمئة للهجرة، وأخذ عن علماء عصره وتتلمذ عليهم، كان متقشِّفًا في معيشته مُخشَوْشِنًا، يتردَّدُ في الرِّيف والنَّواحي من ديار مصر، ليس له مستقر.

ثالثًا: علمه ومكانته وأخلاقه:

من أعلام العلماء، وسادة الصلحاء، برع في فنون عِدَّة، فكان مفسِّرًا، قارئًا، فقيهًا، مُتكلِّمًا، مُؤرِّخًا، أديبًا، واعِظًا، قدوةً، صُوفيًّا، اشتهر بسرعة النَّظم، وكثرة المصنفات، إلى جانب ما تميَّز به من زُهد في الدُّنيا، وتقوىً لله تعالى، وسلامة باطن، وحسن خلق.

قال ابن حبيب: ومؤلفاته تَدلُّ على إعانة إلهيَّة(5).

رابعًا: مذهبه الفقهي:

كان فقيهًا شافعيًا، فقد نظم (التنبيه) في فروع الشافعية لإبراهيم الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، كما نظم (الوجيز) في فروع الشافعية لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) في قريب من خمسة آلاف بيت على حرف الراء، وشرع في نظم الوسيط للغزالي أيضًا، وله الدُّرر الملتقَطة في المسائل المختلطة.

---

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨: ١٩٩، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢: ١٨١، طبقات الشافعية للأسنوي ١: ٢٦٩، تاريخ الإسلام ٥١: ٣٣٢، طبقات المفسرين للأدنه وي ص٢٥٦، طبقات الأولياء لابن الملقن ص٤٤٧، حسن المحاضرة ١: ٤٢١، شذرات الذهب ٧: ٧٨٤، الوافي بالوفيات ١٨: ٤٦٨، الكواكب الدرية للمناوي ٢: ٤٤٤، كشف الظنون ١: ٩٢٤، إيضاح المكنون ٢: ٦٠٤، هدية العارفين ١: ٥٨٠، معجم المؤلفين لكحالة ٥: ٢٤١، الأعلام للزركلي ٤: ١٣، معجم المفسرين لنويهض ١: ٢٨٥.

(2) وقيل: ضياء الدين.

(3) نسبة إلى بلدة (دميرة)، وهي قرية كبيرة بمصر قرب دمياط وقرب ديرين، فلعله أقام بها. انظر: معجم البلدان ٢: ٤٧٢.

(4) نسبة إلى (دِيْرِين) بلدة بالديار المصرية، كانت تابعة لمحافظة الغربية آنذاك، أما الآن فهي تابعة لمركز نبروه بمحافظة الدقهلية. وقبره بها.

(5) انظر: الكواكب الدرية للمناوي ٢: ٤٤٦.

خامسًا: شيوخه:

أخذ الشيخ الدِّيريني عن كثير من علماء وشيوخ عصره، وقد نظم أرجوزة أورد فيها أسماء شيوخه الذين صحبهم وأخذ عنهم[1]، ومن أبرز شيوخه: العِزُّ بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ)، وأبو الفتح الواسطي، وتاج الدِّين عبد الوهاب بن خلف (ت٦٦٥هـ)، وأبو القاسم جمال الدِّين عبد الرحمن بن عبد المجيد الصفراوي (٦٣٦هـ)، وغيرهم.

قال ابن قاضي شهبة: "أخذ عن الشيخ عزّ الدِّين بن عبد السلام وغيره ممن عاصره، ثمّ صحب أبا الفتح ابن أبي الغنائم الرَّسْعني وتخرَّج به"[2].

سادسًا: تلامذته:

صحبه جماعة كثيرة من العلماء وانتفعوا بصحبته، وقد كان النَّاس يقصدونه للتبرُّك به، ويرسلون له من مصر مشكلات المسائل فيجيب عنها بأحسن جواب[3].

سابعًا: مؤلفاته:

كان الشيخ الدِّيريني مُكثِرًا في التَّصنيف، وكان إذا صنَّف كِتابًا في بلد تركه فيها ولم يحمله، ومن كتبه ما طُبِع، ومنها ما يزال مخطوطًا، وسأتناول المخطوط منها أولًا، ثُمّ أتبِعُه المطبوع:

أ. مؤلفاته المخطوطة:

- **الكفاية في تفسير القرآن** (تفسير): من مخطوطات خزانة جامع القرويين بفاس المغرب برقم: ٩٣٤، ويوجد منه مصورة لجزئيه في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٥٧٧١٦١، ٥٧٧١٦٢.

- **المصباح المنير في علم التفسير** (تفسير): ذكره ابن قاضي شهبة ٢: ٢٣٤، وابن العماد في شذرات الذهب ٧: ٧٨٥، والداوودي في طبقات المفسرين ١: ٣١٢، والبغدادي في هدية العارفين ١: ٥٨١.

- **منظومة في ترتيب نزول القرآن الكريم** (علوم قرآن): من مخطوطات مكتبة الدولة بألمانيا ـ برلين، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد برقم: ٦٩٠٤٧٩.

- **نظم غريب القرآن** (علوم قرآن): ذكره السبكي وابن قاضي شهبة.

- **أرجوزة في وجوه (كلا) في القرآن**، ذُكِرت في الفهرس الشامل للتراث ـ قسم التجويد ١: ١٠٨، وأشاروا إلى أنها في دار الكتب ـ المنصورة، وقد نقل الإمام الزركشي[4] منها:

وما نَزلتْ كَلَّا بيثرب فاعْلَمَنْ ... ولم تأتِ في القُرآن في نصفه الأعلى

---

(١) انظر الأرجوزة: طبقات الأولياء لابن الملقن ص٤٢٤ ـ ٥٣٣.

(٢) انظر: طبقات الشافعية ـ لابن قاضي شهبة ٢: ١٨١.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى للشعراني ١: ٢٠٢ برقم ٢٩٣.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن ١: ٣٦٩.

- **الميزان الوفي في اللحن الجلي والخفي** (تجويد): ذكره البغدادي[1]، وهو من مخطوطات مكتبة مكة المكرمة، وهو موضوع البحث والتحقيق، وسأتناوله - إن شاء الله - بالحديث مفصلًا في المبحث الآتي.

- **رسالة في المقصور والممدود** (تجويد): من مخطوطات السعودية - الرياض برقم١٣٥٩١، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٥٩٣٣٠٢.

- **منظومة في الفرق بين التاء والثاء** (تجويد): من مخطوطات مكتبة الدولة بألمانيا - برلين، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد برقم: ٦٩٩٦٢٦.

- **منظومة في الفرق بين الدَّال والذَّال** (تجويد): من مخطوطات مكتبة الدولة بألمانيا - برلين، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد برقم: ٦٩٩٦٣٠.

- **منظومة في التَّجويد** (تجويد): من مخطوطات مكتبة تشستربتي بدبلن برقم ٣٨٤٩، ويوجد منها مصوَّرة في مركز جمعة الماجد برقم: ٢٤٤٤٢٨.

- **أرجوزة في الفاتحة** (تجويد): من مخطوطات المكتبة الأزهرية بالقاهرة برقم ٦١٥٩، ويوجد منها صور في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٢٤٨١٢٥- ٤٩٨٠٧٠.

- **قصيدة وشرحها في ظاءات القرآن**، ذكرت في الفهرس الشامل ١: ١٠٩، وهي في مكتبة بلدية الإسكندرية.

- **مخارج الحروف**، ذكرت في الفهرس الشامل ١: ١٠٩، من الفهرس الجامع في تركيا - إنطاليا.

- **الوسائل الإلهية والرسائل المحمدية**، أو **الوسائل والرسائل** (عقيدة): وهو نظم على حروف المعجم، في كلِّ حرف خمسون بيتًا، ذكر اسمه مختصرًا ابن قاضي شهبة، والمناوي في الكواكب الدرية، والداوودي في طبقات المفسرين .

- **أركان الإسلام في التوحيد والأحكام**، أو **الأركان في المذاهب الأربعة** (عقيدة): من مخطوطات مكتبة الدولة بألمانيا - برلين، ويوجد منه مصورة في مركز جمعة الماجد برقم: ٦٦٨٣٠٩، وقد ذكره البغدادي في هدية العارفين ١: ٥٨١.

- **الشجرة في ذكر النبي ﷺ وأصحابه العشرة** (سيرة نبوية): من مخطوطات الظاهرية بدمشق برقم ٥٨٨٣؛ والأزهرية بالقاهرة برقم ٩٧٥٣٨، ويوجد منهما مصوَّرة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٢٤٦٢٦٣، ٥١٧٠٩٩ ، ٤٥٠٦٣٦.

- **شرح قصيدة** (بانت سعاد): من مخطوطات دار الكتب المصرية بالقاهرة، مجاميع طلعت برقم ٤٧٢.

- **نظم الوجيز لأبي حامد الغزالي** (فقه شافعي): ذكره الصفدي والسبكي وابن قاضي شهبة.

(١) هدية العارفين ١: ٥٨١.

- **نظم الوسيط لأبي حامد الغزالي** (فقه شافعي): ذكره ابن قاضي شهبة.

- **نظم التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي** (فقه شافعي): ذكره السبكي وابن قاضي شهبة.

- **الدرر الملتقطة في المسائل المختلطة** (فقه شافعي): من مخطوطات المكتبة الأزهرية بالقاهرة برقم ٣٩٩٦، ورقم: ٩٧٩٢١؛ وجامعة برنستون في الولايات المتحدة، ويوجد منهما مصوّرة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٥٠١٠٧٢ ، ٥١٧٧٣١، ٥١٨٢٣٦، ٢٣٢٩٨١.

- **مثلث اللغة** (لغة): من مخطوطات الظاهرية بدمشق، ويوجد منها مصوّرة في مركز جمعة الماجد بدبي بأرقام: ٢٢٧٤٥٣ ، ٢٢٧٤٥٣، ٢٢٧٥١٥ ، ٢٢٧٥١٦.

- **نظم مثلث قطرب** (لغة): من مخطوطات دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ٢٣٢٣٩، ومكتبة تشستربتي بدبلن برقم ٣٤٨٦، ويوجد منهما مصورة في مكتبة جمعة الماجد بدبي برقم: ٣٦٩٥٧٣- ٣٧٤٧٤٦.

- **تخميس في النحو** (لغة): من مخطوطات السعودية بالرياض برقم: ٨٠٦، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٥٦٢٥٠٨.

- **المورث لمشكل المثلث لقطرب** (لغة): من مخطوطات خزانة الزاوية الناصرية في المغرب - تامكروت برقم: ٢٧٨٦، ومن مكتبة ابن يوسف بمراكش برقم: ٢٢٩، ويوجد منهما مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٥٧٥٠٨٩، ٥٧٥٠٩٠. وذكره البغدادي في هديته ١: ٥٨١.

- **الروضة الأنيقة في بيان الشريعة والحقيقة** (تصوف): ذكره صاحب كشف الظنون ١: ٩٢٤، وهو من مخطوطات الظاهرية بدمشق برقم: ٩١٤٣، ومخطوطات مكتبة تشستربتي بدبلن برقم: ٥٤٢١؛ ويوجد منهما مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم:٢٢٩٢١٧، ٢٤٥٨٣٩.

- **سِرُّ الأَسْرَارِ وسير الأبرار** (تصوف): من مخطوطات الأزهرية بالقاهرة برقم: ٩٣٦٤٤، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد برقم: ٥١٧٦٣٦.

- **إحياء القلوب بذكر الملك المحبوب** (تصوف): من مخطوطات الأزهرية بالقاهرة برقم: ٣٤٠٨٨، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد برقم: ٤٧٣٦٣٦.

- **التنبيهات الحسان في معنى الإحسان** (تصوف): من مخطوطات مكتبة مكة المكرمة برقم: ١١٨، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد برقم: ٦٠٥٧٧٠.

- **أنوار المعارف وأسرار العوارف** (تصوف): ذكره ابن قاضي شهبة في طبقاته ٢: ٢٣٤، والمناوي في الكواكب الدرية ٢: ٤٤٥، والداوودي في طبقات المفسرين ١: ٣١٢.

- **البهجة الصغرى في مناقب الشيخ الرباني** (تاريخ وسير): من مخطوطات الظاهرية بدمشق برقم ٧٤٩٩، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٢٣٩٧٧٠.

- **أرجوزة في معرفة أوقات الظهر والعصر بالأقدام** (فلك): من مخطوطات دار الكتب المصرية

بالقاهرة برقم: ٣٤٥، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم:٣٧٠٣٣٤.

- **اليواقيت في علم المواقيت (فلك)**: من مخطوطات الأزهرية بالقاهرة برقم ٩٧٥٣٨، ويوجد منها مصوَّرة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٥١٧١١٩، ٥٣٠٠٠٢، ٤٤٣٠٧٢.

- **قطف الزَّهرات في العمل بربع المقنطرات**: من مخطوطات دار الكتب المصرية بالقاهرة، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم ٣١٧٣١١.

- **الحرز اليماني بدعاء السيد عبد العزيز الديريني**: من مخطوطات دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم: ٣٩٧٤٥، ويوجد منها مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي برقم: ٤٥٥٧٩٢.

ب ـ مؤلفاته المطبوعة:

١ـ طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (تصوف)، طُبع عدة طبعات قديمة.

٢ـ المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (عقيدة)، طبعة قديمة.

٣ـ التيسير في علوم التفسير، أرجوزة في التفسير تزيد على ثلاثة آلاف ومائتي بيت (تفسير)، طبع عدة طبعات.

٤ـ إرشاد الحيارى وردع من مارَى في اختلاف النصارى (عقيدة وفرق).

٥ـ غاية التحرير في نسب قطب العصر غوث الزمان سيدنا أحمد الرفاعي الكبير، نشر المطبعة العمومية ـ القاهرة، ط/ ١٣١٥هـ.

٦ـ قلادة الدُّر المنثور في ذكر البعث والنشور (عقيدة)، تحقيق الدكتور عبد الحكيم الأنيس، نشر دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي.

٧ـ الأنوار الواضحة في تفسير سورة الفاتحة (تفسير).

٨ـ أبيات في الظاءات وشرحها (قراءات): بتحقيق الدكتور محمد محمد عثمان يوسف، نشر مكتبة الآداب ـ القاهرة.

ثامنًا: من شعره:

اشتهر الديريني بنظم العلوم، وتعدَّدَت أغراضُه من شعره، من ذلك قوله(1):

اقتصدْ في كلِّ حالٍ واجتنبْ شُحًّا وغُرْمَا
لا تكنْ حُلْوًا فتُؤكَلَ لا ولا مُرًّا فتُرمَى

وقوله :

إذا مَا مَاتَ ذُو عِلْمٍ وَتقوى فقد ثُلِمَت منَ الإسلامِ ثُلْمَه
ومَوْتُ العادِلِ الملكِ المرجَّى حكيمِ الحقِّ منقصَةٌ وَوَصْمَه

(1) انظر: الطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨: ٢٠١.

وموتُ الصالحِ المرضيِّ نقصٌ	ففي مرآهُ للإسلامِ نَسمَه
وموتُ الفارسِ الضِّرغامِ ضعفٌ	فكم شَهِدتْ له في النَّصرِ عزمَه
وموتُ فتىً كثيرِ الجودِ محْلٌ	فإنَّ بقاءهُ خِصبٌ ونعمَه
فحسبُكَ خمسةٌ تبكي عليهم	وموتُ الغيرِ تخفيفٌ ورحمَه

ثاني عشر: وفاته:

اختُلِفَ في تاريخ وفاة الديريني اختلاف كبير، وتعدَّدت الأقوال في ذلك ما بين سنة ٦٨٨هـ، وسنة ٦٩٩هـ فذهب الذهبيُّ إلى أنَّ وفاته كانت سنة ٦٨٨هـ وأمَّا السبكي والمناوي وابن قاضي شهبة (وصوَّبه) فقالوا: سنة ٦٩٤هـ، وقال الأسنوي والسيوطي وابن الملقن والشعراني: سنة ٦٩٧هـ وأمَّا ابن العماد فقال: سنة ٦٩٩هـ مع تقريره الخلاف في ذلك(١).

****

المبحث الثاني

دراسة مخطوط (الميزان الوفي)

أولًا: عنوان المخطوط ونسبته إلى مؤلفه:

ذكر البغداديُّ المخطوطَ في هدية العارفين(٢) منسوبًا للديريني بعنوان: (ميزان الوفي في اللحن الجلي)، وأما ناسخه مصطفى محمد عبد الغني الشافعي فقد أثبت العنوان على الصفحة الأولى منه: (الميزان الوفي في اللحن الجلي والخفي)، وكلا العنوانين لا يبعدان عمَّا ذكره الدِّيريني في منظومته؛ حيث قال:

فاعْتَبِرِ النُّطْقَ بِمِيْزَانٍ وَفِيْ	تَسْلَمْ مِنَ اللَّحْنِ الجَلِيِّ والخَفِيْ

وأما نسبة المخطوط إلى الديريني فيؤكِّدها آخر الأرجوزة، وذلك في البيت (٨٦)، فقد قال فيه:

وَجُدْ عَلَى عُبَيْدِكَ الدَّيْرِيْنِي	عَبْدِ العَزِيْزِ الوَجِلِ المِسْكِيْنِ

وأكثر من ترجم للديريني نسبَ المنظومة له عند ذكرها.

ثانيًا: نسخة المخطوط ووصفها:

للمخطوط الذي بين أيدينا نسخة واحدة يتيمة، ضمن مجموع هي الأُولى فيه، من مكتبة مكة المكرمة، مجموع رقم: (١١٨ تصوف)، وقد أُشير في صفحة التَّوثيق قبل صفحة العنوان أن المخطوط من مكتبة القدس، ضمن مجموع برقم: ١١١٥ تصوف.

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٥١: ٣٣٢، طبقات الشافعية للسبكي ٨: ١٩٩، طبقات الشافعية للأسنوي ١: ٢٦٩، طبقات الشافعية - لابن قاضي شهبة ٢: ١٨٢، شذرات الذهب ٧: ٧٨٤، الكواكب الدرية ٢: ٤٤١، طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٤٤٧، الطبقات الكبرى للشعراني ١: ٢٠٢ برقم ٢٩٣.

(٢) هدية العارفين ١: ٥٨١.

ويوجد من المخطوط نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد بدبي، وهي برقم: (٦٠٥٧٦٨)، وهي في ثلاثة أوراق، كُتبت بخط نسخي واضح معتاد، في صفحة العنوان يوجد اسم الناسخ وختمه وهو: مصطفى محمد عبد الغني الشافعي، وفيها تملك باسم محمد بن أحمد الريان، وكلُّ صفحة من صفحاته تحوي (١٧) سطرًا، وقد ضُبطت فيه بعض الكلمات، وكتب بعضها باللون الأحمر، كما وضعت بعض العلامات والإشارات بلون مغاير.

والمخطوط بحالة جيدة، إلا أنَّ رطوبة أصابته فغيَّرت وضوح بعض أحباره، إلا أنَّها لم تمنع من قراءته.

ثالثًا: موضوع المخطوط:

يتحدَّث الدِّيريني في منظومته التي بين أيدينا عن موضوع دقيق مهم من مواضيع علم التجويد لكتاب الله تعالى، وهو اللَّحن الجليّ والخفيّ، وذلك من خلال أرجوزته المكونة من (٨٧) بيتًا.

ويُقصد باللَّحْنِ أو اللَّحَن: تركُ الصَّواب في القراءة، وإمالةُ الكلام عن جهته الصحيحة في العربية، أو هو الخلل الذي يطرأ على الألفاظ فيُخِلُّ بها [(١)].

وتجويد القرآن كما عرَّفه أهلُ الشَّأن: هو صَونُ اللسان عن اللَّحن في تِلاوة القرآن الكريم، وقراءته قراءة سهلة عذبة حلوة لطيفة، لا تَعسُّف فيها ولا تكلُّف، ولا تصنُّع ولا تنطُّع[(٢)].

واللحن كما أشار الدِّيريني يقسم إلى قسمين: لحن جليّ، ولحن خَفيّ[(٣)]، فمن أقام قراءته على الميزان الوفي واجتنب اللَّحن بنوعيه فقد جوَّد قراءة القرآن.

واللَّحْن الجَلِيُّ في الاصطلاح: هو كلُّ خطأ يُخِلُّ إخلالًا ظاهرًا يشترك في معرفته علماءُ القِراءة وغيرُهم، كالخطأ في التشكيل الذي يُخِلُّ بالمعنى أو الإعراب، أو تغيير حرف أو كلمة، أو إشباع حركة يتولَّدُ عنها حرف[(٤)].

وأمَّا اللَّحْن الخَفيّ في الاصطلاح: فهو الخطأ الذي يطرأ على اللفظ فيخلُّ بِعُرف القراءة إلَّا أنَّه لا يخِلُّ بالمعنى، وسُمِّي خفيًّا؛ لأنَّ معرفته تختصُّ بالعالِمين بأصول القراءة، ممن تلقُّوا القراءة مشافهة عن العلماء والمُتقنين من أهل الأداء.

(١) انظر: مقاييس اللغة ٥: ٢٣٩، لسان العرب ١٣: ٣٧٩، النشر ١: ٢١١.

(٢) انظر: النشر في القراءات ١: ٢١٣. قال الشيخ زكريا الأنصاري في شرح المقدمة ص٦٥: "والغرض من القراءة إنما هو تصحيح ألفاظها على ما جاء به القرآن العظيم، ثم التفكر في معانيه".

(٣) انظر: جمال القراء ٢: ٥٢٩، النشر في القراءات ١: ٢١١، الإتقان ٢: ٦٤٠، شرح المقدمة للأنصاري ص٥٨، المنح الفكرية ص١١٢.

(٤) قال ابن الطحان في الإنباء ص٣٠: "والحركة الكاملة.. لو مُطِّلت لتولَّد عنها حرف من نوعها، فمن إشباع الفتحة تتولد الألف، ومن إشباع الضمة تتولد الواو، ومن إشباع الكسرة تتولد الياء، ووزن الحركة في التحقيق نصف الحرف المتولِّد عنها، ولذلك سَمُّوا الفتحة: الألف الصغرى، والكسرة: الياء الصغرى، والضمة: الواو الصغرى..".

وعليه فيمكن تقسيم اللّحن الخفي إلى قسمين:

الأول: ما لا يعرفه إلا علماء القراءة، كترك الإخفاء، والإدغام، والمَدّ، ونحوها.

الثاني: ما لا يعرفه إلا المهرة من القرّاء كتكرير الراءات[1]، وقلقلة السواكن[2]، واختلاس الحركات[3]، وتوليد الحروف من الحركات[4]، وتطنين الغنات[5]، وعدم تحقيق حركات الحروف[6]، وما شابهها.

ولم يلتزم الشيخ الديريني في نظمه ببيان نوع اللحن، جليًا كان أو خفيًا.

رابعًا: عملي في المخطوط:

١- نَسْخُ مخطوط (الميزان الوفي ..)، متّبعًا الطرق الإملائية الحديثة في الكتابة.

٢- ضبط ألفاظ النظم ضبطًا كاملًا، مع التّدقيق في صحّة وزن الأبيات، وترقيمها.

٣- التعليق على أبيات النظم وبيان المراد منها.

٤- وضعُ رقم ورقة المخطوط مع جهتها، بين قوسين مغلقين [ ] على جانب الصفحة، والإشارة إلى بداية صفحة المخطوط بخط مائل /.

٥- وضع فهرس لمصادر ومراجع التحقيق والدراسة والتعليق.

---

(١) قال مكي بن أبي طالب: ولا بد في القراءة من إخفاء التكرير. انظر: الرعاية ص١٣١. وطريقة السلامة من التّكرير: هو أن يلصق القارئ ظهر لسانه بأعلى حنكه لصقًا محكمًا مَرّة واحدة. انظر: المنح الفكرية ص١٠٩.

(٢) قال ابن الطحان في الإنباء ص٣٥: "فلا يحسن السكون في الحرف إلا بمقدار ما تظهر صفته، أو تبرز هيئته من غير قطع مسرف ولا فصل متعسف، فاحرس لفظك من اللحن في السكون ...".

(٣) ويقصد به: الإسراع بالحركة إسراعًا يحكم السامع به أن الحركة قد ذهبت، وهي كاملة في الوزن والصفة، أو حتى يظن السامع أن المسموع سكون لا حركة، وقيل: هو عبارة عن النطق بثلثي الحركة، وهذا إنما تحكمه المشافهة. انظر: الإنباء لابن الطحان ص٣٢، ومقدمة في أصول القراءات لابن الطحان ص٤٥، القواعد والإشارات ص٥٢، الإضاءة ص٣١.

(٤) وذلك بأن يتولد عن الحركة حرف من جنسها، نتيجة زيادة زمن النطق بالحركة.

(٥) وهو ترقيص الغُنّة والتّرنُّم الزائد فيها.

(٦) فتحقيق الضم يكون بضم الشفتين، وتحقيق الكسر يكون بانخفاض الفك السفلي، أما الفتح فيكون بفتح الفم، قال شهاب الدين أحمد ابن أحمد الطّيبي في منظومته (المفيد في التجويد) ص٦ - ٧:

وكلُّ مضمومٍ فلن يتمَّا	إلَّا بضمِّ الشفتين ضمَّا
وذُو انخفاضٍ بانخفاضٍ للفمِ	يتمُّ والمفتوحُ بالفتح افهمِ
فإن ترَ القارئ لن تنطبقا	شفاهُهُ بالضمِّ كن محقّقَا
بأنَّه منتقص ما ضمَّا	والواجبُ النطق به مُتمَّا
كذاك ذُو فتحٍ وذو كسرٍ يجب	إتمام كلٍّ منهما افهمه تُصب

خامسًا: صور من المخطوط:



صفحة عنوان المخطوط



اللوحة الأولى من المخطوط



اللوحة الأخيرة من المخطوط

قسم التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم

١ـ سُبْحَانَ مَنْ بَيَّنَ بِالتَّنْزِيلِ ... مَوَاقِعَ التَّجْوِيدِ والتَّرْتِيلِ[1]

٢ـ فَاعْتَبِرِ النُّطْقَ بِمِيزَانٍ وَفِيّ ... تَسْلَمْ مِنَ اللَّحْنِ الجَلِيِّ والخَفِي[2]

٣ـ أَوَّلُ مَا تَأْتِي بِبَاءِ البَسْمَلَةْ ... سَرِيعَةً خَفِيفَةً مُسَهَّلَةْ[3]

٤ـ أَسْرِعْ بِهَا وَاحْذَرْ مِنَ التَّشْدِيدِ ... فَشَدُّهَا يُفْضِيْ إِلَى المَقْصُودِ[4]

٥ـ وهكذا إِنْ تَأْتِ بَعْدَ سَاكِنْ ... وَبَعْدَ إِخْفَاءٍ وَقَلْبُكَ آمِنْ[5]

٦ـ ([مِنْ][6] بَعْدِ) (أَنْبِئْهُمْ)[7] وَقُلْ (اعْلَمْ بِمَا)[8] ... فِيْ مَذْهَبِ السُّوسِيْ[9] يُضَاهِي المُدْغَمَا

٧ـ وَأَحْرُفُ القَلْقَلَةِ المَشْهُورَهْ ... فِيْ قُطْبِ جَدٍّ) قَدْ أَتَتْ مَعْمُورَهْ[10]

---

(١) ويقصد بذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، فحقُّ التلاوة للقرآن: يكون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة بالسند المتصل إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام [النشر في القراءات العشر ١: ٢١٠]، وقيل: حق التلاوة للقرآن هو بإتقان قراءته، وتدبُّر معانيه، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، وعدم تحريفه عن مواضعه [تفسير ابن كثير ١: ٤٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]؛ أي: اقرأه على تمهُّل؛ ليكون ذلك أدعى لفهم القرآن وتدبُّره [تفسير ابن كثير ٨: ٢٥٠].

(٢) وقد سبق أن بيَّنتُ معنى اللحن الجلي والخفي في المبحث الأول من الدراسة.

(٣) أي: غير مشددة.

(٤) أي: يفضي إلى اللحن الذي نُظِمَت الأرجوزة للتحذير منه.

(٥) أي: ومثل ذلك يكون حكم الباء إن جاءت بعد نون أو ميم ساكنتين، في حكمي الإقلاب والإخفاء الشفوي، فلا ينبغي تشديدها، وكز الشفتين عند النطق بها، بل يأتي بها القارئ بإطباق خفيف للشفتين [في الرأي الراجح في ذلك].

(٦) زيادة يقتضيها السياق، لايستقيم المعنى والوزن بدونها.

(٧) أمثلة لمجيء الباء بعد النون الساكنة في كلمة وفي كلمتين، ومجيئها بعد الميم الساكنة: ﴿مِن بَعدِ﴾، ﴿أَنبِئْهُم﴾.

(٨) من قوله تعالى: ﴿ أَعْلَمُ بِمَا ﴾ حيث ورد، أو ﴿ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾، وما شابه ذلك من مجيء الميم المتحركة وبعدها باء، فعند جمهور القراء لا شيء فيها، أما عند السوسي فهي مخفاة إخفاء شفوياً، يشبه الإدغام من حيث التنويب.

(٩) السُّوسيُّ (ت ١٧٣ ـ ٢٦١هـ): صالح بن زياد بن عبد الله الرُّستبي، أبو شعيب، السُّوسِي (ت٢٦١هـ) (نسبة إلى السوس، وهي مدينة بخوزستان)، الرَّقّي (نسبة إلى مدينة الرَّقّة المشهورة في بلاد الشام، الواقعة على مجرى الفرات): أحد راويي الإمام أبي عمرو البصري زبان بن العلاء التميمي (٦٨ ـ ١٥٤هـ)، انظر: معرفة القراء الكبار ١: ١٩٣؛ سير أعلام النبلاء ١٢: ٣٨٠، غاية النهاية ١: ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(١٠) يقصد أن حروف القلقلة مجموعة في (قطب جد)، وهذه الحروف يجب قلقلتها ليظهر صوتها؛ لما فيها من جهر وشدة، فالجهر يمنع جريان النفس، والشدة تمنع جريان الصوت والنفس، وأبينها صوتًا في الوقف القاف، وذلك لقربها من الحلق وقوتها في الاستعلاء. انظر: الرعاية لمكي ص١٢٥.

٨- والكافُ كَيْ لا تُرتَجى كَالقافِ[١] والطَّاءُ عَنْ تاءٍ وهذَا كَافِ[٢]

٩- والبَاءُ عَنْ مِيمِهِمْ وَالفَاءِ[٣] والجيمُ عن شِيْنٍ بِلا خَفَاءِ[٤]

١٠- وَالدَّالُ عن تاءٍ[٥] وحُسْنُ القَلْقَلَهْ تَقْوِيَةٌ لَطِيْفَةٌ مُسَهَّلَهْ[٦]

١١- وَالهَاءُ في اسْمِ اللهِ بَعْدَ فَتْحَهْ في اللاَّمِ قَدْ أتْبَعْتَهَا بِفَتْحَهْ[٧]

١٢- وَرُبَّمَا يَسْبِقُهَا[٨] فِي الرَّفْعِ واوٌ فَدَافِعْهَا[٩] أشَدَّ الدَّفْعِ[١٠]

١٣- وَلا تَزِدْ فِيْ اللامِ مَدًّا[١١] عَنْ ألِفْ وَالوَاوُ واليَا مِثْلُهَا لا تَخْتَلِفْ[١٢]

١٤- وَلا تَزِدْ حُرُوْفَ[١٣] مَدٍّ مَدًّا (قَالُوا) وَ(سِيْرُوا) فَاعْتَبِرْهُ حَدًّا[١٤]

---

(١) فالقاف والكاف حرفان لهويان متقاربان في مخرجهما، إلا أنهما مختلفان في الصفات، فالقاف حرف مستعلٍ ومجهور، بينما الكاف مستفلٌ مهموس، فينبغي على القارئ أن يحذر من ضعف القاف وتحولها في النطق إلى كاف، أو قوة الكاف وتحولها إلى قاف.

(٢) الطاء والتاء حرفان نطعيان يخرجان من رأس اللسان وأصول الثنايا العليا، إلا أنهما يختلفان في الصفات، فالطاء مستعلية مجهورة مطبقة، بينما التاء مستفلة مهموسة منفتحة، فإن ضعفت صفات الطاء خرجت مشابهة للتاء.

(٣) فالباء والميم كلاهما يخرجان من الشفتين، إلا أن الباء حرف شديد تخرج بانفتاحهما، أما الميم فرخوة تخرج بانطباقهما، وأما الفاء فمهموسة تخرج من بطن الشفة السفلى مع أطراف الثنايا العليا، وهذا يستدعي من القارئ التنبه لمخرج وصفة كل واحد من هذه الحروف.

(٤) فالجيم والشين يخرجان من شجر الفم إلا أنهما يختلفان في الصفات، فالجيم مجهورة شديدة، بينما الشين مهموسة رخوة، فإن ضعفت صفات الجيم خرجت مشابهة للشين، كما يفعل البعض.

(٥) الدال والتاء حرفان نطعيان، إلا أنهما يختلفان في الصفات، فالدال مجهورة، بينما التاء مهموسة، فإن ضعفت صفة الجهر في الدال خرجت كالتاء.

(٦) القلقلة أو اللَّقْلَقة في **اللغة**: التَّحرك والاضطراب، أو شدة الصوت أو الصياح، **واصطلاحًا**: قوة اضطراب صوت الحرف عند النُّطق به ساكنًا في مخرجه، بحيث يسمع له نبرة قويَّة، ويتمُّ أداء هذه الصفة بالتَّباعد بين طرفي عضو النُّطق بعد الضغط، دون أن يصاحبَه شائبةُ حركة من الحركات الثلاث، وهي حالة بين السكون والحركة.

(٧) فاللام في اسم الجلالة إن سُبقت بفتحة كانت مفخمة، بينما تكون الهاء مرققة، فينبغي على القارئ التنبه لترقيق الهاء وعدم تأثرها بمجاورتها للام المفخمة، نحو: ﴿ إنَّ اللهَ ﴾.

(٨) أي: يسبق اسم الجلالة.

(٩) أي: فدافع تفخيم الواو بقوة.

(١٠) نحو: ﴿وَاللهُ﴾ فالواو مرققة، بينما اللام مفخمة، فينبغي الحذر من تفخيم الواو تأثرًا بمجاورتها للام المفخمة.

(١١) **المد في اللغة**: الزيادة، ومطلق الإطالة، **واصطلاحًا**: إطالة الصوت بحرف من الحروف المَدِّيَّة الثلاثة: (ا، و، ي)، أو بحرف من حرفي اللِّيْن (الواو والياء الساكنتان المفتوح ما قبلهما)، على مِقْدار ما فيهنَّ من المَدِّ الذي هو صفتهن، من غير زيادة ولا إشباع. انظر: جمال القراء ٢: ٥٣٣؛ النشر ١: ٣١٣؛ الحواشي المفهمة ص١١٢؛ شرح المقدمة للأنصاري ص١٠٦.

(١٢) فمقدار مد الألف الساكنة المفتوح ما قبلها حركتان، وكذا الواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها، فيمد كل منهما بمقدار حركتين.

(١٣) في المخطوط: في حروف، ولا يستقيم الوزن.

(١٤) أي: بمقدار ما تمد كلمتي: (قالوا) وكذا (سيروا) وأمثالهما مدًّا أصليًا.

١٥- إلَّا الَّذِيْ فِي الوَقْفِ قَدْ يُزَادُ(١) وَقَبْلَ هَمْزٍ مَدُّهُ المُرَادُ(٢)

١٦- وَالرَّاءُ حَيْثُ وَرَدَتْ مُشَدَّدَه(٣) إِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَهَا مُرَعَّدَه(٤)

١٧- /أَوْ أَنْ تَزِدْ فِي مَدِّهَا إِفْرَاطَا حَتَّى تَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهَا طَا(٥)

١٨- وَالعَيْنُ فِي الفَتْحِ وَلَا يُفَخَّمُ(٦) وَلَا تُمَلْ بَلْ بِفَتْحٍ يَسْلَمُ(٧)

١٩- كَالعَالَمِيْنَ، وَالحُرُوْفُ العَالِيَهْ (قِظْ خُصَّ ضَغْطٍ) فُخِّمَتْ عَلَانِيَهْ(٨)

٢٠- وَالرَّاءُ بِالتَّفْخِيْمِ لَا مَحَالَهْ(٩) إِلَّا مَعَ التَّرْقِيْقِ وَالإِمَالَهْ(١٠)

(١) وعندئذ يصبح مدًّا عارضًا للسكون، وهو أن يأتي بعد حرف المدِّ حرفٌ مُتَحرك، ثمَّ يعرض لهذا الحرف السكونْ بسبب الوقف، فيجوز عندئذٍ في حرف المدِّ: القصر والتَّوسط والطُّول (الإشباع)، وذلك تخييرًا، والطول أفضل، نحو: ﴿جَنَّاتٌ﴾، ﴿نَسْتَعِينُ﴾، ﴿مُفْلِحُون﴾، حال الوقف عليها.أما في حالة الوقف مع الروم فلا يجوز فيه إلا القصر؛ لأن الروم كحالة الوصل، أما الإشمام فيأتي على الوجوه الثلاثة.

(٢) سواء كان المدُّ واجبًا متصلًا، أو جائزًا منفصلًا.

(٣) لأن التكرير في الراء يظهر جليًا عندما تكون مشدَّدة.

(٤) الترعيد: هو أن يرعِّدَ صوته، كالذي يَرْعُد من برد وألم، ويبدو لي أنه يقصد تكرار الراء عند النطق بها، وهذه الصفة تعلم لتجتنب لا لترتكب. انظر: جمال القراء ٢: ٥٢٩؛ شرح المقدمة للأنصاري ص٦٥. قال مكي بن أبي طالب في الرعاية ص١٣١: "ولا بد في القراءة من إخفاء التكرير". أما طريقة السلامة من التَّكرير للراء: هو أن يلصق القارئ ظهر لسانه بأعلى حنكه لصقًا محكمًا مَرَّة واحدة. انظر: المنح الفكرية ص١٠٩.

(٥) أي: محصرمة شبيهة بالطاء. قال ابن الجزري في النشر ١: ٢١٩: "وقد يبالغ قوم في إخفاء تكريرها مشددة فيأتي بها محصرمة شبيهة بالطاء، وذلك خطأ لا يجوز، فيجب أن يلفظ بها مشددة تشديداً ينبو به اللسان نبوة واحدة وارتفاعاً واحداً من غير مبالغة في الحصر والعسر". والحَصْرَمَةُ: تأتي بمعنى الضِّيْقُ والشدة.

(٦) العين من حروف الإستفالة والتوسط، وهي مرققة في كل أحوالها، وقد ذكر الشيخ الديربي حالة الفتح؛ لأنها لحن خفي مشتهر عند كثير ممن يقرؤون القرآن؛ حيث يفخمون العين، خصوصًا إن كان بعدها ألف، كالعالمين، والعالم، والعاديات...إلخ.

(٧) فلا يجوز إمالة العين المفتوحة عند النطق، أكانت الإمالة صغرى أم كبرى.

(٨) فحروف الاستعلاء كلها مفخمة، والاستعلاء: هو ارتفاع أقصى اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف، حيث يتصعَّد الصوت عند النُّطق بها إلى الحنك الأعلى منطبقًا في: (ص، ض، ط، ظ)، ويضْعُف الاستعلاء بالكسر عند الحروف الثلاثة: (غ، خ، ق) من غير إطباق. والإطباق: هو انحصار الصوت بين اللسان والحنك الأعلى.

(٩) فجمهور علماء القراءات والتجويد على أن الأصل في الراء التفخيم. انظر: المنح الفكرية ص١٤٩. ونقل عن جماعة قولهم: ليس للراء أصل في التفخيم ولا في الترقيق، وإنما يعرض ذلك بسبب حركتها. قال الشاطبي في حرزه (بيت ٣٥٨):

وفيما عدا هذا الذي قد وصفتُهُ على الأصلِ بالتفخيمِ كن متعمِّلا

(١٠) فترقق الراء: إذا كانت مكسورة، سواء كان الكسر أصليًا، نحو: ﴿رِجَالٌ﴾، ﴿رِزْقًا﴾، ﴿قَرِيبٌ﴾، أو كان عارضًا، نحو: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِيْنَ ءَامَنُوا﴾، أو بسبب رَوْم عند الوقف، نحو: ﴿نُذُرِ﴾، ﴿سُعُرٍ﴾، ﴿بِسَحَرٍ﴾، أو بسبب إمالة، ﴿مَجْرِيٰهَا﴾ [هود: ٤١] ﴿وليس في رواية حفص إلا هذا الموضع من القرآن الكريم﴾، أو كانت ساكنة وقبلها كسر أصلي ليس بعده حرف استعلاء، نحو: ﴿فِرْعَوْن﴾، ﴿مِرْيَة﴾، ﴿مِرْفَقًا﴾، أو سكنت وقفًا وكان قبلها كسر، أو ياء ساكنة ﴿مدية أو لينية﴾، نحو: ﴿يَقْدِرْ﴾، ﴿صِيرٌ﴾، وكذلك في: ﴿قَدِيْرْ﴾، ﴿بَشِيْرْ﴾، أو سكنت وقفًا، وكان قبلها حرف ساكن من حروف الاستفالة وقبله كسر، نحو: ﴿سِحْرْ﴾، ﴿ذِكْرْ﴾.

٢١- وَلا تُفَخِّمْ مَا حَيِيْتَ الحَاءَ — والهَاءَ[١] فَدَعْ اللَّهْ والزَمْ هَاءَ[٢]

٢٢- وَ (مَا) وَ (بَا) وَشِبْهُهَا[٣] تُحَقَّقْ — مِنْ غَيْرِ تَفْخِيْمٍ وَلا تُرَقَّقْ[٤]

٢٣- وَالنَّارُ وَالنَّاقَةُ لا تُفَخِّيْمْ — كَنَاقَةٍ وَنَامَ يَسْتَقِيْمْ[٥]

٢٤- وَكُلُّ يَاءٍ شُدِّدَتْ قَبْلَ الأَلِفْ[٦] — كَأَنَّهَا يَاءَانِ أَصْلُ قَدْ عُرِفْ[٧]

٢٥- وَكُلُّ مَا شُدِّدَ بِالإِطْلاقِ — فَأَصْلُهُ حَرْفَانِ بِاتِّفَاقِ

٢٦- (إِيَّاكَ) إِنْ حَقَّقْتَهَا فَوَهِّنْ[٨] — وَإِنْ تَزِدْ فِيْ شَدِّهَا فَلَحْنُ[٩]

٢٧- يُخْرِجُهَا إِلَى مَكَانِ الكَافِ[١٠] — فَالْزَمْ بِهَا أَصْلَ المَكَانِ الكَافِي

٢٨- (نَعْبُدُ) ضَمُّ البَاءِ ثُمَّ الدَّالِ — مِنْ غَيْرِ تَنْقِيْصٍ ولا استِثْقَالِ[١١]

٢٩- وَالوَاوُ بَعْدَهَا فَلا تُشَدِّدْ[١٢] — فَتُشْبِهُ الإِدْغَامَ إِذْ تُرَعِّدْ[١٣]

---

(١) فكلاهما من حروف الإستفالة والترقيق، وقد يسبق إلى كثير من الألسنة تفخيمهما، خصوصًا إذ كانتا مفتوحتين، وهو لحن خفي، كـ: ﴿الحاقة﴾، و﴿حاسد﴾، و﴿النهار﴾، و﴿هار﴾...

(٢) أي: إلزم هذا لأمر ولا تحد عنه في قراءتك.

(٣) أي: وكل حرف مستفل يأتي بعده ألف مدية.

(٤) ويقصد بذلك الألف المدية، فهي محققة، إلاّ أنها لا تُوصف استفلاً لاً بالتفخيم ولا بالترقيق، بل هي تتبع ما قبلها، فإن كان مستفلاً مُرقّقاً رُقّقت الألف، وإن كان مُستعلياً مفخماً فُخِّمت الألف. انظر: شرح المقدمة للأنصاري ص٦٧.
ويقول الشيخ عثمان سليمان مراد (١٣٨٢هـ) في منظومته (السلسبيل الشافي):

كُلُّ حُرُوفِ الإِسْتِفَالِ رَقِّقِ — وَالأَلْفَ أَتْبِعْهَا لِحَرْفٍ سَابِقِ

(٥) لأن النون من أحرف الإستفالة والترقيق، وتفخيمها لحن خفي، سواء كانت مشددة أو غير مشددة.

(٦) نحو: ﴿إيَّاك﴾، ﴿إيَّاي﴾، ﴿إيَّاكم﴾....

(٧) لأن الحرف المشدد حرفان، الأول ساكن والثاني متحرك، فإذا لم يحقق القارئ شدة الياء فلحنه لحن جلي، وقد يقلب المعنى، خصوصًا إذا كان في فاتحة الكتاب في الصلاة.

(٨) أي: لا تبالغ في الإتيان بالشدّة.

(٩) فالمبالغة في تشديدها تفضي بالقارئ إلى بتر صوتها والوصول إلى صفة الشدّة، بينما هي رخوة يجري الصوت معها، والوجه الصحيح في أدائها أن يجمع القارئ بين التشديد والرّخاوة.

(١٠) أي: المبالغة في تشديد الياء يخرجها إلى مكان الكاف، فالياء من الحروف الشجرية، وهي: (ج ، ش ، ي غير المدية)، وتسمى بـ (الحروف الشَّجَرِيَّة) نسبة إلى شَجْرِ الفمّ، وهو ما بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى، فالجيم تخرج بإلصاق وسط اللسان باللثّة العُليا إلصاقًا معتدلاً، والياء والشين بتجافي اللسان عنهما. انظر: شرح المقدمة للأنصاري ص٣٧. أما الكاف: فحرف لهوي، يخرج بين أقصى اللسان وما يحاذيه من الحنك اللحمي الأعلى، في حيّز اللّهاة.

(١١) من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فلو كسر التاء أو سكّن الدّال من ﴿نعبد﴾ فلحن جلي، أما إذا لم يحقق ضمة الباء فلحن خفي، ولا يتم تحقيق حركة الضم إلا بضم الشفتين.

(١٢) أي: لا تشدد الواو بعد قولك: ﴿نعبد﴾، فهو لحن ناتج عن توليد حرف الواو من ضمّة الدّال، ثمّ إدغامه بالواو المتحركة.

(١٣) أي: تكرر الواو، فالمتولدة من الضم ساكنة، والتي بعدها مفتوحة.

٣٠- وَالحَرَكَاتُ كُلُّهَا تُلَخَّصُ   عَنِ الزِّيَادَاتِ وَلا تُنَقَّصُ(١)

٣١- وَقَالَ حَمْزَةُ الإِمَامُ(٢) يشْتَرِطْ   مَا زَادَ فِي تَجْعِيدِهِ فَهْوَ قَطَطْ(٣)

٣٢- فَلا تُوَافِقْ مَوْهِنًا(٤) مُفَرِّطًا(٥)   وَلا عَسُوفًا(٦) بِالتَّغَالِي مُفْرِطَا(٧)

٣٣- يَعْتَقِدُ التَّجْوِيدَ نَفْخَ الحَلْقِ   لِشِدَّةٍ وَقُوَّةٍ كَالخَنْقِ

٣٤- وَإِنَّمَا التَّجْوِيدُ ضَبْطُ الأَحْرُفِ   مِنْ غَيْرِ تَفْرِيطٍ وَلا تَكَلُّفِ(٨)

٣٥- (عَلَيْهِمْ)(٩) وَكُلُّ يَاءٍ سَاكِنَةْ   مِنْ بَعْدِ فَتْحٍ كَيْفَ ضَيْفَ كَامِنَةْ(١٠)

٣٦- فَلا تَمُدَّهَا فَتَزْدَادُ الأَلِفْ(١١)   مِنْ قَبْلِهَا، فَاسْمَعْ مَقَالَ المُعْتَرِفْ

---

(١) فالزيادة على مقدار الحركة وزمنها يولد منها حرف من جنسها، والنقص اختلاس للحركة، والاختلاس: هو الإسراع بالحركة إسراعًا يحكم السامع به أن الحركة قد ذهبت، وهي كاملة في الوزن والصفة، أو حتى يظن السامع أن المسموع سكون لا حركة، وقيل: هو عبارة عن النطق بثلثي الحركة، وهذا إنما تحكمه المشافهة. انظر: الإنباء لابن الطحان ص٣٢، ومقدمة في أصول القراءات لابن الطحان ص٤٥، القواعد والإشارات ص٥٢، الإضاءة ص٣١.

(٢) حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، الكُوفيُّ التيميُّ الزيَّات، أبو عمارة (٨٠ - ١٥٦هـ). انظر: معرفة القراء الكبار ١: ١١١، سير أعلام النبلاء ٧: ٩٠، غاية النهاية ١: ٢٦١، الأعلام للزركلي ٢: ٢٧٧.

(٣) فقد قال حمزة بن حبيب الزيات لبعض من سمعه يبالغ في القراءة: "أما علمتَ أنَّ ما كان فوقَ الجُعُودة فهو قطط، وما كان فوق البياض فهو برص، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة". انظر: النشر في القراءات العشر ١: ٢٠٥. والمراد: عدم المبالغة في التجويد والقراءة.

(٤) الوَهْن: الضَّعفُ في العمل والأمر، ولَقِيتُه مَوْهِنًا: أي بعد وَهْنٍ.

(٥) المفرِّط بالتشديد: المقصِّر في العمل، والمقصود: أن لا يتابع القارئ في قراءته من كان متساهلاً مضيعًا للأحكام أو مُقَصِّرًا في الإتيان بها، لأنه ليس من أهل التحقيق والإتقان.

(٦) عسف فلان فلانًا عَسْفًا ظلمه، والعَسُوف: هو الجائر الظَّلُوم.

(٧) المفْرِط بالتخفيف: المسرف في العمل، وفي ذلك تحذير من متابعة أهل التكلف والإفراط في أحكام القراءة والتجويد.

(٨) **فالتجويد لغة**: هو تصيير الشيء جيدًا، وهو مصدر من جَوَّد، والجيِّد ضد الرديء، والاسم منه: الجَوْدَة. انظر: لسان العرب، مادة: جود. **وأما اصطلاحًا**: فهو علم يُعرف به النُّطق الصحيح لكلام الله تعالى، وذلك بإخراج كلّ حرف من مخرجه، وإعطائه حقَّه من الصفات الذاتية اللازمة (كالجهر والشدة والاستعلاء والإطباق وغيرها)، ومُستحقَّه من الصفات العارضة (كالإظهار والإدغام، والقلب، والإخفاء، والترقيق والتفخيم)، من غير إسراف ولا تعسُّف، ولا إفراط ولا تكلُّف. انظر: جمال القراء ٢: ٥٢٦، النشر في القراءات العشر ١: ٢١٠-٢١٢، الحواشي المفهمة ص٦٣، المنح الفكرية ص١٢٠، جهد المقل للمرعشي ص١٠.

(٩) من قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وحيثما وقعت في كتاب الله تعالى.

(١٠) فهذه الياء هي حرف لين، وهي خفية، وحرفا اللين (وهما الواو والياء الساكنتان المفتوح ما قبلهما) لا يمدان إلا إذا عرض السكون على الحرف الذي يليهما، فيأخذان عندئذ حكم المد العارض للسكون.

(١١) فياء اللين هنا لا تُمد، وقد يقع القارئ في لحن خفي بمد اللام المفتوحة بالألف كما أشار إلى ذلك الناظم.

٣٧- فَإِنَّنِي أَعْجَزُ فِيْ أَحْيَانِي ... عَنْ ضَبْطِهَا لِضَعْفِ اعْتِرَانِي[١]

٣٨- وَالضَّادُ لا تَأْتِ بِهَا كَالظَّاءِ ... فَيَبْطُلَ المَعْنَى بِلا امْتِرَاءِ[٢]

٣٩- فَالظَّاءُ مِنْ بَيْنِ الثَّنَايَا تَخْرُجُ[٣] ... وَالضَّادُ عَنْ مَخْرَجِهَا تَعَرَّجُ[٤]

٤٠- لِمَا يَلِي الأَضْرَاسَ بِاللِّسَانِ ... مِنْ غَيْرِ تَثْقِيلٍ وَلا تَوَانِي[٥]

٤١- بَلْ مُسْتَطِيلاً[٦] مُطْبَقًا[٧] ذَا جَهْرِ[٨] ... وَإِنَّمَا يُتْقِنُهُ مَنْ يَدْرِي[٩]

---

(١) وهذا تواضع من الشيخ واعتراف منه بأنه يعجز في بعض الأحيان عن ضبط النطق بالكلمة المشار إليها، بسبب ضعف أصابه.

(٢) وهذا لحن جليٌّ يقع فيه بعض الناس، وخصوصًا في فاتحة الكتاب، قال ابن الجزري في النشر ١: ٢١٩: "وَالضَّادُ: انْفَرَدَ بِالاسْتِطَالَةِ، وَلَيْسَ فِي الْحُرُوفِ مَا يَعْسُرُ عَلَى اللِّسَانِ مِثْلُهُ، فَإِنَّ أَلْسِنَةَ النَّاسِ فِيهِ مُخْتَلِفَةٌ، وَقَلَّ مَنْ يُحْسِنُهُ فَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُهُ ظَاءً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْزُجُهُ بِالذَّالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ لامًا مُفَخَّمَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُشِمُّهُ الزَّايَ. وَكُلُّ ذَلِكَ لا يَجُوزُ، فَلْيَحْذَرْ مَنْ قَلْبَهُ إِلَى الظَّاءِ، لا سِيَّمَا فِيمَا يُشْبِهُ بِلَفْظِهِ، نَحْوَ: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ﴾، يُشْبِهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾، وَلْيُعْمِلِ الرِّيَاضَةَ فِي إِحْكَامِ لَفْظِهِ خُصُوصًا إِذَا جَاوَرَهُ ظَاءٌ.."، وللفقهاء كلام في حكم صلاة من بدل الضاد بظاء، خصوصاً في الفاتحة من كلمة: ﴿ولا الضالين﴾، فالأكثرون على أنه إن كان غير متعمد وعجز عن التمييز بين الضاد والظاء فصلاته صحيحة لعموم البلوى، وللشافعية والحنابلة قول بعدم الجواز لتغير المعنى، وقال الحنابلة في قول: تكره إمامته. ينظر: حاشية ابن عابدين ٢: ٣٩٦، مواهب الجليل ٤: ١٨٩، مغني المحتاج ١: ٤٥٧، المغني لابن قدامة ٢: ٣٢.

(٣) فالظاء من الحروف **اللثوية، وهي (ظ، ذ، ث)**، وتخرج من طرف اللسان من جهة ظهره مع أطراف الثنايا العليا، وقد سُمِّيت **باللثوية**؛ لقُرب مخرجها من اللِّثَة. شرح المقدمة للأنصاري ص٤٣.

(٤) عرَّج بالمكان: إذا أقام، والتعريجُ على الشيء: الإقامة عليه. قال مكي بن أبي طالب في الرعاية ص١٨٤: "والضاد يشبه لفظها بلفظ الظاء، لأنها من حروف الإطباق، ومن الحروف المستعلية ومن الحروف المجهورة، ولولا اختلاف المخرجين وما في الضاد من الاستطالة لكان لفظهما واحدًا، ولم يختلفا في السمع".

(٥) فمخرج الضاد: يكون من إحدى حافتي اللسان مع ما يحاذيها من الأضراس العليا، وخروج من الحافَّة اليُسْرَى أكثر وأسهل، ومن الأيمن أصعب، ومن الجانبين نادر. انظر: شرح المقدمة للأنصاري ص٣٨.

(٦) الاستطالة في **اللغة**: الامتداد، والمراد هنا: الامتداد من أول حافة اللسان إلى آخرها. **واصطلاحًا**: هي اندفاع اللسان من مؤخرة الفمّ إلى مقدمته عند النُّطق بحرف الضاد، حتى يلامس رأسُ اللسان أصولَ الثَّنِيَّتين العُليين، وذلك تحت تأثير الهواء الضاغط خلف اللسان، ويستمر جريان الصوت عند النُّطق بها لرخاوتها، وسُمِّي حرفها بذلك؛ لأنَّه يستطيل حتى يتَّصل بمخرج اللام، وذلك لما اجتمع فيها من القوة بالجهر والإطباق والاستعلاء، فقويت بذلك واستطالت في الخروج من مخرجها حتى اتصلت باللام لقُرب مخرج اللَّام من مخرجها. انظر: الرعاية لمكي ص١٣٤، وشرح المقدمة للأنصاري ص٥٥.

(٧) الإطباق في **اللغة**: الالتصاق، وهو ضِدُّ الانفتاح. **واصطلاحًا**: هو التصاق جزء من اللسان بالحنك الأعلى عند النُّطق بها، والضاد: متوسطة في الإطباق. انظر: الرعاية ص ١٢٣.

(٨) الجهر في **اللغة**: الإعلان، أو الصوت القويُّ الشديد، وهو ضد الهمس. **واصطلاحًا**: الوضوح في السمع، نتيجة تضامِّ الوترين الصوتيين واهتزازهما، وانحباس كثير لهواء النفس عند النطق بها؛ لقوَّة الاعتماد على المخرج.

(٩) أي: يتقن مخرج الضاد من يعلم صفاتها، ويتلقى طريقة إخراجها مشافهة، فهي من أصعب الحروف صفة ومخرجاً.

٤٢- كَمْ رَامَهُ قَوْمٌ فَصَيَّرُوهُ لامًا بِتَفْخِيمٍ وَغَيَّرُوهُ[1]

٤٣- وَرُبَّمَا تَعْسُرُ عِنْدَ أَحْرُفِ[2] فَاصْغِ إِلَى مِثَالِهَا لِتَكْتَفِي

٤٤- (أَفَضْتُمْ)[3] وَ(اضْطُرَّ)[4] مَعْ (يَحِضْنَا)[5] (أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)[6] اعْتَبِرْ وَ(خُضْتَنَا)[7]

٤٥- (بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ)[8] وَ(فَضْلُ اللهِ)[9] (وَاغْضُضْ)[10] مَعْ (اخْفِضْ)[11] قَبْلَ جِيمٍ إِنَّ هِي

٤٦- وَالمَدُّ لِلتَّشْدِيدِ مِنْ بَعْدِ الأَلِفْ[12] فِي آخِرِ السُّوْرَةِ مَدًّا قَدْ أُلِفْ

٤٧- مُطَّرِدًا فِي كُلِّ مَا يُمَاثِلُهْ مُعْتَدِلًا فِي كُلِّ مَا يُشَاكِلُهْ[13]

٤٨- مِنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ وَلا تَطْوِيلِ كَمُدَّةِ الوَقْفِ بِلا تَبْدِيلِ[14]

---

(١) لقرب مخرج الضاد من اللام، وقد سبق كلام ابن الجزري في ذلك، ومن اللحن المشهور المسموع على ألسنة بعض الأعاجم أن يخرج الضاد لامًا، أو دالًا مفخمة.

(٢) أي: يعسر النطق بالضاد عند بعض الأحرف؛ لتقارب مخارجها.

(٣) من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]

(٤) من قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣، الأنعام: ١٤٥، النحل: ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

(٥) من قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ([الطلاق: ٤].

(٦) من قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: ٢، ٣].

(٧) من قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩].

(٨) من قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

(٩) من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٨٣، النور: ١٠، ١٤، ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٥٤، الحديد: ٢١، الجمعة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

(١٠) من قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

(١١) من قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

(١٢) وأمثلته كثيرة، منها: ﴿الحاقَّة﴾ ﴿الطامَّة﴾ ﴿الصاخَّة﴾، ﴿صوافَّ﴾، ﴿مضارٍّ﴾، ﴿جانٌّ﴾، ﴿يتماسَّا﴾، ﴿دابَّة﴾، ﴿الصافَّات﴾.

(١٣) ويسمى هذا المد باللازم الكلمي المُثَقَّل.

(١٤) فحكمه أن يمد (٦) حركات لزومًا، وهو أحد وجوه العارض للسكون عند الوقف.

٤٩- وَالْيَا إِذَا افْتُتِحَتْ بَعْدَ الْكَسْرِ كَـ(دِيَةٌ)[1] وَشِيَةٌ[2] إِذْ تَجْرِي[3]

٥٠- وَالْوَاوُ بَعْدَ ضَمَّةٍ إِذْ تُفْتَحُ كَهُوَ خَفِّفْ دُونَ مَدٍّ يَسْبَحُ[4]

٥١- وَالْوَاوُ وَالْيَا حَالَةَ التَّسْكِيْنِ بَعْدَهُمَا[5] الْمَفْتُوحُ بِالْيَقِيْنِ[6]

٥٢- تُمَكِّنُ الأُوْلَى وَلاَ تُدْغِمُهَا كَـ (هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)[7] فَاعْلَمْهَا

٥٣- وَمِثْلُ (فِيْ يَوْمٍ)[8]، وَبَعْدَ الْفَتْحِ[9] (عَفَوْا وَقَالُوا)[10] مُدْغَمًا فِي الشَّرْحِ

٥٤- وَالدَّالُ إِذْ تَسْكُنُ قَبْلَ الْتَاءِ نَحْوُ (ادْخُلُوا)[11] فَاخْشَ الْتِبَاسَ الثَّاءِ[12]

٥٥- وَبَعْدَ جِيْمِ (فَتَهَجَّدْ)[13] تَحْذَرُ مِنَ الْتِبَاسِ الثَّاءِ حِيْنَ تُذْكَرُ

---

(١) من قوله تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ [النساء: ٩٢].

(٢) من قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١].

(٣) فينبغي الحذر من تشديد الياء أو نبرها في مثل هذه الحالة، بل يأتي بها مفتوحة مخففة. قال في الرعاية ص١٨١: "وإذا تحركت الياء بفتح وقبلها كسر وجب أن تخفف الحركة على الياء، ويسهل اللفظ بحركتها لئلا يشوبها شيء من التشديد أو النبر، أو يسبق بهمزة في موضعها".

(٤) فيجب على القارئ أن يأتي بالواو في مثل هذه الحالة مخففة مفتوحة، ولا يشدد الواو من مثل كلمة: (هُوَ)، لأنه سيتولّد من ذلك واو مشددة.

(٥) في المخطوط: وبعدهما، ولا يصح الوزن، فإما أن نقول: وبعدها، أو نقول: بعدهما.

(٦) وذلك بأن يأتي في آخر الكلمة واو أو ياء مدّيتان، ويأتي بعدهما حرف مجانس مفتوح، وعندها لا يدغم الأول في الثاني.

(٧) من قوله تعالى: ﴿هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾ [البقرة: ٢١٨، الأنفال: ٧٢،٧٤، ٧٥، التوبة: ٢٠]، فلا يوجد بين الواو الأولى الساكنة والواو الثانية المتحركة إدغام متماثل؛ لأن من شرط الإدغام المتماثل أن لا يكون الحرف الأوّل منهما حرفًا مَديًّا، نحو: الواو والياء المدّيتين، وذلك محافظة على المدّ لئلا يذهب بالإدغام ،ومثله: ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا ﴾ [يوسف: ٧١].

(٨) من قوله تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ ذِي ﴾ [البلد: ١٤]، ومثله: ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ ﴾ [الناس: ٥].

(٩) أي: الواو التي تأتي بعد الفتح، وفي هذه الحالة تكون الواو حرف لين.

(١٠) من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا﴾ [الأعراف: ٩٥]، فهناك إدغام متماثل بين الواوين، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]

(١١) وردت هذه الكلمة في القرآن ١٨ مرة في ١٧ آية، في السور الآتية: [البقرة:٥٨، ٢٠٨، النساء: ١٥٤، المائدة:٢١، ٢٢، الأعراف: ٣٨، ١٦١،٤٩، يوسف: ٦٧، ٩٩، النحل: ٢٩، ٣٢، النمل: ١٨، الأحزاب: ٥٣، الزمر: ٧٢، غافر: ٧٦، الزخرف: ٧٠].

(١٢) فمخرج الدال والتاء والطاء واحد، إلاّ أن الذي يميز بينها الصفات، فينبغي على القارئ أن يأتي بالدّال الساكنة مجهورة مقلقلة، فإن ضعفت هاتان الصفتان عند الأداء التبست الدال بحرف التاء المهموس.

(١٣) من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

٥٦- وَالغَيْنُ وَالخَا قَبْلَ شِيْنِ (يَغْشَى)[١] فَاخْشَ التِبَاسَهَا[٢] وَقَبْلَ (يَخْشَى)[٣]
٥٧- وَالجِيْمُ فِي (اجْتَبَاهُ)[٤] قَبْلَ التَّاءِ[٥] وَنَحْوُ (وَجْهِيْ)[٦] احْفَظْهُ قَبْلَ الهَاءِ[٧]
٥٨- وَالصَّادُ إِنْ تَسْكُنْ قَبْلَ الدَّالِ مِثَالُهَا (يَصْدُرُ)[٨] فِي الزُّلْزَالِ[٩]
٥٩- خَلِّصْ عَنِ الدَّالِ[١٠] انطِبَاقَ الصَّادِ وَالطَّاءَ عَنْ تَاءٍ بِنُطْقٍ بَادِيْ[١١]

---

(١) من قوله تعالى: ﴿يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦]، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]

(٢) أي: التباس الغين بالخاء عند الأداء، والسبب في ذلك تقارب المخارج، فكلاهما يخرجان من أدنى الحلق.

(٣) وكذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه: ٣]، وقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ [عبس: ٩]، وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠]، فينبغي أن لا تلتبس الخاء من ﴿يخشى﴾ في الآيات السابقة بالغين عند القراءة، بسبب تقارب مخرجيهما.

(٤) من قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠].

(٥) من اللحن الخفي ما يفعله بعض الناس من إشمام الجيم بصوت الشين، فالجيم والشين والياء تخرج من مخرج واحد، إلا أنها مختلفة في الصفات، فالجيم حرف شديد مجهور، أما الشين فحرف رخو مهموس، فإذا لم يحقق القارئ صفة الجيم بشكل صحيح رافقها عند النطق صوت الشين. قال ابن الجزري في مقدمته (٣٧-٣٨):

وبــــاء: بــرق، بـاطــل، بـهـم، بـذي واحـــرص عـلـى الـشـدة والـجـهـر الـذي
فـيـها وفـي الـجـيـم كـــ: حـب، الـصبر ربـــوة، اجـتـثـت، وحـــج، الـفـجـر

(٦) من قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

(٧) فلا بد من تحقيق مخرج الجيم مع قلقلتها، وإعطائها صفاتها التي تميزها عن حرفي الشين والياء.

(٨) من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]. وفي سورة القصص: ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: ٢٣].

(٩) فيجب النطق بصاد خالصة بكلِّ صفاتها، غير مُشَمَّة بصوت الزاي.

(١٠) هذا هو الأصح، وفي المخطوط: الرا، وهو خطأ من الناسخ.

(١١) ويقصد بذلك الطاء الساكنة إن جاء بعدها تاء في كلمة واحدة، وقد وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ﴾ [الزمر: ٥٦]، فتُدغم الطاء في التاء إدغامًا ناقصًا لتجانس الحرفين، تذهب معه صفة القلقلة للطاء وتبقى صفتا الإطباق والاستعلاء، لأنَّ الطاء أقوى من التاء.

٦٠- إلا عَلَى رِوَايَةِ الكِسَائِيْ(١) وَحَمْزَةٍ(٢) إشْمَامُهَا بِالزَّايِ(٣)

٦١- وَالسِّيْنُ وَالصَّادُ القَرِيْبَتَانِ(٤) مَيِّزْهُمَا وَفَصِّلِ المَبَانِي(٥)

٦٢- وَاخْشَ التِبَاسَ ذَالٍ بِتَاءِ(٦) وَالذَّالُ إهْمَالُهَا كَالثَّاءِ(٧)

٦٣- وَالصَّادُ وَالضَّادُ بِجَنْبِ الطَّاءِ نَحْوُ: (اصْطَفَى)(٨) وَ(اضْطُرَّ)(٩) باسْتِعْلاءِ(١٠)

٦٤- سَكِّنْهُمَا، وَاجْهَرْ بِحَرْفِ القَلْقَلَه(١١) فَرُبَّمَا عَزَّتْ وَكَانَتْ مُشْكِلَه(١٢)

٦٥- وَالقَافَ خَفِّفْ بَعْدَ نُونٍ سَاكِنَه(١٣) فِي مِثْلِ: (أنْ قَالُوا)(١٤) بِلا مَغْلَبَنَه(١٥)

---

(١) علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز، الأسديُّ بالولاء، الكوفيُّ، أبو الحسن الكسائيُّ (نحو١٢٠-١٨٩هـ). انظر: السبعة في القراءات ص ٧٨، وفيات الأعيان ٣: ٢٩٥، معرفة القراء الكبار ١: ١٢٠-١٢٨، سير أعلام النبلاء ٩: ١٣١-١٣٤، تاريخ الإسلام ١٢: ٢٩٩-٣٠٤، غاية النهاية ١: ٥٣٥، الأعلام ٤: ٢٨٣.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) فقد قرأ حمزة والكسائي ورويس عن يعقوب وخلف في اختياره بإشمام الصاد صوت الزاي. انظر: النشر ٢: ٢٥٠-٢٥١.

(٤) فهما قريبتان في المخرج، إلا أنهما متباينتان في الصفات، فالصاد: مستعلية مطبقة، بينما السين: مستفلة منفتحة.

(٥) وذلك ككلمتي: ﴿عسى﴾ و ﴿عصى﴾، وقد أشار ابن الجزري إلى ذلك في مقدمته (بيت ٤٨) فقال:
وخَلِّصِ انفتاح: محذوراً، عسى خوف اشتباهه بـ: محظوراً، عصى

(٦) وذلك لكون الدال والتاء يخرجان من مخرج واحد، مع تمايزهما بالصفات، نحو كلمة: ﴿الدِّين﴾، فإن ضعفت صفات الدال خرجت تاء، وأصبحت: (التين).

(٧) ويقصد بإهمال حرفي الذال والثاء: النطق بالذال زايًا، وبالثاء سينًا، كما يفعله كثير من الناس، وهو لحن جلي.

(٨) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ [البقرة: ١٣٢، آل عمران: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿لَاصْطَفَى﴾ [الزمر: ٤]

(٩) من قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ [البقرة: ١٧٣، المائدة: ٣، الأنعام: ١٤٥، النحل: ١١٥]

(١٠) فالصاد والضاد والطاء ثلاثتها تشترك في صفتي الاستعلاء والإطباق.

(١١) أي: سكن الصاد والضاد من الكلمتين المذكورتين، مع الحرص على صفة الرخاوة والصفير والهمس في الصاد، والرخاوة والاستطالة في الضاد، ثم الجهر بحرف القلقلة بعدهما، والحذر من سبق اللسان إلى إدغام الحرفين لتقارب صفاتهما.

(١٢) يشير الناظم إلى أن هذا اللحن قد يكون صعباً شاقاً على البعض عند الأداء، فلا بد من التمييز بين الحرفين عند النطق.

(١٣) فالتقاء النون الساكنة مع القاف إخفاء، وفي الإخفاء يخفف الحرف الذي يلي النون الساكنة والتنوين ولا يشدد، فتأتي بالغنة دون حرف النون، وتكون الغُنَّة في الإخفاء مُفَخَّمة عند حروف الاستعلاء، ومُرَقَّقة عند حروف الاستِفَالة. انظر: الرعاية ص ٢٦٧، شرح المقدمة للأنصاري ص١٠٥، والحواشي المفهمة ص١١١.

(١٤) من قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٤٧، الأنعام: ٢٣، الأعراف: ٥، ٨٢، الإسراء: ٩٤، النمل: ٥٦، العنكبوت: ٢٤،٢٩، الجاثية: ٢٥].

(١٥) مُغَلْبَنَة: مصدر من غَلَبَ، ووزنه: مُفَعْلَنَة، مثل كلمة رَهْبَنَة على وزن: فَعْلَنَة. ولعله يقصد: أنه لا يغلب أحد الحرفين على الآخر حتى يصير من جنسه.

٦٦. وَاللَّامُ قَبْلَ النُّوْنِ نَحْوُ: (قُلْنَا) مُحَقَّقٌ وَمِثْلُهُ: (أَنْزَلْنَا)(١)

٦٧. فَاحْذَرْ مِنَ التَّحْرِيْكِ وَالتَّرْعِيْدِ فِيْهَا(٢) أَوِ الإِخْفَاءِ بِالتَّقْيِيْدِ(٣)

٦٨. وَالصَّادَ فِي (حَرَصْتُمْ)(٤) بَيِّنْهَا(٥) وَظَا (وَعَظْتَ)(٦) لاَ تَعَرَّجْ(٧) عَنْهَا(٨)

٦٩. (فَرَّطْتُ)(٩) مُدْغَمٌ وَخُشَّ(١٠) الطَّاءِ فِي اللَّفْظِ بَاقٍ مَعْ ظُهُوْرِ التَّاءِ(١١)

٧٠. وَقُلْ (أَحَلَّ اللهُ)(١٢) لاَمٌ رُقِّقَتْ(١٣) كَذَا (أَضَلَّ اللهُ)(١٤) أَيْضًا حُقِّقَتْ(١٥)

٧١. وَبَعْدَهَا التَّفْخِيْمُ فِي اسْمِ اللهِ مَيِّزْهُمَا(١٦) حَذَارِ الاشْتِبَاهِ(١٧)

---

(١) فاللام في الكلمتين المذكورتين هي لام الفعل، والواجب بيان بتبيتها إظهارها، ومثلهما: ﴿جَعَلْنَا﴾، و﴿أَرْسَلْنَا﴾، و﴿تَوَكَّلْنَا﴾.

(٢) فمن اللحن تحريك اللام الساكنة، أو اضطراب اللسان عند النطق بها، كحال الحروف المقلقلة.

(٣) وذلك بإعطاء اللام الساكنة زمن الغنة كحالة إخفاء النون الساكنة والتنوين، وهو لحن.

(٤) من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

(٥) وذلك بتحقيق مخرجها وإسكانها، وإعطائها صفاتها من العلو والهمس والإطباق والرخاوة والإصمات والصفير.

(٦) من قوله تعالى: ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]

(٧) تعرَّج: انعطفَ ومَالَ، وتَعَرَّجَ عنِ الشَّيءِ: مال عنه إلى غيره.

(٨) فلا بد من الإتيان بالظاء الساكنة من مخرجها مع صفاتها: من الجهر، والرخاوة، والاستعلاء، والإطباق، والإصمات. والميل عنها إلى غيرها يكون بإدغام الظاء بالتاء، وهو لحن، والسلامة من هذا يكون ببيان رخاوة الظاء.

(٩) من قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ [الزمر: ٥٦].

(١٠) خششْتُ في الشيءِ أَخُشّ خشًّا: دخلت. ومنه أَخُشّ: أدخل.

(١١) وذلك يكون بإدغام الطاء في التاء إدغامًا ناقصًا لتجانس الحرفين، تذهب معه صفة القلقلة للطاء وتبقى صفتا الإطباق والاستعلاء؛ لأنَّ الطاء أقوى من التاء، وقد وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢].

(١٢) من قوله تعالى: ﴿أَحَلَّ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٧٥، المائدة ٨٧، التحريم: ١].

(١٣) الأصل في اللام الترقيق، ولا تفخم إلا في لفظ الجلالة إن سبق بضم أو فتح، ومن اللحن تفخيم لام ﴿أحل﴾ لمجاورتها لام لفظ الجلالة المفخمة. وقد انفرد ورش عن نافع ففخم اللام المفتوحة إن سبقت بأحد الحروف الثلاثة: (ص، ط، ظ) إن فتحت أو كانت ساكنة.

(١٤) من قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨، الروم: ٢٩].

(١٥) فاللام هنا مرققة بين حرفين مفخمين، وهما الضاد واللام من لفظ الجلالة، وعليه فيجب على القارئ التمييز بين صفات الأحرف المتجاورة.

(١٦) أي: بين لام ﴿أَحَلَّ﴾ و﴿أَضَلَّ﴾ وبين لام لفظ الجلالة.

(١٧) أي: في صفة التفخيم.

٧٢- وَفِي (اسْتَوَى)(١) و(اسْتَغْلَظَ)(٢) السِّيْنَانِ قَـدْ حُـقِّـقَـتْ وَخُـفِّـتِ الْـمَـبَانِي(٣)

٧٣- والـلَّكْزُ(٤) فِـيْ الْهَمْزِ قَبِيْحٌ جِدًّا يَـقْـبُحُ إِفْـرَاطٌ يُضَاهِي الرَّعْـدَا(٥)

٧٤- (سِيءَ)(٦) وَ(سُوْءُ)(٧) وَمَا فِي بَابِهَا أَخَـفُّ فِـي صَـدْرِكَ إِذْ يُـؤْتَـى بِـهَا

٧٥- وَالـمِيْمُ قَبْلَ الـفَا وقَبْلَ الـوَاوِ (هُمْ فِـي)(٨) وَ(إِنَّـكُمْ وَمَـا)(٩) يُسْـلوِي(١٠)

٧٦- بِحُسْنِ لُطْفٍ قَدْرُهَا مُحَدَّدُ يَظْهَرُ لا تُخْفِي وَلا تُـرْعَدُ(١١)

٧٧- وَالْـفَاءُ وَالْبَا فِيْهِ هَذَا الحُكْمُ وَفِيْهِمَا اخْتِلافُ أُوْلِـي الْعِلْمِ(١٢)

٧٨- (أَفْرِغْ [عَلَيْنَا](١٣))(١٤) (لا تُزِغْ قُلُوبَنَا)(١٥) مُـفَـصَّـلًا بِـلَـنَـا بِـهِ مَطْلُوبَنَا

٧٩- وَالَّلحْنُ قَدْ يَعْرِضُ فِي التَّكْبِيْرِ(١٦) كَـمَـدِّهِ فِـيْ لَـفْظِـهِ الْـمَـقْصُوْرِ(١٧)

---

(١) وقد وردت في ١٢ موضعًا: [البقرة: ٢٩، الأعراف:٥٤، يونس: ٣، الرعد: ٢، طه: ٥، الفرقان: ٥٩، القصص:١٤، السجدة:٤، فصلت:١١، الفتح: ٢٩، النجم: ٦، الحديد: ٤].

(٢) من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ [الفتح: ٢٩].

(٣) فلا بد من تحقيق مخرج حرف السين مع بيان رخاوته وهمسه.

(٤) اللكز في اللغة: هو الضرب بالجُمْع في الصدر، وقيل: في جميع الجسد.

(٥) والمراد باللكز عند النطق بالهمز: أن ينطق القارئ به وكأنه يضرب على مخرج الهمز ضربًا، يشبه القلقلة والترعيد، وهو لحن دارج عند البعض.

(٦) من قوله تعالى: ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ [هود: ٧٧، العنكبوت: ٣٣].

(٧) وردت في أكثر من ٦٠ موضعًا.

(٨) من قوله تعالى: ﴿هم فيها﴾، وردت في ٣٨ موضعًا.

(٩) من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ١٦١].

(١٠) أي: من الألفاظ التي تلتقي فيها الميم الساكنة بالفاء والواو.

(١١) تحذير للقارئ من أن يُسْرِع بإخفاء الميم عند الواو والفاء أو يسبق لسانه إلى ذلك لسهولته، وذلك لأنّ الميم والواو تخرجان من الشفتين، والفاء تخرج من بطن الشفة السفلى مع أطراف الثنايا العليا، فمخرجهما قريب من مخرج الميم، وقد حذر ابن الجزري من ذلك في مقدمته (بيت ٦٤) فقال: وأظهِرَنْها عند باقي الأحرف واحذر لدى واو وفا أن تختفي

(١٢) الرّاجح في الميم السلكنة عند الباء الإخفاء، وقال بعضهم كمكي بن أبي طالب وابن المُنَادِي أحمد بن جعفر: بالإظهار. وقد وقع اختلاف بين القُرَّاء في إظهار الميم الساكنة عند الفاء، فذهب الأكثرون إلى إظهارها، وهو اختيار عامّة القُرّاء، وقال بعضُهم: بإخفائها إن كانتا من كلمتين. انظر: جمال القراء ٢: ٥٣٧.

(١٣) ليست في المخطوط، وهو خطأ من الناسخ.

(١٤) من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠، الأعراف: ١٢٦].

(١٥) من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]. فينبغي على القارئ أن يبين رخاوة الغين وتفخيمها لئلا تدغم فيما بعدها في المثالين المذكورين.

(١٦) أي: في تكبيرة الإحرام في الصلاة، أو في تكبيرات الأذان، أو تكبيرات ختم القرآن كما ورد عند المكيين.

(١٧) واللحن في التكبير يحصل بمد: همزتي لفظ (الله) و (أكبر)، وبمد الهاء من لفظ: (الله)، وبمد الباء بالألف من: (أكبر).

٨٠- حَتَّى يَصِيْرَ لَفْظُهُ اسْتِفْهَامَا[١] وَذَاكَ جَهْلٌ يُفْسِدُ المَرَامَا[٢]

٨١- وَيُكْرَهُ الإِفْرَاطُ بَعْدَ اللَّامِ عَنْ أَلِفٍ تَجْرِي عَلَى الدَّوَامِ[٣]

٨٢- وَلَا تُزِيْدَ الهَاءَ وَاوًا جَهْلًا[٤] وَلَا تَمُدُّ البَاءَ فِيْهِ أَصْلًا[٥]

٨٣- /يَا خَيْرَ مَوْلَىً قَلِّبِ القُلُوْبَا مِنَّا وَأَصْلِحْ وَاغْفِرِ الذُّنُوْبَا

٨٤- وَصَلِّ يَا رَبُّ عَلَى الرَّسُوْلِ مُحَمَّدٍ ذِي المَنْصِبِ الجَلِيْلِ

٨٥- وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعْ هُدَاهُمُ يَا خَيْرَ مَدْعُوٍ سَمِعْ

٨٦- وَجُدْ عَلَى عُبَيْدِكَ الدِّيْرِيْنِي عَبْدِ العَزِيْزِ الوَجِلِ المِسْكِيْنِ

٨٧- بِالعَفْوِ مِنْكَ وَشُمُوْلِ المَغْفِرَةْ فَأَنْتَ أَهْلٌ لِقَبُوْلِ المَعْذِرَةْ

---

(١) وهذا بمد همزتي: (الله) و (أكبر).

(٢) فمد الهمزة يبطل تكبيرة الإحرام؛ لأنه يحيل المعنى ويغيره، ومن ثمّ تبطل الصلاة. انظر: حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص١٥٠ ؛ الفواكه الدواني ١ : ٤٥٦ ؛ حاشية الدسوقي ١ : ٣٧٤ ؛ المجموع للنووي ٣ : ١٧٧ ؛ كشاف القناع ٢ : ١٧ .

(٣) ويقصد بها اللام من لفظ الجلالة، والأكثرون على كراهة مدها، إلا أن مدها لا يؤثر في صحتها، وقد نقل النووي في مجموعه ٣ : ١٧٧ عن الجويني قوله: "ولا يجوز المد إلا على الألف التي بين اللام والهاء، ولا يخرجها بالمد عن حدّ الاقتصاد للإفراط"، وقال أيضًا ٣ : ١٨١ : "المذهب الصحيح المشهور أنه يستحب أن يأتي بتكبيرة الإحرام بسرعة ولا يمدها لئلا تزول النية". وقال في كشاف القناع ٢ : ١٦ : "ولا تضر زيادة المد على الألف بين اللام والهاء؛ لأنها إشباع، وحذفها أولى؛ لأنه يكره تمطيط التكبير". وانظر: الاختيار للموصلي ١ : ١٦١، وروضة الطالبين ١ : ٣٣٧ .

(٤) وهو أن يشبع المكبر ضمة الهاء من لفظ الجلالة فيتولد من ذلك حرف واو، ويتغير لفظ الجلالة في تكبيرة الإحرام، قال في المجموع ٣ : ١٨٠ : "لو أخل بحرف واحد من التكبير لم تنعقد صلاته وهذا لا خلاف فيه لأنه ليس بتكبير". ويرى الحنفية والمالكية عدم بطلان التحريمة بذلك وإن كان خطأ لغة. انظر: حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص١٤٩ ؛ الفواكه الدواني ١ : ٤٥٦ ؛ أما الحنابلة فقيدوا بطلان لفظ التحريمة بالمد بفساد المعنى فقال ابن قدامة الحنبلي في المغني ١ : ٥٤٢ : "ويبين التكبير ولا يمد في غير موضع المد فان فعل بحيث تغير المعنى .. لم يجز".

(٥) فمد الباء من (أكبر) يفسد المعنى، ويصبح اللفظ جمع كَبَر، والكبر: الطبل، قال ابن منظور في لسان العرب ٥ : ١٢٥ : (الكَبَرُ: نبات له شوك، والكَبَرُ: طبل له وجه واحد، وقيل: هو الطبل ذو الرأسين، وجمعه: كِبارٌ، مثل: جَمَلٍ وجِمالٍ). وقال الفيومي في المصباح المنير ٢ : ٥٢٤ : (قد يجمع على أَكْبارٍ ، مثل: سبب وأسباب، ولهذا قال الفقهاء: لا يجوز أن يمدّ التكبير في التحرم على الباء لئلا يخرج عن موضوع التكبير إلى لفظ (الأَكْبارِ) التي هي جمع الطبل). انظر: المجموع للنووي ٣ : ١٧٧ ؛ المحيط البرهاني ٢ : ٣٣ ؛ وحاشية الطحطاوي على المراقي ص١٥٠ ؛ الفواكه الدواني ١ : ٤٥٦ ؛ حاشية الدسوقي ١:٣٧٤ ؛ كشاف القناع ٢ : ١٧ .

المصادر والمراجع:

- الإتقان في علوم القرآن للإمام أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط/١٤٢٦هـ.
- الاختيار لتعليل المختار، للإمام عبد الله بن محمود الموصلي (ت٦٨٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، أحمد برهوم، عبد اللطيف حرز الله؛ نشر دار الرسالة العالمية - دمشق؛ ط١/ ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- الإضاءة في بيان أصول القراءة للشيخ علي محمد الضباع، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، ط١/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت١٣٩٦هـ)، نشر دار العلم للملايين - بيروت، ط١٥/ ٢٠٠٢ م.
- الإنباء في تجويد القرآن لابن الطحان الأندلسي عبد العزيز بن علي (ت نحو ٥٦٠)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد القضاة، نشر جمعية المحافظة على القرآن الكريم - الأردن، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل باشا بن محمد أمين البابانى أصلًا البغدادي مولدًا وسكنًا، نشر دار العلوم الحديثة - بيروت - لبنان
- البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعرفة – بيروت، ط/ ١٣٩١هـ.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي - لبنان - بيروت، ط/ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- التسهيل لقراءات التنزيل، للقارئ محمد فهد خاروف، نشر دار البيروتي - دمشق، ط١/ ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة - المدينة المنورة، ط٢/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- جمال القراء وكمال الإقراء، لعلي بن محمد، علم الدين السخاوي (ت٦٤٣هـ)، تحقيق: الدكتور علي البواب، نشر مكتبة التراث - مكة المكرمة، ط١/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- جهد المقِلّ، لمحمد بن أبي المرعشي الملقب بساجقلي زاده (ت ١١٥٠هـ)، تحقيق جمال الدين الأشرف، نشر دار الصحابة - طنطا، ط/ ٢٠٠٥م.

- حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار، لمحمد أمين بن عمر عابدين ت١٢٥٢هـ نشر دار عالم الكتب ـ الرياض، طبعة خاصة/١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.
- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير؛ لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت١٢٣٠هـ)؛ نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١/ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
- حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، لأحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي (ت١٢٣١هـ)، نشر المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ـ مصر، ط/١٣١٨هـ.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية ـ مصر، ط١/ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
- الحواشي المفهمة في شرح المقدمة، لأبي بكر أحمد بن محمد بن الجزري (ت٨٣٥هـ)، تحقيق: عمر عبد الرزاق معصراني، نشر الجفّان والجابي ـ دمشق، ط١/١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، للعلامة أبي محمد مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ)، تحقيق الدكتور أحمد فرحات. نشر دار عمار ـ عمان ـ الأردن، ط٢/١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
- روضة الطالبين، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت ٦٧٦هـ)،تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معرض، نشر دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد شهاب الدين عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي الدمشقي (ت١٠٨٩هـ)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط نشر دار ابن كثير ـ دمشق، ط١/ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
- شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد، لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ)، علق عليه محمد غياث صباغ، نشر وتوزيع مكتبة الغزالي ـ دمشق، ط٤/ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين ـ بيروت، ط٤/١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.
- طبقات الأولياء، لابن الملقن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي المصري (ت٨٠٤هـ)، تحقيق نور الدين شريبة، نشر دارا لمعرفة ـ بيروت، ط٢/ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
- طبقات الشافعية، لأبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، تحقيق: د.الحافظ عبد العليم خان، نشر عالم الكتب – بيروت، ط١/ ١٤٠٧ هـ.
- طبقات الشافعية، لجمال الدين عبد الرحيم الأسنوي (ت٧٧٢هـ)، تحقيق كمال يوسف الحوت، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١/١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ت٧٧١هـ تحقيق عبد الفتاح

الحلو، ومحمود الطناحي، نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي ـ مصر، ط١.

- الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار)، لأبي المواهب عبد الوهاب الشعراني ت٩٧٣هـ نشر دار الجيل ـ بيروت، ط١/ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.
- طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، نشر مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، ط١/ ١٩٩٧م.
- طبقات المفسرين، لشمس الدين محمد بن علي الداوودي (ت٩٤٥هـ)، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١/١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
- غاية النهاية في طبقات القراء للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري (ت٨٣٣هـ)، نشر مكتبة الخانجي بمصر، باعتناء ج. برجستراسر، ط/١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.
- الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لأحمد بن غنيم بن سالم النفراوي (ت١١٢٦هـ)، تحقيق رضا فرحات، نشر مكتبة الثقافة الدينية.
- كتاب السبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، نشر دار المعارف – القاهرة، ط/ ١٤٠٠ هـ.
- كشاف القناع، للشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي (ت ١٠٥١هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت – لبنان، ط/ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م.
- كشف الظنون، لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي المعروف بحاجي خليفة ت١٠٦٧هـ نشر دار الفكر ـ بيروت، ط/ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي (ت١٠٣١هـ)، تحقيق: محمد أديب الجادر، نشر دار صادر ـ بيروت، ط١/ ١٩٩٩م.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، نشر دار صادر – بيروت.
- كتاب المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، نشر دار عالم الكتب ـ الرياض، ط/ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.
- المحيط البرهاني، لبرهان الدين محمود صدر الشريعة ابن مازه البخاري (ت٦١٦ه)، تحقيق نعيم أشرف نور أحمد، نشر إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، وطبه مؤسسة نزيه كركي ـ بيروت، ط١/ ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.
- المخصص، لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق : خليل إبراهم جفال، نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١/١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، نشر المكتبة العلمية – بيروت.
- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، لعمر رضا كحالة، نشر مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي - بيروت.
- معجم البلدان، لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، نشر دار الفكر – بيروت.
- معجم المفسرين "من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر"، لعادل نويهض، نشر مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، ط١/ ١٤٠٩هـ - ١٩٨٣م.
- المعجم الوسيط، تأليف: إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار، بإشراف مجمع اللغة العربية، نشر دار الدعوة.
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر دار الفكر، ط/ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- معرفة القراء الكبار للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرنؤوط صالح مهدي عباس، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١/١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، نشر دار الفكر – بيروت، ط/ ١٤٠٥هـ .
- مغنى المحتاج الى معرفة معاني الفاظ المنهاج، لمحمد الشربينى الخطيب، نشر شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، القاهرة، ط/ ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨م.
- منظومة المفيد في التجويد، لشهاب الدين أحمد بن أحمد بن بدر الدين الطيبي ت٩٨١هـ تحقيق القارئ أيمن رشدي سويد، نشر دار الغوثاني للدراسات القرآنية - دمشق، ط١/ ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.
- مقدمة في أصول القراءات (من كتاب مرشد القارئ إلى تحقيق معالم المقارئ) لابن الطحان الأندلسي عبد العزيز بن علي (ت نحو ٥٦٠هـ)، تحقيق: الدكتور توفيق أحمد العبقري، نشر مكتبة أولاد الشيخ للتراث - القاهرة - الهرم، ط/٢٠٠٤م.
- منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لمحمد بن الجزري (ت٨٣٣هـ)، اعتناء: علي العمراني، نشر دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، ط١/ ١٤١٩هـ.
- المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية، لملا علي القاري (ت١٠١٤هـ)، تحقيق أسامة عطايا، نشر دار الغوثاني للدراسات القرآنية - دمشق، ط١/١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- منظومة حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، للقاسم بن فيره الشاطبي الرعيني

(ت٥٩٠هـ)؛ اعتناء الشيخ محمد تميم الزعبي، نشر دار المطبوعات

- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المعروف بالحطاب الرعيني ت ٩٥٤هـ ضبطه وخرج آياته واحاديثه زكريا عميرات، نشر دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
- النشر في القراءات العشر، للإمام شمس الدين أبي الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت٨٣٣هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع (ت١٣٨٠ هـ)، نشر المطبعة التجارية الكبرى ـ مصر .
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادي، نشر وكالة المعارف في مطبعتها البهية ـ إسطنبول، ط/ ١٩٥١م.
- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، اعتناء أيمن فؤاد سيد، طبعة ألمانيا.

شرح أبيات الحيدرة اليمني في الممدود والمقصور

للعلامة عبد القادر بن أحمد الكوكباني

(ت - ١٢٠٧هـ)

دراسة وتحقيق

د.حميد عبده أحمد سلام النهاري

جامعة تعز - اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الفاتحة

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على عبده محمد وعلى آله وصحابته أهل البر والتقوى.

أما بعد :فترجع صلتي بأبيات الحيدرة في المقصور والممدود وشرحها إلى عام ٢٠٠٦م، وأنا أنقب في المكتبات الخاصة بالمخطوطات عن مؤلَّفات الحيدرة اليمني كون شرحه لملحة الإعراب للحريري دراسة وتحقيقًا كان موضوعي للحصول على شهادة الماجستير، ولما وقفت على تلك الأبيات مع شرحها في المكتبة الغربية في الجامع الكبير بصنعاء تبين لي من أول وهلة أن الشرح ليس للحيدرة اليمني وإن كانت الأبيات المنظومة له، وكانت المفاجأة السارة أنه لعلامة اليمن عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر الكوكباني [ت-١٢٠٧هـ].

ولما كنت منشغلاً بالماجستير ثم بالدكتوراه ثم بالتدريس والعمل وبعض الأبحاث أرجأت تحقيقه ونشره، حتى إذا كان صيف هذا العام [٢٠١٥م] وجدت متسعًا من الوقت، فاستخرجته ونسخته وعملت على تحقيقه ودراسته، وأرجو أن أكون بذلك قد قدمت للمكتبة العربية هذه المشاركة اليمنية في باب الممدود والمقصور نظمًا وشرحًا وتحقيقًا.

وقد خصصت القسم الأول من عملي هذا للدراسة ألمحت فيها للدرس النحوي في اليمن وللتأليف في المقصور والممدد، ثم للحيدرة اليمني ومكانته، وأهمية المخطوط وتوثيق نسبة الأبيات إليه، ثم تحدثت عن الكوكباني حياته ومنهجه، ثم وصفت المخطوط وأبنت عن منهجي في تحقيقه، وخصصت القسم الآخر منه للنص المحقق وفق ما تعارف عليه أهل الفن، وقد حدت قاصدًا عن الترتيب الذي يسلكه جمهور الباحثين إذ كثيرًا ما يقدمون الحديث عن المصنف على توثيق نسبة المخطوط، والصواب من وجهة نظري أن الحديث عن المصنف ثان عن إثبات أن المخطوط له، كما أني أفدت من تقنيات الحاسوب في جوانب ذُكِرت في موضعها مما لم يؤلف عند المحققين.

وقبل الختام أنبه على أن هذه المحاولة البحثية نسبت الشرح إلى صاحبه الحقيقي العلامة عبد القادر ابن أحمد الكوكباني، وصححت خطأ وقع فيه عدد من أصحاب الفهارس والتراجم، وهو ما يدعو للتوصية بإعادة النظر في فهرسة مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء، وبخاصة المجاميع منها، فإن في مجاميعها كنوزًا مهمة، ويظهر أن فهرسة تلك المجاميع كان على عجل.

ولأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس فأتقدم بالشكر الجزيل لأختي الأستاذة أملي قاسم النهاري وفقها الله لكل خير التي عملت على توفير الطاقة الكهربائية طيلة أيام البحث في وقت انقطعت فيها

الكهرباء بسبب الأوضاع التي لا تخفى، كما أشكر كلاً من العلامة صاحب أبو جناح والعلامة عباس السوسوة فقد كانا نعم المرجعين في فك مواضع من المخطوط فجزاهما الله خيرًا.

أولاً: قسم الدراسة

١. مدخل

لمعت أسماء عدد من النحويين واللغويين في اليمن مثله في ذلك مثل بقية الأقطار التي ازدهر فيها الدرس اللغوي النحوي كالعراق ومصر والشام والأندلس وغيرها، وكتب التاريخ والطبقات حافلة بأسماء كثيرة كُتب لمؤلفاتهم الانتشار والصيت الحسن، ومن أولئك ابن أبي عباد[توفي بعد:٤٤٠هـ] صاحب المختصر في النحو(١)، ونشوان بن سعيد الحميري [ت:٥٧٣هـ] صاحب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم(٢)، ومنصور بن فلاح اليمني [ت: ٦٨٠هـ] مؤلف المغني في النحو (٣)، وابن يعيش الصنعاني[ت: ٦٨٠هـ] صاحب كتاب المحيط في الأصول والفروع وغيره (٤)، والهرمي [ت:٧٠٢هـ] صاحب المحرر في النحو(٥)، ومنهم علي بن سليمان الحيدرة [توفي بعد ٦٠٢هـ] (٦) مؤلف كشف المشكل في النحو (٧)، قال فيه ياقوت: " من وجوه أهل اليمن وأعيانهم علمًا ونحوًا وشعرًا، وصنّف كتبًا منها كتاب في النحو سماه "كشف المشكل" " (٨)، وهو صاحب الأبيات التي نحن بصدد تحقيق شرحها، كما أن شارحها هو أحد كبار علماء العربية في اليمن في عصره.

وموضوع هذا الشرح هو المقصور والممدود، وهو موضوع مهم في الدرس النحوي والعربي عُني

---

(١) حققه حميد أحمد عبدالله إبراهيم رسالة ماجستير بإشراف الدكتور عليان محمد الحازمي في جامعة أم القرى عام ١٤١٣هـ.

(٢) طبعته دار الفكر في دمشق بتحقيق حسين العمري وآخرين عام ١٤٢٠هـ.

(٣) طبعت دار المثنى ربع الكتاب في ثلاثة مجلدات بتحقيق عبد الرزاق السعدي عام ١٩٩٩م.

(٤) حقق الجزء الأول منه علي بن حسن محمد الظاهري رسالة ماجستير بإشراف عبد الرحمن العثيمين في جامعة أم القرى عام ١٤١٤هـ.

(٥) طبعته دار السلام في القاهرة بتحقيق منصور علي محمد عبد السميع عام: ١٤٢٦هـ.

(٦) يجمع كل من ترجمه من المعاصرين على متابعة ياقوت في أنه توفي عام ٥٩٩هـ، وقد تبين لي أنه كان حيًا عام ٦٠٢هـ من خلال رده على قصيدة أنشأها عبد الله بن حمزة [ت-٦١٤هـ] عام ٦٠٢هـ بعد أن نكل بالمطرفية فرقة الحيدرة: ينظر قسم الدراسة من (شرح ملحة الإعراب لعلي بن سليمان الحيدرة) دراسة وتحقيق لكاتب هذه الأسطر صفحة: ٢٠، ٢١.

(٧) حققه لنيل الماجستير: عطية مطر الهلالي في جامعة عين شمس عام ١٩٧٤م، وحققه كامل محمد يعقوب أبو أسنينة للماجستير أيضًا في جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، وتحقيق الهلالي طبع غير مرة آخرها عن دار عمار في الأردن ٢٠٠٢م، وله نشرتان أخريتان في لبنان والمغرب.

(٨) معجم الأدباء: ١٣/ ٢٤٣.

بالتأليف فيه من قديم، وقد رصد بعض الباحثين حركة التأليف فيه فذكر أربعين مؤلَّفًا(١)، وجاء من بعده من له إضافات واستدراكات(٢)، وتأتي أسماء كبيرة لتساهم في التصنيف فيه مثل الفراء [ت: ٢٠٧هـ] وابن ولاد [ت:٣٣٢هـ] وابن دريد [ت:٣٢١هـ] وأبو علي القالي [ت:٣٥٦هـ] وأبو البركات الأنباري [ت: ٥٧٧هـ] وابن مالك [ت:٦٧٢هـ]. وغيرهم. (٣)

٢. الحيدرة اليمني وأبياته في المقصور والممدود

هو أبو الحسنِ عليّ بن سليمانَ بن سعدٍ بن إبراهيمَ بن عليٍّ بنَ تميمٍ الحيدرة، كما سماه العلامة الشارح مطلع شرحه للأبيات السالفة الذكر، ترجم له عدد من المؤلفين في القديم والحديث، وأجمع من ذكر وفاته منهم على أنه توفي عام [٥٩٩هـ] وترك مولده غفلاً عندهم جميعًا، كما يجمع الجميع على أنه مقدم في النحو واللغة شاعر ناظم مؤلف(٤).

الرجل كان مطرفيًا ناضل شعرًا ونثرًا ضد إمام الزيدية في عصره عبد الله بن حمزة [ت: ٦١٤هـ] إذ نكل هذا الأخير بالمطرفية فهدم دورهم وسبا نساءهم وقتل رجالهم وأحرق كتبهم وقراهم، ويذكر كاتب سيرة عبد الله بن حمزة جانبًا من حياة الحيدرة وقصائده في ذلك (٥).

للرجل من المؤلَّفات كشف المشكل في النحو، وهو الكتاب الذي عرف به قديمًا وحديثًا، فقد ذكره له كل من ترجم له(٦)، وله شرح على ملحة الإعراب للحريري(٧)، كما أنه ذكر في كتابه كشف المشكل أنه له كتابًا سماه (المباني والمعاني في القرآن الكريم) (٨) وكان ياقوت [ت: ٦٢٦هـ] قد نص على أنه "ألف كتبًا" (٩).

الحيدرة كان قد ضمن كتابه (كشف المشكل في النحو) ثلاث منظومات قصيرات: إحداها في أوزان جموع التكسير، والثانية في أوزان المقصور والممدود، والثالثة في أوزان الظروف وبيان حكم الآلة(١٠)،

---

(١) رمضان عبد التواب، ينظر: المقصور والممدود للوشاء: قسم الدراسة: ١٦-٢٣.

(٢) عبد الإله نبهان ومحمد خير البقاعي، ينظر: المقصور والممدود للفراء: ١٣-١٨.

(٣) المرجعين السابقين: ص ن.

(٤) ينظر: معجم الأدباء: ١٣/ ٢٤٣ومعجم البلدان: ١/ ٤٧٦ والوافي بالوفيات:٢١/ ٩٨ وتاريخ بني الوزير: ٢٢١ وكشف الظنون:٢/ ١٤٩٥وبغية الوعاة:٢/ ١٦٨ ومطلع البدور: ٣/ ٢٥٣، والمستطاب: ٤٥/ب، تاريخ الأدب العربي: ٥/ ١٢٠٢، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن: ٣٧٥، وأعلام المؤلفين الزيدية: ٦٨٢، وقد سبق غير يعين أني حققت في وفاته، وأنه توفي بعد [٦٠٢هـ] ينظر شرح ملحة الإعراب للحيدرة اليمني: ٢٠-٢١.

(٥) ينظر: السيرة المنصورة لأبي فراس بن دعثم: ٢/ ٨٤٧، ٨٧٦.

(٦) تنظر المصادر في هامش رقم (١).

(٧) حققه كاتب هذه الأسطر رسالة ماجستير في آداب جامعة تعز بإشراف العلامة عبد المنعم أحمد صالح ٢٠٠٨م، وأوصت لجنة المناقشة بطبعه، غير أن شيئًا من ذلك لم يحدث.

(٨) ينظر: كشف المشكل: ٦٢٢، وقد طال البحث عن هذا الكتاب أو أي بيانات عنه دون جدوى سوى ذكر الحيدرة له.

(٩) معجم الأدباء: ١٣/ ٢٤٣.

(١٠) ينظر كشف المشكل: ١٩٥، ٥٤٩، ٥٧٩.

ومنظومه في الممدود والمقصور وقف عليه علامة زمانه عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر الكوكباني [ت-١٢٠٧هـ] فشرحه شرحًا مختصرًا، والمنظوم مع شرحه هو موضوع هذه المحاولة البحثية.

أما شرح هذه الأبيات الذي ذكر الشارح أنه وقف عليه في كشف المشكل فالذي يترجح لي أنه ليس للناظم بل لشخص آخر غيره لعله أحد تلامذته، ولعل النساخ اجتهدوا فأدخلوه في نسخ كشف المشكل، ويدل على ذلك أن الحيدرة أثبت الأبيات بعد أن انتهى من حديثه المفصل عن الأبواب المتعلقة بالممدود والمقصور في كتابه المذكور(١) قائلاً قبل إيرادها: " وكان سألني بعض إخواني - أيدهم الله تعالى - أن (٢) أجمع له شيئًا من أوزان الممدود والمقصور المقيسين(٣) في أبيات مختصرة ليرجع بعد النسيان إليها، ويعتمد عند الإشكال عليها، فقلت في ذلك.." وسرد الأبيات، ولا يعقل أن يذكر كل تلك الأوزان مرتين مرة في تلك الأبواب المذكورة وبذلك التفصيل، ثم يعود لذكرها في شرحه للأبيات، وإنما جعل الأبيات أشبه ما تكون بالخلاصة، إلى جانب أن الذي ساهم في كشف المشكل المطبوع والمخطوط أنه بعد إثبات شرح كل بيت على حدة نجد كلمة (رجع) مما يدل على أنها لم تكن في النسخة الأساس التي نسخ كشف المشكل عنها، علاوة على استعمال ضمير الغائب في شرحها كـ(أراد بقوله) و(عنى بقوله).. إلخ.(٤)

وكان العلامة الشارح قد قال في مطلع شرحه للأبيات :" ثُمَّ في ذي الحجةِ سنةَ ١١٨٩[هـ] عثرتُ على كتابِهِ (كشف المشكل في النحو)، وإذا هيَ فيه مشروحةٌ شرحًا مختصرًا بالنّسبةِ إلى هذا الشّرحِ، لكنْ فهمتُ في مواضعَ يسيرةٍ من النّظمِ خلافَ ما يريدُ، ولعلّ ما أَفْهَمَهُ نظمُه أحسنُ مما أراده، فتنبّهتُ على ذلك " ولعل تلك قرينة مهمة على أن الشرح ليس للحيدرة من جهة، ودليل على تنبه العلامة الشارح ودقة ملحوظته من جهة أخرى.

٢. نسبة المخطوط

المصادر التي ذكرت هذا المخطوط نسبته نظمه وشرحه للحيدرة اليمني (٥)، والواقع أن النظم للحيدرة اليمني علي بن سليمان إذ هو موجود في مصنفه الشهير (كتاب كشف المشكل في النحو) ، وأما الشرح فإنه للإمام عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر الكوكباني، والسبب الذي أوقعهم في هذا الوهم هو الاعتماد على فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء، ولكون المخطوط ضمن أحد المجاميع التي تضم عددا من المؤلَّفات، وكون المنظوم في الصفحة الأولى من المخطوط

---

(١) وهي: باب أصول الممدود، وباب أصول المقصور، وباب ما يمد فلا يقصر وما يقصر فلا يمد وما يقصر ويمد والمعنى واحد، وباب ما يمد فيكون له معنى ويقصر فيكون له معنى آخر، وباب الممدود المقيس، وباب المقصور المقيس، ينظر كشف المشكل :٥٢٥ - ٥٤٩.

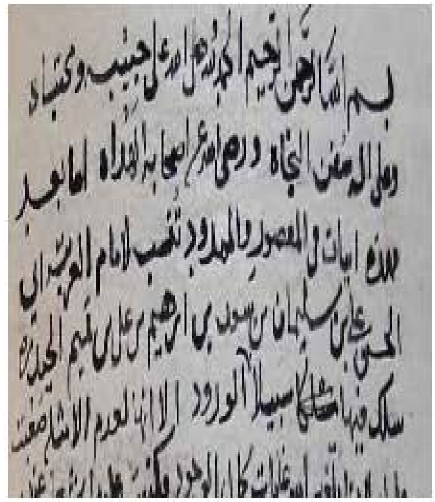
(٢) سقطت (أن) من المطبوع من كشف المشكل: ٥٤٩، وهي في المخطوط منه: ل١٥٦/أ.

(٣) في المطبوع من كشف المشكل: (المقيس) ٥٤٩، وفي المخطوط منه (المقيسين): ل١٥٦/أ.

(٤) ينظر كشف المشكل: (ط) ٥٤٩-٥٥١، و(خ)ل١٥٦أ- ١٥٧أ.

(٥) فهرس مخطوطات المكتبة الغربية في الجامع الكبير بصنعاء: محمد سعيد طليح وأحمد عيسوي: ٧٣١ وقد جاء فيه ما نصه: " يليها أبيات نظمها وقام بشرحها أبي الحسن علي بن سليمان بن سعد بن إبراهيم بن تميم الحيدرة في المقصور والممدود ويكتب النظم بالأحمر والشرح بالأسود من ١٦٩- ١٧٢ " أ.ه. بنصه وحروفه، ومن جاء بعده تابعه في ذلك، وينظر: مصادر الفكر الإسلامي: ٣٦٥، وأعلام المؤلفين الزيدية: ٦٨٢.

[ينظر: شكل (١)] وفي أول الصفحة الثانية ذُكِر اسم صاحب المنظوم [ينظر شكل رقم (٢)]، وهو ما اكتفى به المفهرسان دون فحص لأول المخطوط وآخره كونه ضمن مجموع بعكس المخطوطات المستقلة التي يعنى كثيرًا بأول المخطوط وآخره وناسخه وغير ذلك، ومن نقل عن الفهرس المذكور وقع في الوهم نفسه.

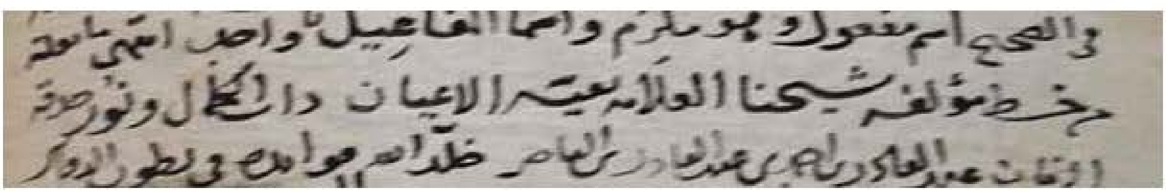


(شكل رقم :١)



(شكل رقم (٢)

وعليه فإن الصواب في الأمر هو أن أبيات هذا المنظوم الذي يتكون من عشرة أبيات اثنان منها مقدمة وأربعة في أوزان الممدود وأربعة في أوزان المقصور هي للحيدرة اليمني ذكرها في كشف المشكل[1]، وأما تكملة النظم وهي أربعة أبيات إلى جانب شرح الأبيات جميعها فذلك للإمام عبد القادر ابن أحمد بن عبد القادر الكوكباني، دل على ذلك ما ذكره الناسخ في نهاية المخطوط آخر الشرح ونصه: "انتهى ما نقلته من خط مؤلفه شيخنا العلامة بقية الأعيان ذات الكمال، ونور حدقة الزمان عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر، خلد الله فوائده في بطون الدفاتر" [ينظر: الشكل رقم (٣)]:



شكل رقم (٣)

وبشأن تكملة الأبيات جاء في المخطوط قبل سردها: " تكميل للشارح.. " [ينظر الشكل رقم (٤)]:



شكل رقم (٤)

(١) ٥٤٩ - ٥٥١.

إضافة إلى أن سياق افتتاح الشرح يؤكد على أنه ليس للحيدرة وإنما لشخص آخر ذكر اسمه في آخر الشرح، ينظر شكل رقم (٢) وشكل رقم (٣).

وعليه فلا ينبغي أن يكون عندنا شك قيد أنملة في أن الشرح وتكملة النظم ليس للحيدرة وإنما هو للكوكباني، بينما النظم الأصلي إنما هو للحيدرة.

٤. العلامة الكوكباني وشرحه

٤،١. العلامة الكوكباني:

لا أبالغ إن قلت إننا بين يدي واحد من كبار أعلام العربية والإسلام في اليمن عبر القرون، وأعتقد جازمًا أنه جدير بدراسة مستقلة تتناول جوانب حياته ورحلاته العلمية، فقد كان الرجل واسطة بين علمين مشهورين من أعلام الإسلام في اليمن، انتقل بواسطته العلم وبخاصة علوم السنة والأثر من أحدهما إلى الآخر، أما الأول فهو شيخه الإمام المجتهد المطلق محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني [ت: ١١٨٢هـ] إذ لازمه سبع سنين [١]، وأما الآخر فهو تلميذ الكوكباني الأخص والأشهر شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني: [ت: ١٢٥٠هـ] فقد لزمه طويلاً وانتفع به. [٢]

وكلام الإمامين السابقين في الكوكباني ما يقرر ما سبق ويؤكده، فشيخه الأمير الصنعاني يقول رادًا على قصيدة له فيه:

مثل تلميذنا العزيز أبي إبراهيم فخر الآباء والأجداد

نور عين الذكاء وبادرة الدهر ومن نار ذهنه في اتقاد

لو تقدم زمانه عضد الدين لكانت له عليه الأياد

أو تقدم على الشريف وسعد الدين كانوا له من القصاد

لينالوا منه الذي لم ينالوا من علوم جلت عن التعداد[٣]

وأما الإمام الشوكاني فيقول عنه: " وَبِالْجُمْلَةِ فَلم تر عيني مثله في كمالاته، وَلم آخذ عَن أحد يُسَاوِيه في مَجْمُوع علومه، وَلم يكن بالديار اليمنية في آخر مدّته لَهُ نَظِير ". [٤]

---

(١) ينظر: نيل الوطر: ٤٦/٢.

(٢) ينظر: البدر الطالع للشوكاني: ٣٦٦/١.

(٣) نيل الوطر: ٥١/٢.

(٤) البدر الطالع للشوكاني: ٣٦٥/١.

ويقول عن طريقته في التعليم: " وَله في حسن التَّعْلِيم صناعَة لَا يقدر عَلَيْهَا غَيره، فإنه يجذب الى محبته وإلى الْعَمَل بالأدلة مَن طبعه أكثف من الصخر، وإذا جالسه منحرف الأَخْلَاق أَو من لَهُ في الْمسَائِل الدِّينِيَّة بعض شقَاق جَاء من سحر بَيَانه بِمَا يؤلف بَين المَاء وَالنَّار وَيجمع بَين الضَّب وَالنُّون، فَلَا يُفَارقهُ إِلَّا وهُوَ عَنهُ رَاض، وَلَقَد كنت أرى مِنْهُ من هَذَا الْجِنْس مَا يزْدَاد مِنْهُ تعجبي، ولذا تم خبره بأحوال النَّاس وَبِمَا يَلِيق بِكُل وَاحِد مِنْهُم وَمَا يُنَاسبه وما لا يُنَاسبه".[1]

ويقول عن سعة اطلاعه: " وَله في علم الطِّبّ مُشَاركَة قَوِيَّة، وله في كل الصناعات العملية كائنة مَا كَانَت أتمّ اختبار ".[2]

وكان الشوكاني قد وصفه بقوله: " شَيخنا الإمام الْمُحدث الْحَافِظ الْمسند الْمُجْتَهد الْمُطلق" ونجده يصفه بأنه " شيخنا العلامة الأكبر السيد " و"شيخنا السيد الإمام "[3].

ونجد إجماع من ترجم له أنه لم يترك مدينة أو هجرة فيها من يؤخذ عنه إلا وارتحل إليها، وهو الأمر الذي يعكس حرصًا منقطع النظير على التلقي والاطلاع على كل العلوم فقد " أخذ العلم عن الجهابذة من أهل صنعاء وزبيد والحرمين الشريفين "[4] وممن وفد إليهما وجاور فيهما[5]، كما كان من آثار ذلك الارتحال كثرة مشايخه على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم وبلدانهم، فـ-"له من المشايخ نيف وثمانون شيخًا"[6] على أن أشهرهم في صنعاء الإمام الصنعاني الذي تظهر آثار حبه للسنة أخذًا وتعليمًا فيه[7]، كما أن آثار ذلك كثرة طلبته على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم وبلدانهم، وحرصه على دوام الاطلاع شمل إلى جانب الرحلة البحث والتفتيش عن المصادر والمراجع، وهو ما يمكن أن نجد له صدى في هذه الرسالة على اختصارها، إذ يقول بعد أن شرح هذه الأبيات:" ثُمّ في ذي الحجةِ سنةَ ١١٨٩[هـ] عثرتُ على كتابِه (كشف المشكل في النحو)" ولا يخفى مدلول كلمة (عثرت) في تعزيز ذلك، كما يمكن أن يعد من أهم ذلك تنوع ما تركه من إرث علمي.

ولم يكن الصنعاني والشوكاني هما الوحيدين في ذكر تلك الخلال والصفات، بل تجد كل من ترجم

(١) البدر الطالع للشوكاني: ٣٦٤/١.
(٢) السابق: ص ن.
(٣) السابق: ٣٦٠/١، ٢٠١، ٧٧، ٢١٤.
(٤) النفس اليماني: ١٨٥، وينظر: نيل الوطر: ٤٥/١.
(٥) السابق.
(٦) النفس اليماني: ١٨٥.
(٧) ينظر: البدر الطالع: ٣٦٤/١، النفس اليماني: ١٨٥.

له يسوق مثل ذلك وأكثر [١]، ومما يدلك على مكانته أنه كان محل إجماع في بعثه لمعرفة حقيقة حال أحد الدجاجلة الذين بليت بهم اليمن، فسار إليه وعرف حاله وبدأ منذ تلك اللحظة في إطلاق صيحة التحذير منه التي انتهت بمقتله وتخليص المسلمين في اليمن من شره. [٢]

وعن نضجه الفكري وتوجهه العقدي يمكن أن نستشف من قوله في شرحه لقول الحيدرة: " تحض بالأجر الكبير لحفظك بابين عظيمين من أبواب العربية التي لا تتم معرفة الكتاب والسنة بغيرهما "، وهو ما يشي بتوجهه العقدي الذي يظهر من شرحه هذا، ويؤكده مترجموه من الاهتمام بالكتاب والسنة، فالرجل كان كشيخه الأمير الصنعاني محبًا للسنة وناشرًا لها، بل الذي يظهر من كلام الشوكاني في ترجمته أنه من أحيا علوم السنة النبوية في صنعاء بعد أن اندرست، يقول: " ثم لما أراد الله إحياء علوم الحديث بل وسائر العلوم بصنعاء جرت بينه - يعني الكوكباني - وبين أمير كوكبان السيد إبراهيم بن محمد بن الحسين مناكدة فأظهر أنه يريد الخروج من كوكبان إلى وادي ظهر للتنزه به أيام الخريف.. فخرج واستقر أيامًا بوادى ظهر وما زال يرسل لأهله ولكتبه..ثم كتب إلى الوزير الحسن بن على حنش بأنه يريد الانتقال إلى صنعاء فرفع القضية إلى خليفة العصر.. فأذن بذلك.. ووفد إليه أكابر علماء صنعاء، وأخذ عنه جماعة من أعيانهم..". [٣]

---

(١) ترجم له عدد من كبار علماء اليمن كجحاف في درر الحور العين وحيدرة في مطلع الأقمار وزبارة في نيل الوطر والأهدل في النفس اليماني والمزجاجي في نزهة رياض الإجازة المستطابة والشجني في التقصار وغيرهم، وكلهم يثني عليه ويذكر ما لا يخطر على بال فيه، ومن ذلك ما قاله: تلميذه عبد الرحمن بن سليمان الأهدل [ت: ١٢٥٠]: وهو يعدد مشايخه الذين حصل منهم على إجازة:

"ومنهم شيخنا، السيد الإمام إنسان عين الأعلام، صدر العلماء المعتمدين والأئمة المجتهدين عبد القادر بن أحمد ابن عبد القادر الحسني - رحمه الله - له العلوم الزاخرة، والأحوال الشريفة الفاخرة، والأخلاق النبوية والسيرة المحمدية، أخذ العلوم عن الجهابذة من أهل صنعاء وزبيد والحرمين ... وله من المشايخ نيف وثمانون شيخًا، ومن المؤلَّفات ما يزيد عن الأربعين مؤلَّفًا، ... هذا ومناقب سيدي عبد القادر ومزاياه وفضائله وفواصله وشرح تفصيل أحواله يحتمل مؤلَّفًا حافلاً، وقد ترجمه وامتدحه من علماء صنعاء ومن غيرها من أهل الأمصار عدة من العلماء الأعلام ... " النفس اليماني: ١٨٥- ١٨٦.

وقال في صفته عبد الخالق المزجاجي على الرغم من أنه شيخ له، وهو يتحدث عن بعض مؤلَّفاته: " وقد وقف عليه السيد العلامة نادرة أهل الزمان وجوهرة أهل العرفان صفي الدين عبد القادر بن أحمد، لا زال في مجد مؤيد .." وقال في موضع آخر وهو يتحدث عن بعض المسائل: " وشاعت هذه القضية حتى ألف فيها السيد العلامة الفهامة، سيد أهل البيت والاستقامة، عبد القادر بن أحمد، أمتع الله به -- رسالة قدر كراس أحسن فيها غاية الإحسان، وأبان عن باطل هؤلاء غاية البيان " نزهة رياض الإجازة المستطابة: ٣٩٠- ٣٩١.

وممن ترجم له العلامة أحمد قاطن [ت ١١٩٩ هـ]، ومما قاله فيه: " ومنهم سيدي عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر ابن الناصر، إمام العلوم ومحقق الرسوم فخر اليمن بل فخر الزمن ارتضع در العلوم صغيرًا، وأفاد الطالبين كبيرًا، وسكن مكة المشرفة أيامًا بل أعوامًا وخرج وأعين النبلاء إليه تسامى له السند العالي مع النسب الغالي ... مظهرًا للسنة النبوية على رؤوس الأشهاد ومبكتا لأهل البدعة في الحاضر والباد .. " إتحاف الأحباب بدمية العصر الناعتة لمحاسن بعض أهل العصر: ١٢١، كما ترجم له صديق حسن خان في أبجد العلوم: ١٨٣/٣، والزركلي في الأعلام: ٣٧/٤، وإسماعيل الأكوع في هجر العلم ومعاقله في اليمن: ١٨٩١/٤- ١٨٩٢.

(٢) ينظر: البدر الطالع: ١٠١/٢، ونيل الوطر: ٤٦/٢.

(٣) البدر الطالع: ٣٦٤/٢.

كما يذكر الشوكاني أيضًا أن صاحب الترجمة هو من رغبه في شرح منتقى الأخبار للمجد ابن تيمية وراجع له بعض أجزائه وأرشده إلى الاختصار فيه ,وهو ما عُرِفَ بـ(نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار) [1]، وهو ما جعل بعضهم ينسبه إلى الشافعية، على الرغم من أن الرجل من بيت علمي زيدي أبا عن جد، لكنه كغيره من مجتهدي الزيدية الكبار استطاع التخلص من التعصب المذهبي، وكان من كبار أنصار السنة النبوية، وأخذ علي يديه علماء اليمن من مختلف المذاهب كتب السنن كافة[2]، كما يظهر ذلك التوجه من خلال ترضيه عن الصحابة في أول شرحه لهذه الأبيات.

كما أنه يظهر من القول السابق " تحض بالأجر الكبير لحفظك بابين عظيمين من أبواب العربية التي لا تتم معرفة الكتاب والسنة بغيرهما " أنه يفرق بين علوم الآلة وعلوم الغاية، فالهدف من معرفة بابي الممدود والمقصور هو الهدف من معرفة العربية بعلومها المتمثل في معرفة الكتاب والسنة، ومعلوم مكانة معرفة العربية في فهم الشريعة وأحكامها، ومن يطالع كلام الإمام الشاطبي في كتبه يجد الارتباط الوثيق بينهما، وقبله كلام الإمام الشافعي في الرسالة[3].

ومما يجدر بالذكر أنه الرجل ولد في ذي العقدة من عام ١١٣٥هـ وتوفي في ربيع الأول من عام ١٢٠٧هـ في صنعاء عن واحد وسبعين عامًا[4]، وله من الأبناء إبراهيم ويكنى به وأحمد، وقد بلغا في العلم شأوًا كبيرًا على مذهب أبيهم في حبهم للسنة والحديث[5] على الرغم من انتمائهم إلى الأسر الزيدية ممن حكم اليمن باسم المذهب، كما أن له من المؤلَّفات ما يربو على الأربعين [6] على الرغم من أن الشوكاني يقول فيه: " ولم يكن له كثرة اشتغال بالتأليف، ولو أراد ذلك لكان له في كل فن مالاً يقدر عليه غيره، وله رسائل حافلة ومباحث مطولة هي مجموعة في مجلد، والكثير منها لم يكن فيه، فإنه كان مقصودًا بالمشكلات في كل فن من جميع الأقطار اليمنية، ولكنه لم يحرص على جمع ذلك كلية الحرص، ومن مؤلَّفاته شرح نزهة الطرف في الجار والمجرور والظرف للسيد العلامة صلاح ابن الحسين الأخفش[7].، وله فلك القاموس في كراريس[8] وله حواش على ضوء النهار في نسخته لو

(١) السابق: ٣٦٢/٢.

(٢) نيل الوطر: ٤٦/٢.

(٣) ينظر: الرسالة للإمام الشافعي: ٥١٠ - ٥١١، والموافقات للشاطبي: ١١٨/٣.

(٤) ينظر: البدر الطالع: ٣٦٨/١.

(٥) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية: ٥٢، ١٢٧ - ١٢٨.

(٦) ينظر: النفس اليماني: ١٨٥.

(٧) صدر عن مكتبة الإرشاد بالتعاون مع دار ابن حزم بتحقيق: عبد الرحمن المعلمي، وقد سما شرحه: إحكام العقد الوسيم في الظرف والجار والمجرور وما لهما من التقسيم وهو شرح على العقد الوسيم للأخفش الصنعاني [ت ١١٤٢هـ].

(٨) جعله كالمقدمة للقاموس المحيط ذكر فيه قواعد للناظر فيه ومآخذ أخذت عليه وأجوبتها، ومتفرقات في المادة اللغوية التي اشتمل عليها، وقد حققه الدكتور إبراهيم السامرائي، وصدر عن دار الجيل: بيروت عام: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م

جمعت لكانت حاشية مستقلة"[1]، ومنها (السؤال المتضمن لتحقيق الإشكال في تحقيق مسألة الزكاة)، و(مجموع الرسائل المتبادلة بين شيخ الإسلام عبد القادر بن أحمد وغيره)[2]

وكان العلامة صارم الدين إبراهيم بن عبد الله بن إسماعيل الصنعاني [ت:١٢٢٣هـ] قد صنف كتابًا خصصه لترجمته، وسماه: (قرة النواظر بترجمة شيخ الإسلام عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر وجميع مشايخه ومشايخهم ومن أخذ عنه أو كاتبه من الأكابر) [3]، وترجم له ترجمة إضافية في كتابه نفحات العنبر في تراجم أعيان وفضلاء اليمن في القرن الثاني عشر. [4]

٤. ٢. منهجية الشارح في شرح الأبيات :

بادئ ذي بدأ لا بد من الإشارة إلى دوافع شرح هذا المنظوم عند الكوكباني، ومنها كونه مختصرًا سلك فيه ناظمه " سبيلا سلهة الورود" على حد قول الشارح، ولكونه خلا من الأمثلة، فصعب على أولاده، وهو ما جعله يكتب عليه شرحًا هدفه تعليمي صرف إذ هو في الأعم الأغلب يضبط ألفاظه - أعني النظم - ويمثل له ويشرح الغريب الذي يحتاج إلى شرح، ولعل من تلك الدوافع أيضًا أنه " لإمام العربية علي بن سليمان... الحيدرة "، كما أنه يمكن أن يؤخذ من كون الكوكباني أتمه وأكمله أنه لاحظ حاجة ذلك النظم إلى إتمام وإكمال، وعليه فيمكن الاطمئنان إلى القول بأن مقاصد التأليف قد توفرت في عمله الذي امتاز بميزات العمل الجيد والتأليف الحسن، ومن تلك الميزات :

٤. ٢. ١. حسن التقسيم والربط :

اتخذ الشارح صورًا عدة يمكن أن تدخل في حسن التأليف، ويأتي على رأس ذلك التقسيم الماثل للعيان في شرحه، فالرجل بدأ بسرد أبيات الحيدرة وأردفها بالأبيات التي استدركها على الحيدرة وذكر فيها أوزانًا إضافية للمقصور أغفلها الحيدرة، ثم أتى بافتتاحية مختصرة يتناسب حجمها مع حجم الرسالة أبان فيها دافع الشرح وهدفه، وحقق فيها نسبة الأبيات لصاحبها، وعقد فيها موازنة مقتضبة بين شرحه للأبيات وما اعتقد أنه شرح لصاحبها، وجعل بعد ذلك مقدمة للتعريف بالمقصور والممدود، وأردف تلك المقدمة بأوزان الممدود منبها على ما يحتاج التنبيه، ثم أتى بأوزان المقصور، وأتبع ذلك بالتكميل الذي نظمه مع شرحه، واختتم عمله بذكر السماعي الذي لا تشمله الأوزان الواردة في النظم، جاعلاً للأجزاء الرئيسية من شرحه عناوين مفردة مبرزة، رابطًا بين أجزاء شرحه على اختصاره فتراه يقول: وهذا قد سبق في كذا أو هذا سيأتي في كذا، وغير ذلك مما ساعده على الاختصار.

---

(١) البدر الطالع: ٣٦٦/١.

(٢) ينظر: مصادر التراث في المكتبات الخاصة في اليمن: ٣٤٤/٢ ، وله شرح على أبيات الفيروز أبادي وابن المقري حول (إن) و(أن) والفروق بينهما: حققه حسن محمد علي في رسالته للماجستير في جامعة عدن بإشراف أحمد سالم الضريبي عام: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٣) ذكره مؤلفه في كتابه نفحات العنبر في مواضع منها عند ترجمته للشارح: ٢٣٨/٢، ونسبه له غيره، لكن أحد لم يذكر عنه أكثر من ذلك.

(٤) ٢٣٨/٢ - ٢٨٨.

٤. ٢. ٢. نسبة الأقوال:

الشارح في ذكره لأقوال السابقين يوثق تلك الأقوال وينسبها لأصحابها على نحو ما فعل في تعريفه للمقصور والممدود إذ نقل ذلك عن ابن الحاجب ونسبه إليه، وكذلك فعل في إشارته إلى السماعي منها، وهو في كل مرة ينقل عن أحد ينص على من نقل عنه، كالرضي وابن هطيل، وكذلك في نقله من شرح الأبيات الذي في كشف المشكل للحيدرة، ومما له صلة بذلك ما يذكره من مسائل الخلاف كما في نحو ما جاء على (فِعِّيلى) مقصورًا، فقد نقل عن الرضي جواز مده عند بعضهم.

٤. ٢. ٣. الضبط:

ومن الأمور التي يلحظها الناظر الضبط المنتشر في الشرح على نطاق واسع إذ ما من صيغة ذكرها الناظم في أبياته إلا وضبطها على طريقته في الضبط كما في قوله:"فمدوا جمع فعلة "بفتح (الفاء) وسكون (العين)"ويشيع هذا كثيرًا عنده.

٤. ٢. ٤. مآخذه على السابقين

الشارح يسجل مآخذه على الآخرين بما فيهم الناظم بإسلوب هادئ بعيد عن التشنيع وإصدار الأحكام بفساد الأقوال، وهو ما يعكس تواضعًا جمًا وينم عن خلق رفيع لاحظه فيه الإمام الشوكاني في ترجمته له، وصوره بقوله: " وَكَانَ لما جبل عَلَيْهِ من حسن الْأَخْلَاق لَا يبدى من علومه عِنْد المناظرة مَا يَنْقَطِع بِهِ من يناظره لاسيما إذا كَانَ من يناظره من الْمُقَصّرِينَ كل ذَلِك محبَّة مِنْهُ لجبر الخواطر وائتلاف الْقُلُوب..." ويؤكد أن " الحامِل لَهُ على التسامح فِي مناظرتهم مَا جبل عَلَيْهِ من سماحة الخلق، وَكَانَ رَحمَه الله لَا يتَعَرَّض لتنقيص أحد كَائِنًا من كَانَ بل يذكر من كل أحد مَا اشْتَمَل عَلَيْهِ من المحاسن ويغطى عَن مساويه ". [(١)]

ومن ذلك ما سجله على ما وجده في كتاب (كشف المشكل) من شرح لهذه الأبيات :" فهمت في مواضع يسيرة من النظم خلاف ما يريده، ولعل ما أفهمه نظمه أحسن مما أراده "، كما أنه يشير إلى ما أغفله الناسخ من بعض المهمات بقوله: " ولظهور هذا القيد لم يحتج الناظم إلى ذكره "، ومن ذلك استدراكه على الناظم من صيغ الممدود " ومن الممدود ما جاء للمبالغة من اسم الفاعل ونحوه على وزن (فَعّال)... إذا كان معتل اللام نحو (مَشّاء) " ثم لم يترك الأمر هكذا بل أتى بالبيت الذي كان بصدد شرحه وأقامه مع إضافته فقال: " فلو قال:

و(فَعَّال) و(أَفْعِلَة) (فَعال) وجمع (الفُعَل) معتل الأخير

بينما كان قول الناظم:

وواحد جمع (أفعلة) (فعال) وجمع (الفعل) معتل الأخير

الاستدراك الأبرز للشارح على الناظم ذكر فيه عددًا من الصيغ الخاصة بأوزان المقصور في أربعة أبيات جعل لها عنوانًا هادئًا هو (تكميل) علاوة على أنه كان قد اعتذر للناظم في عدم ذكرها، وما

---

(١) البدر الطالع: ٣٦٥/١.

أضافه إلى النظم جعله من البحر الذي جاء عليه نظم الحيدرة , ومن الروي نفسه، وشرحه الكوكباني وفق ما شرح عليه أبيات الحيدرة سواء بسواء.

الشارح لم يقتصر فيما استدركه على الناظم إذ استدرك على غيره، فقد ذكر أن المشهور في (الغراء) المدّ، وعليه فإن قصره شاذ، وهو ما يشير إلى ما ذكره ابن الحاجب في الشافية، لكنه ينقل تفصيلاً لابن هطيل يستخلص منه أنه لا شذوذ فيه.

٤. ٢. ٥. تفسير الغريب :

ومما يلحظ على طريقة الشارح أنه يعمد إلى تفسير ما يغلب على ظنه أنه القارئ أو المتلقي بحاجة إلى تفسيره وإيضاحه، وهو من الظهور والانتشار في الشرح بحيث لا يحتاج إلى أمثلة.

٤. ٢. ٦. مصادره :

على الرغم من أن الشارح اعتمد في شرحه على ذاكرته ولم يرجع إلى مصادره، إذ إنه كتبها كما قال من عند الشروق إلى الضحى، غير أنه صرح ببعض المؤلفين كابن الحاجب والرضي وابن هطيل، ومعلوم اعتماد علماء اللغة على شافية الأول وشرح الثاني لها، وهو ما ظهر من خلال البحث عن ما ذكره عنهما في مظانه من كتبهما وسيشار إليه في موضعه من تحقيق النص، وأما ابن هطيل فليس في المطبوع من كتبه ما نقله عنه، غير أن ذلك ليس كل ما يمكن أن يقال إنه أفاده ممن قبله، فقد أفاد من كشف المشكل للناظم وبخاصة في مواضع من الشرح الموجود في الكشف لتلك الأبيات، كما أن بعض ما ذكره من معاني المفردات لم يجده الباحث إلا عند الزمخشري في أساس البلاغة مما يوحي بأنه كان من مراجعه، ومن ذلك بعض من كتب التراجم كوفيات الأعيان الذي يمكن أنه قد أخذ عنه سبب تسمية جرير الشاعر المشهور.

٤. ٢. ٧. أسلوبه ولغته:

خلا أسلوبه من التعقيد، وكانت لغته سهلة ميسرة بعيدة عن التكلف، ولا تكاد تجد فيها تلك الصنعة التي تتكلف السجع، أو تستعمل الوحشي من الألفاظ أو الغريب من الأقوال.

٤. ٢. ٨. شواهده:

طبيعة الشرح واختصاره كانت خلف شحة الشواهد فيه، فالشارح لم يورد إلا شاهدين اثنين من الحديث النبوي على قضيتين لغويتين، الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يدخل الجنة قتات " والثاني قول عمر رضي الله عنه: " لولا الخليفى لأذنت "، الأول لمعرفة معنى (قتات) والثانية لمعرفة معنى (الخليفى).

٤. ٢. ٩. القياسي والسماعي:

ظاهر اهتمام الشارح بالقياسي والسماعي في معرفة الممدود والمقصور، ففي حين ابتدأ شرحه بمقدمة لمعرفة القياسي منهما أنهاه بخاتمة لمعرفة السماعي فيهما، غير أنه كذلك يذكر ما جاء على

السماع خارجًا عن بابه في مواضع من شرحه كما في جمع (قرية) على (قرى) بينما القياس أن تكون بالمد مثلها في ذلك مثل (ركوة) و (شكوة)، وكما في جمع نحو (أسير) على (أسراء) بينما قياسه على (أسرى)، ومنه أن مفرد (أفعلة) ينبغي أن يكون ممدودًا كما في (أكسية) (كساء) و (أقبية) (قباء) لكن منه ما جاء مقصورًا كما في مفرد (أندية) إذ جاء على (ندى).

٤. ١٠. ٢. التعليمية عنده :

كان الشوكاني قد أشار إلى أن الكوكباني لم يكن له كثرة انشغال بالتأليف على الرغم من أنه امتلك آلته، ومع ذلك فإن له عددًا كبيرًا من الرسائل والمؤلَّفات التي صنفها بدافع تعليمي صرف إذ كثيرًا ما تجد أنه أجاب على مسائل أو أوضح قضية أو رد على شخص، أو كتب حاشية على كتاب أو كتب مقدمة لآخر، وللتعليمية عندها حضورها في شرحه هذا على اختصاره، إذ نجد ذلك ماثلاً في الهدف الذي من أجله أنشأ هذا الشرح، فالرجل لاحظ صعوبتها على أولاده بسبب عدم وجود الأمثلة، وهو ما دعاه إلى أن يكتب هذا الشرح، ومما له صلة بذلك أن جعل شرحه له مقتضبًا اهتم فيه بضبط الأوزان وسرد الأمثلة وشرح الغريب، إضافة إلى ذلك الدمج المحكم بين النظم والشرح، وهي جوانب تحقق الجانب التعليمي بشكل رئيسي.

كما أن ما يدل على الاعتناء بالجانب التعليمي أنه جمع بين أمرين مما يعرف بهما المقصور والممدود هما معرفة ذلك من خلال الحد والتعريف وهو ما ساقه عن ابن الحاجب وجعله كالمقدمة لشرحه، والثاني معرفتهما من خلال الأوزان، وجعل وراء ذلك أن " تحصيل الملكة من جهتين أتم من تحصيلها من جهة واحدة "، موضوع الملكة ذكره مرة أخرى في مناسبة أخرى وهو بصدد الاعتذار للناظم عن عدم ذكر جميع أوزان المقصور بأن ذكره لأغلب أوزان الممدود قد أغنى عن ذكرها، ثم وهو بصدد الاعتذار له عن ذكر بعضها بأنه إنما ذكر بعضها لتحصل بها زيادة ملكة.

ومن أهم الجوانب الدالة على الاعتناء بالتعليمية أنه ينبه على كل ما يمكن أن يتبادر إلى ذهنه القارئ أن هذا محله أو أنه يدخل في هذا فينص على أن هذا قد سبق في كذا أو أنه سيأتي في كذا، وهو ما يظهر في مواضع من شرحه لا تخفى على الناظر.

ولا يفوتني هنا التذكير بأن اختيار العلامة الكوكباني لهذه الأبيات وراءه هدف تعليمي أيضًا، وهو أن ناظمها " سلك فيها سبيلاً سهلة الورود " وإلا فالمنظوم في المقصور والممدود كثير متعدد، والسبيل السهل المشار إليه كما يشمل الصيغ التي جمعها الناظم يشمل أيضًا البحر الذي اختاره الناظم لأبياته إذ جعلها على الكامل، وهو يمتاز بذلك عن جمهور أصحاب المنظومات العلمية التي ما تكون في الغالب على الرجز.

في نهاية الحديث عن منهجه يشار إلى أنه كل ما سبق يندرج في حسن التأليف وإحكام التصنيف وهو ما يلمس في طبيعة التأليف لديه، ولذلك وجدنا من مؤلَّفاته ما يطلق عليه: (إحكام العقد الوسيم في الجاز والمجرور والظرف وما لكل منهما من التقسيم) وفلك القاموس، وفي هذا الشرح على اختصاره إلى جانب ما سبق ما يذكره ويفهم منه الاحتياط في العبارة كما في قوله: "قد أغنى ذكر أغلب الممدود"

ولم يقل ذكر الممدود تحاشيًا للتعميم.

وعلى الرغم مما سبق إلا أنه هناك ما يمكن أن يؤخذ على الرجل، ومن ذلك توهم أن الشرح الذي في (كتاب كشف المشكل في النحو) لهذه الأبيات للحيدرة، وليس الأمر كذلك، وإن كان عذره في ذلك أنها مدمجة في الكتاب المذكور، كما يمكن أن يكون من ذلك تجوزه في نقل من نقل كلامهم بالمعنى، وعذره في ذلك أن الرجل لم يقصد إلى تأليف شرح موسع بقدر ما قصد إلى شرح سهل يتناسب مع الهدف الذي رسمه لهذا الشرح، ولم يراجع مصادره، كما أن منها أنه عند قوله: " وجعلَ وزنَ (فعال) أعمَّ من أن يكونَ مكسورَ الفاءِ أو مضمومَها" بينما هو لم يمثل لهذا الوزن في حال كونه مضمومًا، ومنها كذلك ما نبه إليه الناسخ من أن الشارح قال في هذا الذي سبق: " وجعلَ وزنَ (فعال) أعمَّ من أن يكونَ مكسورَ العين أو مضمومَها"، وهو وهم ولا شك كما نبه عليه الناسخ.

ولعل من أهم ما يمكن أن يؤخذ عليه قوله في مطلع التكميل الذي استدركه على الناظم:

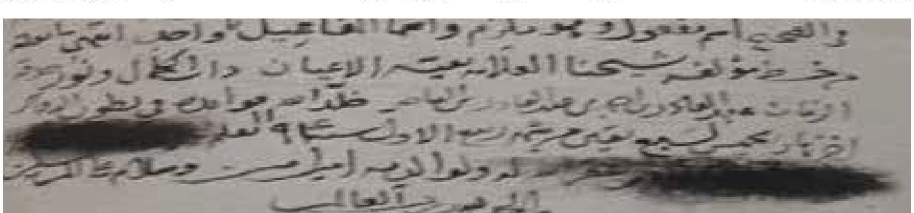
وكل مذكر يأتي لـ (فَعْلا)   و(فَعْلى) جمع وصف كالأسير

وتحديدًا ما جاء في الشطر الأول، وهو يعني بمذكر (فَعْلا) نحو (أحوى) مذكر (حواء) على وزن (فَعْلاء) لكنه قصره للضرورة فأصبح (فعلا) كما ذكره هو في شرحه للبيت، وعلى الرغم من أن قصر الممدود للضرورة شائع في العربية وبخاصة في الشعر إلا أنه ما كان ينبغي له اللجوء إلا الضرورة هاهنا؛ لأن من شأن اللجوء إليها الخلط بين أمرين هو معني بتحرير الفصل بينهما، (ووضع حدود ومعالم وضوابط يستطاع بها معرفتهما.

٥. وصف المخطوط وملحوظات على الناسخ

٥.١. وصف المخطوط:

يقع المخطوط ضمن مجموع يتكون من موضوعات متفرقة تتنوع بين قصائد ومنظومات وشروح ونقول عدد أوراقه مئة وثمانون ورقة محفوظ في المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء برقم (٣٠)[1] وترتيبها في المجموع رقم (٢٢) في الصفحات من (١٦٩/ب) حتى (١٧٣/ب)، ارتفاع الصفحة (٢٠) سم وعرضها (١٥)سم، في كل صفحة عشرون سطرًا تقريبًا، ومتوسط عدد الكلمات في السطر عشر كلمات، وقد كتب المخطوط في حياة المؤلف؛ إذ انتهى ناسخه من تبيضيه آخر نهار الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة ١١٩٣هـ، والمخطوط منقول من نسخة المصنف [شكل رقم (٥)] الآتي:



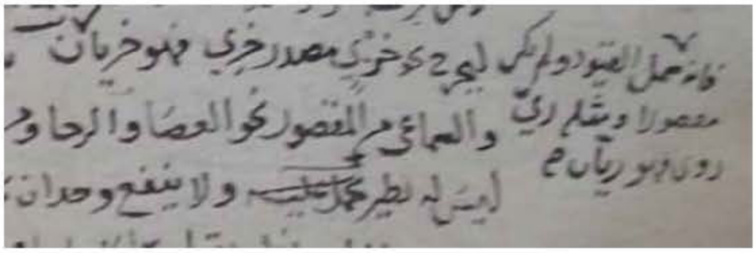
شكل رقم(٥)

(١) ينظر: فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء: ٧٣١.

كما أن المخطوط مقابَل على نسخة المؤلف كما ذكره الناسخ في حاشية المخطوط بقوله: " بلغ مقابلة من الأم بعون الله " [شكل رقم(٦)]، وقد أثبت الناسخ في حواشيه ما سقط منبه على جملة من القضايا، وكان يربط بين المتن والحواشي المختلفة برموز يضعها في المتن وفي الحاشي تقوم مقام الأرقام التي نربط بها اليوم بين الهوامش والنصوص منبها على انتهاء الحاشية بما هو مناسب [شكل رقم (٧)]:



شكل (٦)

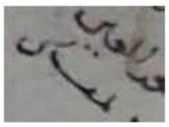
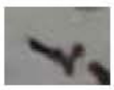
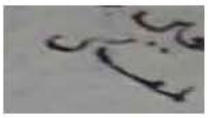


شكل(٧)

وهو مكتوب بخط نسخي واضح في مجمله، كتب النظم فيه باللون الأحمر بينما كتب الشرح باللون الأسود.

٥. ٢. الناسخ ما له وما عليه:

لا بد من الإشارة إلى أنه وبسبب الطمس المتعمد الذي قامت به يد آثمة [شكل (٥)]لم أتمكن من معرفة الناسخ على الرغم من أني بذلت جهودًا مضنية في محاولة التعرف عليه، والذي يستشف من تعديله لتاريخ عثور الشارح على كتاب كشف المشكل - وهو ما ستأتي الإشارة إليه في موضعه من النص المحقق - أن الرجل كان ذا صلة وثيقة بالعلامة الشارح، كما أن تصرفاته المتعددة في النص تشي بالأمر نفسه، وعلى الرغم من أن الناسخ كان يذيل عددًا من تعليقاته بكلمة حاولت ما استطعت التبين منها لعلها الاسم الأول له أو اسم الشهرة، لكن كل ذلك لم يفض إلى يقين، وها هي مصورة بين يدي الباحثين عله أن يفتح على أحد منهم ما يفيد العلم به [شكل(٧)]

				**شكل رقم (٧)**
				

وسواء أكان الناسخ أحد أقارب الشارح أم أحد كبار طلبته فإن الذي يعنينا أنه كان على درجة كبيرة من العلم والدقة والانتباه والأمانة، وهو ما ينبغي توفره في النساخ إذ أن كلاً من الجهل والعفوية والغفلة وضعف الأمانة كثيرًا ما تجلب الطوام للمخطوطات العلمية.

وتلك الصفات التي ذكرت لم ينعت بها الناسخ من فراغ، وإنما ذلك ظاهر من خلال نسخه لهذه المخطوطة، فمما يدل على العلم بما ينسخ وأنه ليس مجرد ناسخ ينقل من هنا إلى هنا اعتراضه على بعض ما جاء في النسخة الأم وتنبيهه على الخطأ الذي كان عند الشارح في قوله: " وجعلَ وزنَ (فعال) أعمَّ من أن يكونَ مكسورَ العين أو مضمومَها " وتصويب ذلك لتكون العبارة بعد التصويب " وجعلَ وزنَ (فعال) أعمَّ من أن يكونَ مكسورَ [الفاء] أو مضمومَها " وتنبيهه عليه في الهامش وهو ما سيأتي في موضعه ، إلى جانب اعتراضه على ترتيب الشارح لبعض الأمور، وإفادته أن مما ذكره الشارح لا يدخل في القاعدة العامة التي ذكرها الشارح عن ابن الحاجب، وهو ما يفيد اتصافه بالدقة والانتباه أيضًا.

ومما يفيد اتصافه بالأمانة أنه عندما حذف بعض النقول التي نقلها الشارح من كشف المشكل نبه على المحذوف وحدوده ابتداء وانتهاء، ولم يترك ذلك دون تنبيه على الرغم من أن ذلك تصرف مرفوض في النص، وهو ما سيأتي في موضعه، ولعل من أهم ما له هو أنه قام بنسخ هذه الرسالة لرجل بحجم عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر، وتلك الدقة في تسجيل التواريخ، وإثبات الحواشي والهوامش في جوانب النسخة، بأمانة، مع التمييز بين ما هو من النسخة الأم ولعله سقط سهوًا، وبين ما يضيفه هو، وذلك بعد مقابلة ما نسخه بنسخة المؤلف والنص على ذلك، مما يظهر أنه على درجة كبيرة من الوعي بأعراف وتقاليد النسخ.

وعلى الرغم مما سبق فثمة أمور لا يمكن غض الطرف عنها تندرج فيما يمكن أن تكون مآخذ عليه، يأتي على رأسها التصرف في النص دون ذكر سبب، ومن ذلك: التصرف في تاريخ حصول الشارح على كتاب كشف المشكل في النحو، وكذلك التصرف بحذف بعض الشرح بالضرب عليه بالاحمرار ثم إثباته له في الحاشية، والتصرف بحذف بعض المنقول والتنبيه على ذلك في الحاشية أيضًا، ومن ذلك ما يعترض على المصنف في وضعه بمكان فيضرب عليه ويقترح وضعه في مكان ما لكنه لا يضعه فثَبَّتُّه في مكانه الأصلي.

٦. أهمية المخطوط ومنهجي في تحقيقه

٦.١. القول في أهميته:

تأتي أهمية المخطوط ونشره من كونه مشاركة لنحويي اليمن في موضوع الممدود والمقصور على أهميته، سواء أكان ذلك بالنسبة للمنظوم أم لشرحه، ولو كانت مشاركة متأخرة نسبيًا بالنسبة للنظم وأكثر تأخرًا بالنسبة للشرح، ومتأخرة أيضًا بالنسبة للتحقيق، وكون هذه المشاركة اليمانية نظمًا وشرحًا ظلت غائبة عن كبار المحققين الذين أحصوا جهود السابقين في الموضوع، ولم ينته إلى علمهم شيء عنها تأتي يمانية التحقيق إضافة جديدة للمكتبة النحوية العربية في باب الممدود والمقصور، ثم إن كونها مختصرة ذات هدف تعليمي تضفي جانبًا آخر من الأهمية، علاوة على كونها لعلمين من

أعلام علماء أهل اليمن في القرنين السادس والثاني عشر الهجريين، أما الناظم فإمام في النحو كبير، وأما الشارح فأحد كبار المجتهدين الذين تركوا التقليد جانبًا، وهو في هذا كالوزير والصنعاني والمقبلي والشوكاني والجلال.

٦. ٢. القول في منهجي في تحقيق النص:

لكون المخطوط على هذا النحو من الأهمية، ولرجاء أن يكون نشره داخلاً في عموم (ومن أحياها) فقد بادرت إلى تحقيقه ونشره سالكًا في ذلك ما يسلكه أهل الفن، متشبهًا بهم، لا مدعيًا الانتماء إليهم، ومما اقتفيت أثرهم فيه:

- وضعت عنوانًا للمخطوط اعتمدت فيه على ما ورد في افتتاح العلامة الكوكباني لشرحه بقوله: " فهذه أبيات في المقصور والممدود تنسب لإمام العربية علي بن سليمان... الحيدرة...كتبت عليها شرحًا ".
- نسخت النص ونقلته وفق ما هو متعارف عليه، وحرصت أشد الحرص على أن يكون كما كتبه صاحبه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ووضعت أرقام صفحات المخطوط بين معقوفين بداخله رقم الصفحة فخط مائل / فرمز (أ) لما كان في اليمين من المصورة ورمز (ب) لما كان في اليسار منها، وخرجت مسائله العلمية من مظانها من أمهات كتب العربية ككتاب سيبويه والمقتضب وأصول ابن السراج وبعض من كتب المقصور والممدود وغيرها، وأضفت ما يلزم من عناوين يكتمل بها هيكل الشرح بين معقوفين [...].
- راعيت متمات التحقيق من الترجمة لمن غلب على الظن أهمية الترجمة له بالنسبة للقارئ، ومن تخريج الآثار، وضبطت النص المحقق بالشكل، وأبنت الكلمات الغريبة من مصادر لغوية تنوعت بسبب محاولة اختيار أوضح المعاني ومختصرها.
- ميزت كلمات وجمل المنظومة بتحبيرها، وأثبت مصورات مجتزأة عن المخطوط لما غلب على ظني أنها أخطاء، وأثبتها مصورة حتى يسهم المتلقي في تصويب ما ذهبت إليه في حال خطئه أو تأييده في حال أنه صواب، كما أن ذلك يحقق مزيدًا من التوثيق، وفيه الإفادة من التقنية الحديثة في خدمة النص مما لم يكن متوفرًا لمن سلف من المحققين.

وفي الختام أعود للتأكيد على أهمية إعادة النظر في مجاميع المخطوطات التي اشتملتها المكتبة الغربية في الجامع الكبير بصنعاء، كما أوصي بدراسة مستقلة لشخصية العلامة الشارح فالرجل لا يقل شأوًا عن أمثال محمد بن إبراهيم الوزير ومحمد بن إسماعيل الأمير ومحمد بن علي الشوكاني وصالح ابن مهدي المقبلي والحسن الجلال وغيرهم من التيار الذي اعتنق السنة من علماء الزيدية والهادوية في اليمن.

ثانيًا النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

[١٦٩/ب] الحمدُ للهِ وحده

وللممدودِ والمقصورِ علمٌ   سأجمعُه بمختصَرٍ قصيرِ(١)

فخُذْه واتخذْه الدهرَ كنزًا   وقِسْ منه النظيرَ على النظيرِ

الممدود

فمدُّوا جمعَ (فَعْلَةٍ) غيرَ حرفٍ   وأُنثى (أَفْعَلٍ) مدَّ الجريرِ(٢)

ومنه (أفْعِلاءُ) وكلُّ جمعٍ   على(فُعَلاءُ)بالصوتِ الشهيرِ(٣)

وواحدُ جمعِ (أَفْعِلَةٍ)(فَعَالٌ)(٤)   وجمعُ (الفَعْل) معتلُ الأخيرِ

ومصدرُ كلِّ فعلٍ ليس يُدْعَى   ثُلاثيا على مرِّ الدهورِ(٥)

المقصور

وللمقصورِ أوزانٌ فمنها   (فَعَالى) أو (فُعَالى) غير زورِ(٦)

و(فُعْلى) ثم(فِعْلى)ثم (فَعْلى)   إذا منعوه (أَفْعَلَ) في الذكورِ

وكلُّ اسمٍ يُزادُ عليه ميمٌ   و(فِعْلٍ) صارَ ذا عددٍ كثيرِ

ومنه جمعُ (فِعْلَةَ) فالتزِمْه   و(فُعْلَةَ) تحظَ بالأجرِ الكبيرِ(٧)

---

(١) في الحاشية: (وفي الممدود)، وكذلك جاء في كشف المشكل للحيدرة اليمني تحقيق: هادي عطية مطر الهلالي: ٥٤٩، وظاهر أنه كذلك أيضًا في واحدة من أقدم نسخ كشف المشكل المخطوطة: ل: ١٥٦/أ ومصورته منها: 

(٢) جاء في المطبوع من كشف المشكل :٥٤٩ - ٥٥٠ (الحرير)، وهو وهم من المحقق، أو خطأ طباعي من الناشر، وظاهر أنه بالجيم في المخطوط: ل:١٥٦/ب، ومصورة الكلمة منها: .

(٣) جاء الشطر الثاني من هذا البيت في المخطوط على النحو الآتي  بضبط (فُعَلاء) في المخطوط على النحو الآتي:  وذلك خطأ ظاهر، كما أن (بالصوت) وردت في كشف المشكل: (ط): ٥٥٠، و (خ): ل:١٥٦/ب " فالصوت ".

(٤) تركت (الفاء) من (فعال) غفلاً من الحركة عن قصد ذلك أن الناظم والشارح أرادها كذلك حتى تشمل: مضموم الفاء ومفتوحها ومكسورها نحو (ثُغاء) و(رِداء) و(قَباء).

(٥) جاء في الحاشية: " ويلحق به ما جاء للمبالغة من اسم الفاعل ".

(٦) ، كذا وردت في الأصل وهو خطأ ظاهر.

(٧) في كشف المشكل: ٥٥١ بتقديم: (فُعْلة) على (فِعْلة) كما أن الشطر الثاني جاء فيه " بالأصل الكبير " بدلاً من (بالأجر الكبير) وكذلك في المخطوط: ل ١٥٧/أ، ومصورتها: 

تكميل[١]

وكلُّ مذكرٍ يأتي لـ (فُعْلا)	و(فُعْلى) جمعُ وصفٍ كالأسيرِ
و (فِعْيلا) سماعا ثمَّ ما جا	على التأنيثِ من جنسِ المسيرِ
كذا مقصورُ مصدرِ كلُّ فعلٍ	على(فَعِلَ) الشهيرِ مَدى الشهورِ
إذا جا وصفُه (فَعْلانَ) أو جا	على(فَعِلٍ)و(أَفْعَلَ)فاقْفُ سَيرِي

[١٧٠/أ] بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ، وصلّى اللهُ على حبيبِه ومجتباه، وعلى آله سفن النجاة، ورضي اللهُ عن أصحابِه الهداةِ أمّا بعدُ: فهذِهِ أبياتٌ في المقصورِ والممدودِ تنسبُ لإمامِ العربيةِ أبي الحسنِ عليِّ بنِ سليمان بن سعدِ بن إبراهيم بن عليِّ بن تميم الحيدرةِ [توفي بعد: ٦٠٢هـ] [٢] سلكَ فيها سبيلاً سهلةً[٣] الورودِ، إلا أنّها لعدمِ الأمثلةِ صَعُبَتْ على أولادِنا ـ بلَّغَهُم اللهُ غاياتِ كمالِ الوجودِ ـ فكتبتُ عليها شرحًا من عندِ الشّروقِ إلى الضّحى، فمن رأى فيه خللاً كان له مصلحًا، ثُمَّ في ذي الحجةِ سنة ١١٨٩ [هـ] [٤] عثرتُ على كتابِه (كشف المشكل في النحو)[٥]، وإذا هيَ فيه مشروحةٌ شرحًا مختصرًا بالنّسبةِ إلى هذا الشّرحِ، لكنْ فهمتُ في مواضعَ يسيرةٍ من النّظمِ خلافَ ما يريدُ، ولعلّ ما أَفْهَمُهُ نظمُه أحسنُ مما أراده[٦]، فنبّهتُ على ذلك:

وفي الممدودِ والمقصورِ علمٌ	سأجمعُه بِمُخْتَصَرٍ قصيرٍ وقِسْ
فَخُذْه واتخذْه الدَهرَ كَنْزا	منه النَظيرِ على النَظيرِ

(١) في الأصل: " للشارح -- كثر الله فوائده -- " وكان هنا محلها، لأنها ليست من كلام الشارح وإنما هي إضافة من الناسخ.

(٢) سبقت الإشارة إلى ترجمته ومصادرها .

(٣) كلمة (سهلة) جاءت في الحاشية، ومصورتها منها:  وتظهرُ فيها الإشارةُ التي توضح في الحاشية ومثيلتها في المتن .

(٤) جاء في هامش المخطوط: " في الأم: يوم الأحد لثنتي عشرة ليلة خلت من شوال من ١١٨٧ [هـ] " أ.هـ، ولم يفسر لنا الناسخ سبب التباين بين التاريخين، ولعل الناسخ كان مطلعًا على تاريخ حصول الشارح على كتاب (كشف المشكل في النحو) .

(٥) حقق في القاهرة لنيل رسالة الماجستير من قبل: هادي عطية مطر الهلالي في آداب عين شمس عام: ١٩٧٤م، ثم حقق لنيل الماجستير أيضًا من قبل كامل محمد يعقوب أبو اسنينة في آداب القاهرة عام: ١٩٧٥م، وطبعت النشرة الأولى مرارًا آخرها في دار عمار في الأردن عام: ٢٠٠٤م، ثم نشر في لبنان بتحقيق آخر، ومؤخرًا في المملكة المغربية .

(٦) لعل هذا واحدا من المؤشرات على أن شرح هذه الأبيات الذي في (كشف المشكل) ليس للحيدرة، وقد يكون لشخص آخر لعله بعض طلبته، ثم إنه قد أدرج بعد ذلك في مختلف النسخ، ومن تلك المؤشرات السياقات التي ورد فيها ذلك الشرح، وأمور أخرى .

مقدمة:

اعلمْ أنّ الشّيخَ ابنَ الحاجبِ [ت: ٦٤٦هـ] رحمه اللهُ - وغيرُه قالَ[١]: " القياسيُّ من الممدودِ أن يكونَ ما قبلَ آخِرِ نظيرِه من الصحيحِ أَلِفًا، كـ- (الثُّغاءِ) لصوتِ (الشّاةِ) و (العُواءِ) لصوتِ الذئبِ والكلبِ عندَ تأذّيهِ ببردٍ أو غيرِه؛ لأن نظائرَهما (الصُّراخُ) و(النُّباحُ)، والقياسيُّ من المقصورِ أن يكونَ ما قبلَ آخرِ نظيرِه من الصحيح فتحةٌ كـ-(مُعْطًى) اسمَ مفعول، فإنّ نظيرَه من الصحيحِ في أسماءِ المفاعيلِ (مُكْرَمٌ)"[٢]، فلاحِظْ هذه القاعدةَ فيما يأتي، وإن كان هذا النّظمُ غنيًّا عنها، بل فيهِ أوزانٌ قياسيّةٌ لا تدخلُ تحتَها [٣]، لكنّ تحصيلَ الملَكَةِ من جهتينِ أتمُّ من تحصيلِها من جهةٍ واحدةٍ[٤].

[أوزان الممدود]

قالَ: " فمَدُّوا جَمْعَ (فَعْلَة) "بفتحِ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ)[١٧٠/ب]نحوَ (رِكاءٍ) جمعَ (رَكْوَةٍ)[٥] و(شَكْوَةٍ) و (شِكاءٍ) [٦]؛ لأن نظائرَها[٧] من الصحيحِ (قِصاعٌ) جمعُ (قَصْعةٍ) [٨] أمّا جمعُ (فُعْلَةٍ) و(فِعْلَةٍ) بضمِّ (الفاءِ) و كسرِها معَ سكونِ (العينِ) فيهما فسيأتي أنّهما من المقصورِ [٩]، "غيرَ حرفٍ"

---

(١) كذا وردت في المخطوط، ومصورتها منه:

(٢) النص عند ابن الحاجب: " القياسي من المقصور أن يكون ما قبل آخر نظيره من الصحيح فتحة، ومن الممدود أن يكون ما قبله (ألفا)، فالمفعل من أسماء المفاعيل من غير الثلاثي المجرد مقصور كـ (مُعطى) و (مشترى)؛ لأن نظائرها (مكرم) و (مشترك) ... ونحو (الإعطاء) و (الرّماء) و (الاشتراء) و (الاحبنطاء) ممدود؛ لأن نظائرها: (الإكرام) و (الطّلاب) و (الافتتاح) و (الاحرنجام)، وأسماء الأصوات المضموم أولها كـ (العُواء) و (الثُّغاء)، لأن نظائرها: (النُّباح) و (الصُّراخ) " أ. هـ، وذلك كما في الشافية في علم التصريف:٥١، ولعل ذلك التصرف الحادث في النص راجع إلى أن الرجل اعتمد على ذاكرته وحفظه ولم يراجع مصادره، إلى جانب أنه يمكن أن يكون قد حصل تداخل بين كلام ابن الحاجب وكلام شراح الشافية، ولذلك وجدنا العلامة الشارح يقول : " قال ابن الحاجب وغيره .."، وينظر شرح شافية ابن الحاجب للرضي الاستراباذي: ٤١٥/٢ - ٤١٦، دار الكتب العلمية، والشارح وإن نسب ذلك إلى ابن الحاجب إلا أن أصله لسيبويه ومن جاء بعده من النحويين: ينظر :كتاب سيبويه: ٥٣٦/٣، ٥٣٩، والمقتضب للمبرد: ٧٩/٣، والأصول في النحو لابن السراج: ٤١٥/٢، والتكملة لأبي علي الفارسي مع شرحه للجرجاني: ٥١٧/١، ٥١٩، وينظر في تعريفهما: المقصور والممدود لابن ولاد: ٣، ٤.

(٣) نبه عليها في بعض المواضع، ونبه الناسخ على البعض الآخر، وذلك مثبت في مواضعه.

(٤) لعله يعني أن إتقان معرفة الممدود والمقصور يكون من جهتين:

الأولى: من جهة معرفة الأوزان، وهو ما فعله الحيدرة صاحب الأبيات وأتمه العلامة الشارح بالتشريح والتكميل.

الثانية: كما يكون من جهة التعريف والضبط بالحد، وهو ما فعله ابن الحاجب ونقله عنه الشارح -- رحمة الله على الجميع-.

(٥) إناء من جلد يشرب فيه الماء، والدلو الصغير، وتجمع أيضًا على (رَكَوات) تاج العروس: ١٧٨/٣٨ .

(٦) جِلْد السّخلة - وهي الرضيع من الضأن - يصنع منه إناء للماء واللبن، ينظر: المخصص: ١٠١/٤ .

(٧) كذا في الأصل، ومصورته منه: ولعل الصواب: (نظيرها) مكان (نظائرها) .

(٨) ينظر: الكتاب: ٥٧٨/٣، ٥٧٩، والمنقوص والممدود للفراء: ١٢، والمقتضب :٨٥/٣، وأصول النحو لابن السراج: ٤٣٩/٢، والمقصور والممدود لابن ولاد: ٥٠، ١٣٥، وكشف المشكل: ٥٤٥، ٥٤٩.

(٩) عند شرحه لقول الحيدرة: (ومنه جمع فِعْلة فالتزمه وفُعْلة نحص بالأجر الكبير).

يعني غير كلمةٍ واحدةٍ، وهيَ (قَريةٌ) فإنّه شذَّ جمعُها على (قُرى) مقصورًا.[1]

تنبيه:

اعلمْ أنّ المقصورَ والممدودَ إنما يكونانِ فيما آخرُه حرفُ علةٍ، ولظهورِ هذا القيدِ لمْ يحتجِ النّاظمُ إلى ذكرِه معَ كلِّ وزنٍ من أوزانِهما.

"وأُنْثَى أَفْعَلٍ" الذي لِلألوانِ[2] والخِلَقِ[3] كـ (حَمْراء) مؤنثِ (أحمرَ) و (حوّاء) مؤنّثِ (أحْوى)[4]، وأمّا أُنثى (أَفْعَل) الذي للتّفضيلِ فسيأتي في المقصورِ[5]، وشبّه مَدّ الصوتِ بالألفِ الممدودةِ، بـ **"مدُّ الجريرِ"** وهو حبلٌ يُجْعَلُ للدّابةِ بمنزلةِ الزّمامِ[6]، وبه سُمّيَ جريرٌ الشاعرُ[7].

" ومنْه " أيّ من الممدودِ كلُّ جمعٍ لـ(فعيلٍ) بمعنى (فاعلٍ) على وزنِ **"أَفْعِلاء"**[8] بفتحِ (الهمزةِ) وسكونِ (الفاءِ) وكسرِ (العينِ) كـ(أنبياء) و(أولياء) و (أصفياء) و (أصدقاء)[9]، **"وكلُّ جمعٍ"** قياسيٍّ لـ(فعيلٍ) بمعنى (فاعلٍ) أيضًا **"على"** وزنِ **"فُعَلاء"** بضمِّ (الفاءِ) وفتحِ (العينِ) كـ (كُرَماء) و (فُقَهاء)

---

(١) في الصحاح: " والقَرْيةُ معروفة، والجمع (القُرى) على غير قياس؛ لأن ما كان على (فَعلة) بفتح (الفاء) من المعتل فجمعه ممدود، مثل (رَكْوة) و(رِكاء) ، و(ظَبية) و(ظِباء)، وجاء (القرى) مخالفا لبابه لا يقاس عليه، ويقال: (قِرية) لغة يمانية، ولعلها جُمعت على ذلك مثل: (ذِروة) و(ذرى)، و(لِحية) و(لحى) " ٦/٢٤٦٠، ومنه عند ابن السراج: (نَزْوة) (نُزى): ينظر كتاب الأصول في النحو: ٢/٤٣٩، كما ينظر: المنقوص والممدود: ١٢، والمقصور والممدود لابن ولاد: ٨٩، ١٣٥.

(٢) جاء في الحاشية: " وهذا مما لم يشمله تعريف ابن الحاجب، وهو من الممدود؛ لأن كل مؤنث لـ(أفعل) الذي للألوان والخلق ممدود كما ذكره الشارح كثر الله من فوائده ".

(٣) جاءت في الأصل على النحو الآتي: الالوان والخلق ، ولا شك أن ذلك خطأ صوابه ما أثبت وهو (الخِلَق) جمع (خِلْقة) بمعنى العيب الموجود من أصل الخلقة ليس بعارض، ينظر المصباح المنير: ١/٢٤٦، والمعجم الوسيط: ٢٥٢.

(٤) ينظر في مد أنثى (أفْعل) التي للألوان والعيوب: المنقوص والممدود: ١٥، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٥، والمخصص: ١٥/١١٠، كما ينظر: كتاب سيبويه: ٤/٢٧، والأصول في النحو: ٢/٨٢.

(٥) عند شرحه لقول الحيدرة:

و(فُعْلى) ثم(فِعْلى)ثم (فَعْلى)　　　إذا مَنَعوه (أَفْعَلَ) في الذّكورِ

(٦) ينظر: المخصص: ٧/١٥٠.

(٧) جاء عند ابن خلكان والصفدي :" وحكى أبو عبيدة أيضًا قال: رأت أم جرير في نومها وهي حامل به كأنها ولدت حبلاً من شعر أسود، فلما وقع منها جعل ينزو فيقع في عنق هذا فيخنقه، حتى فعل ذلك برجال كثيرة، فانتبهت مرعوبة، فأولت الرؤيا، فقيل لها: تلدين غلاما شاعراً ذا شر وشدة شكيمة وبلاء على الناس، فما ولدته سمته جريراً باسم الحبل الذي رأت أنه خرج منها، والجرير الحبل " ينظر: وفيات الأعيان: ١/٣٢٣، والوافي بالوفيات: ١١/٦٢، ٦٣، ولم أجد تلك الحكاية في شرح النقائض لأبي عبيدة معمر بن المثنى [ت ٢٠٩ هـ]، ولعلهما نقلاها عن مصدر آخر، أو لعلها سقطت من النسخ التي نشر عنها كتاب شرح النقائض .

(٨) جاء في الحاشية: " وهذا أيضًا مما لم يشمله تعريف ابن الحاجب رحمه الله .

(٩) ينظر: المنقوص والمقصور: ١٣، والمقصور والممدود لابن ولاد :١٣٥، و المخصص: ١٥/١١٠، كما ينظر في (فعيل) وجمعه على (أفعلاء) : كتاب سيبويه: ٣/٦٣٤، والمقتضب: ٢/٢٠٩، والأصول في النحو: ٣/١٧ .

و(عُلماء) جمع (كريم) و (فقيهٍ) و (عليم) [١]، أو غيرَ قياسيٍّ فإنّه ممدودٌ أيضًا كجمعِ (فعيلٍ) بمعنى (مفعولٍ) فإنّه يُجمع شاذًا على (فُعلاء) بضمِّ (الفاءِ) وفتحِ (العينِ) كـ(أُسراء) و (قُتلاء)[٢]؛ إذْ قياسُه (قَتلى) و (أَسْرى) بفتحٍ فسكونٍ [٣]، فهذه الأربعة الأوزان مَدّوها. [٤]

"**بالصَّوتِ الشَّهيرِ**" من الممدودِ، وهو نحو: (الدُّعاءِ) و (النِّداءِ) و (الرُّغاءِ)، وفي شرحِ الناظمِ: " فالصوتُ " بـ (الفاءِ) العاطفةِ [٥]، وقالَ ما لفظُه: " أراد بالصوتِ[٦] الشهيرِ: الدُّعاءُ والنِّداءُ والرُّغاءُ والثُّغاءُ " [٧] انتهى، وسيأتي ذكرُ ذلِكَ في موضعٍ أليقَ به. [٨]

"و" من الممدودِ " **واحدُ جمعِ (أَفْعِلَةٍ)** " بفتحِ (الهمزةِ) وسكونِ (الفاءِ) وكسرِ (العينِ) وفتحِ (اللامِ) كـ(قَباءٍ) واحدِ جمعِ (أَقْبِيَةٍ) [٩] و (كِساءٍ) واحدِ جمعِ (أَكْسِيَةٍ) ؛ لأن نظيرَ الأولِ: (زَمانٌ)، ونظيرَ الثّاني: (حِمارٌ) يُجمعانِ على (أَزْمِنَةٍ) و (أَحْمِرَةٍ) [١٠]، وشذَّ من ذلِكَ (نَدى) مفردُ (أنديةٍ) فإنّه مقصورٌ إذا أُطْلِقَ على نحوِ (الثّرى) و (المطرِ) وقياسُه المدُّ [١١].

ومن الممدودِ ما جاءَ للمبالغةِ من اسمِ الفاعلِ ونحوِهِ على وزنِ (فَعّال) بفتحِ (الفاءِ) وتشديدِ العينِ إذا كانَ معتلَّ اللامِ نحو (مشّاء)؛ لأن نظيرَه [١٧١/أ] (ضرّاب) [١٢] فلو قالَ:

---

(١) ينظر: المنقوص والمقصور: ١٣، والمقصور والممدود لابن ولاد :١٣٥، والمخصص: ١١٠/١٥، وينظر في جمع (فعيل) بمعنى (فاعل) على (فعلاء): كتاب سيبويه: ٦٣٤/٣ .

(٢) ينظر: كتاب سيبويه: ٦٤٧/٣، ٦٤٨، والأصول في النحو: ١٩/٣ .

(٣) ينظر: كتاب سيبويه :٦٤٧/٣، والمقتضب: ٢١٩/٢ .

(٤) يعني بها: ١/جمع (فَعْلة) على (فِعال) ٢/أنثى (أفْعَل) التي للألوان والعيوب، ٣/جمع (فعيل) بمعنى (فاعل) على (أفعلاء)، ٤/جمع (فعيل) بمعنى (فاعل) على (أفعلاء) .

(٥) سبقت الإشارة إلى ذلك في تحقيق نص الأبيات .

(٦) وهْم ولا شك فالذي في كشف المشكل: (فالصوت) وهو أما أثبته الشارح في السطر نفسه، والراجح أنه وهم من الناسخ، ينظر: كشف المشكل: ٥٥٠.

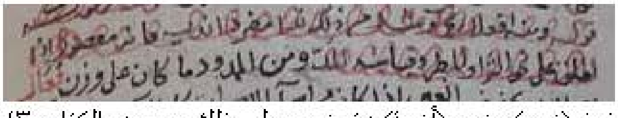
(٧) ينظر: السابق: ص ن، والواقع أن ذلك ليس شرحًا للناظم، وقد سبق تبيين ذلك في الدراسة .

(٨) عند ذكر ما كان من الممدود على وزن (فُعال) غير بعيد .

(٩) من الملبوسات، ينظر: الصحاح: ٢٤٥٨/٦.

(١٠) ينظر: الكتاب: ٥٤٠/٣، ٥٤١، والمقتضب: ٨٥/٣، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٤ .

(١١) كان الناسخ قد جعل هذه الجملة (من أول قوله: وَشَذّ) في نهاية الفقرة التي تتلو هذه الفقرة، ثم ضرب عليها باللون الأحمر، وأثبتها في هامش هذا الموضع، ولعله سها عن نقلها في موضعها، ومن ثَمّ أثبتها في الهامش، أو لعل ذلك حصل بسبب خلط في الأم، وسياق ما أثبتها فيه يعزز أنه موقعها الصحيح، إضافة إلى الضرب عليها في الموضع الخطأ وإثباتها في الموضع الصحيح، ومصورتها من الأصل:



وفيما يتعلق بموضوع شذوذ (ندى) مفرد (أندية) فقد نص على ذلك سيبويه :الكتاب:٥٤١/٣، وينظر:المقتضب: ٨١/٣ -- ٨٢، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٤ .

(١٢) ينظر المقتضب: ٨٤/٣، والمنقوص والمقصور: ١٤، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٦ .

و(فَعَالٌ) و (أَفْعِلَةٌ) (فُعالٌ)   وجَمْعُ الفَعْلِ مُعْتَلُّ الأخيرِ

لكانَ أجمعَ و أحسنَ، ولا يضرُّ فواتُ التّنبيهِ على أنّ (أفعلةً) جمعٌ، كما لا يضرُّ فواتُه في قولِه: **"ومنه (أفعِلاءُ)"** إلخ. [1]

ومن الممدودِ ما كانَ على وزنِ (فُعال) بضمِ (الفاءِ) وتخفيفِ (العينِ) إذا كانَ من أسماءِ الأصواتِ كـ(الثُّغاءِ) لصوتِ (الشّاةِ) و (الظّباءِ) وغيرِها عندَ الولادةِ، و (العُواءِ)؛ لأن نظائرَهما من الصحيحِ (النُّباحِ) و (الصُّراخ) [2]، والنّاظمُ جعلَ (فعال) بدلا من واحدِ جمعِ (أَفْعِلَةٍ)؛ لأنه قد تقدّمَ له ذكرَ أسماءِ الأصواتِ، فقالَ ما لَفْظُهُ: " عنى بـ-(واحدِ جمعِ أفعلةٍ) الذي وزنُه (فعال): (كِساء) و (رِداء) و (قَباء) و(عِشاء) و(غِذاء)"[3] انتهى، وجعلَ وزنَ (فعال) أعمَّ من أن يكونَ مكسورَ [الفاءِ] أو مضمومَها [4].

"و" من الممدودِ " **جمعُ الفَعْلِ** " بفتحِ (الفاءِ) و سكونِ (العينِ) حالَ كونِهِ **"معتلَّ"** الحرفِ **"الأخيرِ"** كـ(دِلاء) جمع (دَلْو) و(ظِباء) جمعِ (ظَبْي)؛ لأن نظائرَهما (زناد) و (ثِياب) جمعَ (زَنْدٍ) و(ثَوْب)[5]، وكذلكَ: (أسماءٌ) جمعُ (اسم) و (آباءٌ) جمعُ (أبٍ) و(أبناءٌ) جمعَ (ابنٍ) ؛ لأن نظائرَها (أثْوابٌ) و(أنْيابٌ) جمعَ (ثَوبٍ) و (نابٍ)، وجميعُ هذه المفرداتِ وزنُها (فَعْلٌ) بفتحِ (الفاءِ) قبلَ إعلالِ الثّلاثةِ الأُخْرى[6]، وفي شرحِ النّاظمِ ما لفظُه: " أرادَ بجمعِ الفَعْلِ جمعَ الاسمِ بوزنِ (فَعْل) مفتوحَ الأوّلِ ساكنَ الثّاني، ومكسورَ الأوّلِ ساكنَ الثّاني مما يكونُ آخرُه واوًا أو ياءً قد تحركَت لسكونِ ما قبلِها فصحّت بالحركةِ،

شرح أبيات الحيدرة اليمني في الممدود والمقصور

---

(١) هذه الفقرة - من أول قوله: (ومن الممدود ما جاء للمبالغة ..) أثبتها الناسخ في المتن لكنها عاد وضرب عليها باللون الأحمر، وما سبق في الهامش السابق هو الجزء الأخير منها، ثم إنه نقلها في الحاشية وعلق بقوله: " هكذا ذكر الشارح في الأم، وكان الأولى تأخير هذا الكلام إلى بعد تكميل بحث الممدود، لأنه اعتراض على الناظم في إهماله " انتهى كلام الناسخ وقد آثرت إثبات الكلام في محله كون ذلك هو ما فعله الشارح عليه رحمة الله، وأثبته الناسخ، وكان الأولى به أن يكتفي بالتعليق فقط، ثم إنه لم يثبتها في الموضع الذي رأى أن الشارح كان عليه أن يضعها فيه .

(٢) ينظر: كتاب سيبويه :٥٤٠/٣، والمقتضب: ٨٦/٣، والمنقوص والممدود: ١٢، والأصول في النحو: ٤١٦/٢، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٣ .

(٣) ينظر: كشف المشكل (ط): ٥٥٠، وقد اضطرب محققه فأثبت (غداء) لكنه جعل جمعه (أغدية)، ونسبة الشارح هذا إلى الناظم انطلاقا من أن الحيدرة هو صاحب شرح الأبيات، وسبقت الإشارة إلى أن ذلك بحاجة إلى إعادة نظر .

(٤) في الأصل :" أعم من أن يكون مكسور العين أو مضمومها " ومصورته منه: 
وقد علق الناسخ عند قوله: (أعم) بقوله: " ينظر في قوله: أعم من أن يكون مكسور العين أو مضمومها، فذلك لا يتصور ؛ لكون الألف بعد العين، والظاهر أنه يريد (الفاء)" أ.ه، ولا شك أن المراد هو (الفاء) ولذلك أثْبَتُّه في المتن، وحينها سيكون المراد (فَعال) و(فُعال) و(فِعال)، وأمثلتها على الترتيب: (قَباء) و(دُعاء) و(رِداء) .

(٥) ينظر المقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٤، كما ينظر في جمع (دلو) على (دلاء) و(ظبي) على (ظباء): كتاب سيبويه: ٥٦٧/٣ .

(٦) ينظر :المنقوص والممدود: ١٢، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٤، كما ينظر في هذه الثلاثة وأوزانها وأحكامها: المقتضب: ٣٦٢/١.

وكان أصلُها الاعتلالُ، ولذلِكَ قالَ: معتلّ الأخيرِ توسعًا"[1].

"و" من الممدودِ " **مصدرُ كلّ فِعْلٍ ليسَ يُدْعى ثُلاثيًا** " مُجَرّدًا فإنّه من الممدودِ[2] " على مرِّ الدهورِ" نحوُ: (الإعطاءِ) و (الرِّماءِ) [3] بكسرِ (الراءِ) وتخفيفِ (الميمِ) مصدرِ الرّباعيِّ، وهو (أعطى) و(رامى) كـ (الاشتراء) مصدرِ الخماسيِّ، وكـ(الاحبنطاءِ) [4] مصدرِ التداسيِّ؛ لأن نظائرَها [١٧١/ب] (الإكرامُ) و (الطِّلابُ) و (الافتتاحُ) و (الاحرنجامُ) [5].

[أوزان المقصور]

قالَ: "**وللمقصورِ أوزانٌ**" قد أغنى ذكرُ أغلبِ الممدودِ عن ذكرِها ؛ لكنّه ذكرَ بعضَها لتحصلَ بها زيادةُ مَلَكَةٍ [6]، وأشارَ بـ (مِن) التبعيضيةِ إلى أنّه لم يستوفِها فقالَ: "**فمنها**" كلُّ جمعٍ على "**فَعالى**" بفتح (الفاء) وتخفيف (العين) نحو (عَذارى) جمع (عذْراء) [7]، "**أو**" [**كلُّ مفردٍ وجمعٍ على**][8] "**فُعالى**" بضمِّ (الفاءِ) وتخفيفِ (العينِ) نحو (حُبارى) [9] و (جُمادى) و (سُكارى) جمع (سكران)[10] حالَ كونِ هذا الحكمِ "**غيرِ زورِ**".

---

(١) كشف المشكل (ط): ٥٥٠، (خ): ل ١٥٦/ب، وقد جاء في الحاشية قول الناسخ: " في الأم يُتِمُّ نقل كلامه من الشرح " ويعني أن الشارح نقل بقية ما جاء في كشف المشكل من شرح لكن الناسخ لم يثبته في الحاشية، ونتممه إتماما للفائدة: " فهذا الباب كله يمد جمعه نحو: (ظبي) و (ظباء) و (شيء) و (أشياء) و(حي) و(أحياء) و(اسم) و(أسماء) و(ابن) و(أبناء) و(أب) و(آباء)، ولهم في مد هذا النوع كلام طويل واعتلال ليس هذا موضع ذكره"، ولعل ما جعل الناسخ يسقطه هو الاختصار وكونه موجودًا لديه في كشف المشكل .

(٢) ينظر: كتاب سيبويه: ٥٣٩/٣، ٥٤٠،والمنقوص والممدود: ١٢ ، والمقتضب: ٨٥/٣، والأصول في النحو: ٤١٦/٢ ، و المقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٢ ، والمخصص: ١٠٨/١٥ .

(٣) هو المراماة بالنبل، ومنه: (قبل الرِّماء تملأ الكنائن) ينظر: لسان العرب: ٣٣٥/١٤ .

(٤) جاء عند نشوان: " الاحبنطاء: احبنطى: أي لصق بالأرض، واحبنطأ، مهموز أيضًا ": شمس العلوم: ١٣٢٧/٣ .

(٥) الاحرنجام: الاجتماع " السابق: ١٤٢٢/٣ .

(٦) يعني أنه طالما وقد ذكر الناظم أوزان الممدود فإن ما عداها من الأوزان ستكون للمقصور؛ لكنه ذكر بعضها زيادة في ترسيخها لدى المتعلم.

(٧) ينظر: المنقوص والمقصور: ١٥ ، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٩ ، والمخصص: ١٠٩/١٥ ، وينظر في جمع (فعْلاء) على (فَعالى): الكتاب: ٦٠٩/٣ ، وفيه أيضًا " وليس في الكلام شيء على (فعالى) إلا للجمع ": ٢٥٥/٤ .

(٨) سقطت في المتن وأثبتها الناسخ في الحاشية، ومصورة موضع سقوطها:  وتظهر الإشارة التي يشير بها الناسخ إلى وجود مستدرك أو سقط أو تعليق في الحاشية، ونجد هنا مصورة السقط من الحاشية:  .

(٩) ينظر: المنقوص والمقصور: ١٥ ، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٩ ، والمخصص ٢٠١/١٥: " والحبارى طائر وجمعها حباريات " وفي المعجم الوسيط: ١٥١): " (الحبارى) طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة في منقاره طول، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء .

(١٠) ينظر: المنقوص والمقصور: ١٥ ، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٩ ، كما ينظر في ما كان على (فُعالى) مفردًا وجمعًا: كتاب سيبويه: ٢٥٤/٤ ، والمقتضب: ٨٧/٣ ، والأصول في النحو: ١٩٤/٣ ، والمخصص: ٩٥/١٥ .

"و" من أوزانِ المقصورِ "**فُعْلى**" بضمِّ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ)، سواءٌ كانَ مُذَكَّرُه (أفْعل) نحوَ (الفُضْلى) و (الأَفْضلِ) أم لا نحوَ: (حُبْلى) [(١)]، "**ثمَّ**" من أوزانِ المقصورِ "**فِعْلَى**" بكسرِ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ) [(٢)] سواءٌ كانَ مصدرًا أو اسمًا مفردًا أو اسمَ جمعٍ، فالأوّلُ كـ (الشِّعْرى) مصدر (شَعَرَ بكذا)، والثاني كـ (الشِّعْرى العبور) و (الشِّعْرى الغُمَيْصاء) لنجمينِ معروفين[(٣)]، والثالثُ كـ(حِجْلى) اسمُ جمعٍ للذَّكَرِ من (القَبَجِ) و(ظِرْبى) بـ(الظاءِ) المشالةِ - اسمُ جمعٍ لِدُوَيْبَةٍ كـ (الهرةِ) منتنةٍ - ولا ثالثَ لهما في أسماءِ الجموعِ. [(٤)]

"**ثُمَّ**" من أوزانِ المقصورِ "**فَعْلى**" بفتحِ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ) إذ [(٥)] كانَ مؤنثَ (فعلان) نحو (غَضْبى) مؤنثُ (غضبان) [(٦)]، وهذا الشّرطُ هو معنى قولِه: "إذا منعوه (أفعلَ) في الذكورِ"؛ لأن منْعَ (أفعلَ) يستلزمُ وجود (فعلان)، وقد تقدمَ أنّ (أفعل) الذي للألوانِ والعيوبِ مؤنثُه ممدودٌ كـ(أحمر) و(حمراءَ)، وأمّا (أفعلَ) الذي للتّفضيلِ فمؤنثُه (فُعْلى) بِضَمِّ (الفاءِ)، وقد مرَّ أنّه من المقصورِ. [(٧)]

ومن المقصورِ " كلُّ اسمٍ يُزادُ عليه ميمٌ "[(٨)] وذلك ثلاثةُ أنواعٍ: الأوّلُ: اسمُ المفعولِ المعتلِّ اللامِ من غيرِ الثلاثيِّ المجرّدِ كـ(مُعْطَى) و (مُشْتَرَى) ؛ لأن نظائرَهما: (مُكْرَم) و (مُشْتَرَك) [(٩)]، الثّاني:

---

(١) ينظر: كتاب سيبويه: ٢٥٥/٤، ٢٥٦، والمقتضب: ٨٨/٣، ٣٣٨، والأصول في النحو: ٤١٠/٢، والمخصص: ٩٥/١٥

(٢) ينظر: المخصص: ٩٥/١٥، ٩٦، والأصول في النحو: ١٩٤/٣ .

(٣) " الشِّعْرى كوكبٌ خلفَ الجوزاء يطلُعُ أولَّ الخريفِ صبحًا ...وهما شِعْريان: الشِّعرى العَبور والشّعْرى الغُمَيْصاء " شمس العلوم: ٣٤٨٣/٦.

(٤) جاء في لسان العرب (١١/ ١٤٣) الحَجَل الذُّكُورُ مِنَ القَبَج، الْوَاحِدَةُ حَجَلة وحِجْلانٌ، والحِجْلى اسْمٌ لِلْجَمْعِ، ولم يجئ الْجَمْعُ عَلَى فِعْلى إِلّا حَرْفَانِ: هَذَا والظِّرْبى جَمْعُ ظَرِبان، وَهِيَ دُوَيْبَّة مُنْتِنَةُ الرِّيح " وقريب منه عند الجوهري في الصحاح: ١٦٦٧/٤، وفي المعجم الوسيط: ٧١٠: "و(القبج) الحجل وهو جنس طيور تصاد من فصيلة الطيهوجيات " .

(٥) كذا في الأصل ومصورته منه: وسكون العين إذ كان .

(٦) ينظر: المنقوص والممدود: ١٥، والمقتضب :٨٣/٣، والأصول في النحو: ٤١٦/٢، و المقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٠ وينظر كتاب سيبويه: ٦٤٩/٣.

(٧) عند شرحه لقول الحيدرة: (وأنثى أفعل) .

(٨) ينظر: المنقوص والممدود: ١٤، والممدود والمقصور للوشاء: ٣٧، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٨ .

(٩) ينظر: كتاب سيبويه: ٥٣٦/٣، والمقتضب: ٧٩/٣، والأصول في النحو: ٤١٥/٢، و المقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٦.

اسمُ الزّمانِ والمكانِ (١)، الثّالثُ: المصْدرُ (٢)، مما قياسُه في الثّلثي والثّالثِ(٣) [١٧٢/أ] (مَفْعلٌ) (٤) بفتحِ (الميمِ) و (العينِ) و(مُفْعَل) بضمِّ (الميم) وفتحِ ما قبلَ الآخرِ كـ(مَغْزَى) في الأوّلِ و(مُلْهى) في الثاني؛ لأن نظائرهما (مَقْتَل) و(مُخْرَج)، وكذا المثالُ الواويُّ المنقوصُ كـ(مولى) فإنّه داخلٌ تحتَ قولِه: "وكلُّ اسمٍ يزادُ عليه ميمٌ" فهو مقصورٌ (٥)، وإنْ خرجَ من قاعدةِ ابنِ الحاجبِ؛ لأن نظيرَه (موعِدٌ) بكسرِ ما قبلَ الآخرِ لا بفتحِه.(٦)

"و" من أوزانِ المقصورِ "فعلٌ" ماضٍ "صارَ ذا عددٍ كثيرٍ" بأنْ يكونَ أكثرَ من ثلاثةِ أحرفٍ نحوُ (أعطى) في الرُّباعيّ، و(اشترى) في الخماسيّ، و(احْبَنْطَى) في السداسيّ. (٧)

"ومنهُ" أيْ: ومن المقصورِ "جمعُ فِعْلَة" بكسرِ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ) (٨) نحوُ :(جِزَى) جمعِ (جِزْيَةٍ) بـ(الجيمِ) المكسورةِ، و(الزّاي) (٩) اسمٌ لخراجِ الأرضِ وما يؤخذُ من الذّمى (١٠)؛ لأن نظيرَها (قِربٌ) جمعُ (قِرْبَةٍ) بكسرِ (القافِ) فيهما، "فالتزِمْه" أي التزِمْ جميعَ ما مرَّ في هذا المختصرِ من الأوزانِ، "وفُعْلَة" أيْ معَ التزامِ (فُعْلَة) بضمِّ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ) نحو: (عُرَى) جمعِ (عُرْوَةٍ)

(١) ينظر: المقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٦، ونظم الفرائد وحصر الشرائد: ١٥٨، وشرح شافية ابن الحاجب: ٤١٦/٢.

(٢) ينظر: المقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٦، ١٢٨، وكشف المشكل في النحو ٥٥١، وشرح شافية ابن الحاجب: ٤١٦/٢.

(٣) كذا في الأصل ومصورته: 

(٤) جُعِل في كشف المشكل: ٥٥١ على نوعين لا ثالث لهما: الأول ما كان مصدرًا والثاني ما كان غير مصدر، لكنه أشار في المصدر إلى أنه قد يكون ظرفًا، وفي نظم الفرائد وحصر الشرائد: ١٥٩: " اسم المصدر واسم الزمان واسم المكان يستوي كله في ذلك بلفظ واحد ".

(٥) يقول الوشاء [ت- ٣٢٥هـ]: " اعلم أن كل اسم من ذوات الواو والياء في أوله ميم مفتوحة كانت أو مضمومة فهو مقصور يكتب بالياء .." الممدود والمقصور: ٣٧.

(٦) في الحاشية " وهذا أيضًا لم يشمله تعريف ابن الحاجب، ولا ذكره الشيخ - لطف الله به -- كما نبه على غيره مما لم يشمله التعريف .

(٧) ينظر: كشف المشكل في النحو: ٥٥١، علمًا بأن هناك من يقصر مصطلح المقصور والممدود على الاسم فقط، ولا يُدخل فيه الفعل، يقول المهلبي [ت-٥٨٣هـ]: "اعلم أولاً أنه لا يقال ممدود ولا مقصور إلا في الأسماء خاصة، فلا يقال في (مشى) == إنه مقصور ولا في (جاء) إنه ممدود، وإن أشبه لفظ الممدود والمقصور ": نظم الفرائد وحصر الشرائد: ١٦٣، ويقول السيوطي: " ولا يوصف بذلك غير الأسماء كـ(يخشى) .. ولا المبنيات كـ(متى) .. وما يقع في عبارة بعضهم من إطلاق ذلك عليها تسامح ": همع الهوامع: ٣٤٦/٣.

(٨) ينظر: كتاب سيبويه: ٥٤١/٣، والمنقوص والممدود: ١٣، والمقتضب: ٨٣/٣، والأصول في النحو: ٤١٦/٢، ٤٤١، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٨، ١٢٩ .

(٩) ينظر: المقصور والممدود لابن ولاد: ٢٥، والممدود و المقصور للوشاء: ٣٥ .

(١٠) جاء في أساس البلاغة: ٢٣٧/١ "يقال للجزية الخراج فيقال: أدى خراج أرضه والذمي خراج رأسه "، وفي تاج العروس: ٥٠٩/٥، ٥١٠ " وقيل للجزية التي ضربت على رقاب أهل الذمة: خراج، لأنه كالغلة الواجبة عليهم ".

و(كُنَى) جمعِ (كُنيةٍ)لأنَّ نظيرَهما (قُرَبٌ) جمعُ (قُرْبَةٍ) بضمِّ القافِ فيهما [(١)]، وأما جمعُ (فَعْلة) بفتحِ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ) فقدْ مرَّ في الممدودِ[(٢)].

"تَحْظَ بالأجْرِ الكبيرِ" جَزْمُ (تَحْظَ) بكونِه جوابَ الأمرِ، وهو (التزمهـ) الذي ضميرُه راجعٌ إلى (المختصرِ) في قولِه: "بمختصرٍ قصيرٍ"، و (الواوُ) في قولِه: (وفِعْلة) واوُ (مع)، فالمعنى التزمْ جميعَ ما تقدّمَ من الأوزانِ معَ وزنِ (فِعْلة) تحظَ بالأجرِ الكبيرِ لحفظِكَ بابينِ عظيمينِ من أبوابِ العربيةِ التي لا تتمُّ معرفةُ الكتابِ والسنّةِ بغيرِهما.

تكميلٌ

نستوفي فيهِ ما تركَه النّاظمُ من أوزانِ المقصورِ، وقدْ ذكرنا عذرَه في ذلِكَ من المقصورِ[(٣)]، "وكلُّ مذكرٍ يأتي لفعْلا" [١٧٢/ب]بالمدِّ كما مرَّ، وإنّما قُصِرَ للضّرورةِ، وهو بفتحِ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ) نحوُ (أَحْوَى) [(٤)] مذكرُ (حوّاء)؛ لأن نظيرَه (أحمر). [(٥)]

"وفَعْلَى" بفتحٍ فسكونٍ أيضًا "جمعُ وصفٍ كـ(الأسيرِ)" و(القتيلِ) قياسًا، فإنّ (فَعيلا) بمعنى (مفعولٍ) إذا كانَ بمعنى البلاءِ والآفةِ يُجْمَعُ على (فَعْلى) بفتحٍ فسكونٍ [(٦)]، وأمّا إذا جُمِعَ على غيرِ قياسٍ فقدْ مرّ أنّه من الممدودِ. [(٧)]

ومن المقصورِ "فِعّيلا" بكسرِ (الفاءِ) وتشديدِ (العينِ) المكسورةِ، وهذا الوزنُ جاءَ سماعًا في مصادرَ محصورةٍ لا يُقاسُ عليها [(٨)]، وهيَ موضوعةٌ للمبالغةِ كـ(الحِثّيثَى) و(الرِّمِّيّا) و(الحِجّيزى) مصادرَ لـ(فاعَلَ)، و(الدِّلّيلَى) و(القِتّيتَى) و(الهِجّيرَى) و(الخِلّيفَى) مصادرَ (فَعَلَ)، فالثّلاثةُ الأولُ بمعنى كثرةِ (التّحاثِ) و (التّرامِي) و (التّحاجُزِ)، والأربعةُ الآخرةُ بمعنى كثرةِ (الدّلالةِ) وكثرةِ (القَتِّ)، وهيَ النّميمةُ، و(القتّاتُ) (النّمامُ)، قالَ النبيّ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلمَ: "لا يدخلُ الجنةَ قتّاتٌ" [(٩)]،

---

(١) ينظر: كتاب سيبويه: ٥٤١/٣ , والمنقوص والممدود: ١٣ ، والمقتضب: ٨٣/٣ ، والأصول في النحو: ٤١٦/٢ ، ٤٤١ ، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٨ .

(٢) عند شرحه لقول الحيدرة: (فمدوا جمع فَعْلة غير حرف) .

(٣) لعله يعني ما قاله في بدء شرحه للمقصور: " قد أغنى ذكر أغلب الممدود عن ذكرها ، لكنه ذكر بعضها لتحصل بها زيادة ملكة" وذلك عند شرحه لقول الحيدرة: " وللمقصور أوزان فمنها ".

(٤) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب: ٤١٦/٢ ، وجاء عند ابن سيده: " ثابت في الشفة الحوة وهو أن يضرب إلى السواد، وشفة حواء ورجل أحوى " بنصه من المخصص: ١٤٢/١ .

(٥) جاء في الحاشية: "هذا لم يشمله تعريف ابن الحاجب، ولم يذكره في التفصيل كغيره " أ.هـ بحروفه، ولعله قصد بغيره الرضي في شرحه للشافية حيث لم يزد على ما ذكره الشارح، ينظر شرح شافية ابن الحاجب: ٤١٦/٢ .

(٦) ينظر: كتاب سيبويه: ٦٤٧/٣ ، والمنقوص والممدود: ١٥ ، والمقتضب: ٢١٧/٢ ، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٩ ،

(٧) عند شرحه قول الحيدرة: (وكل جمع على فُعَلاءِ) .

(٨) ينظر: كتاب سيبويه: ٤١/٤ ، ٢٦٤ ، والمنقوص والممدود: ١٦ ، والأصول في النحو: ١٠٩ ، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٠ ، وشرح شافية ابن الحاجب: ١١٧/١ .

(٩) الحديث: متفق عليه عند الشيخين عن حذيفة رضي الله عنه البخاري: ١٧/٨ ، ومسلم :١٠١/١ .

وكثرةُ (الهُجْرِ) بضمِّ (الهاءِ) أي الفُحْشِ والهذْرِ، وكثرةُ (الخِلافَةِ) بمعنى شُغْلِها في قولِ عمرَ - رضيَ اللهُ عنه - "لولا الخِلِّيفى لأذَّنْتُ"(١)، قالَ الرّضِيُّ: " وأجازَ بعضُهم المدَّ في جميعِ ذلك ". (٢)

"ثمّ مَا جَا على التَّأنيثِ" بـ(الألفِ)، وهذا القيدُ معلومٌ؛ لأن الكلامَ في المقصورِ "من جنسِ المسيرِ" كـ(الخَيْزَلى) لمشيةٍ للنِّساءِ فيها تثاقلٌ بـ(الخاءِ) المعجمةِ و(الزّاي) بينهما مثناةٌ تحتيةٌ، و(البَشَكَى) لسيرٍ سريعٍ ، ويقالُ: (ناقةٌ بَشَكَى) و (المرَطَى) لضربٍ من العدْوِ، و (القَهْقَرَى) للرّجوعِ على الوَرَى، ونحوِ ذلكَ. (٣)

"كذا مقصورُ مصدرِ كلِّ فعِلٍ" ماضٍ "على" وزنِ "فَعِل" بفتحِ (الفاءِ) وكسرِ (العينِ) "الشّهيرِ مَدَى الشُّهورِ"، " إذا جَا" قُصِرَ للضّرورةِ، " وَصْفُه فَعْلان" بفتحِ (الفاءِ) وسكونِ (العينِ)، "أو جا" قُصِرَ للضّرورةِ أيضًا "على فَعِل" بفتحِ (الفاءِ) وكسرِ (العينِ)، "وأفْعَل"(٤) نحو (الطَّوَى) مصدرُ [١٧٣/أ] (طَوِيَ) فهو (طيّان)، و(الصّدى) مصدرُ (صَدِيَ) فهو (صَدٍ)، و(العَشَى) مصدر (عَشِيَ) فهو (أَعْشَى)؛ لأن نظائرَها (العَطَشُ) مصدرُ (عطِشَ) فهو (عطْشانُ)، و(الفرَقُ) مصدرُ (فَرِقَ) فهو (فَرِق)، و(الحَوَلُ) مصدرُ (حَوِلَ) فهو (أحولُ) (٥)، "فاقْفُ سيري" في ضبطِ هذه الأوزانِ.

وأمّا (الغرا) اسمٌ لما يُلْصَقُ بهِ الشّيءُ - قيلَ يكونُ من السّمكِ -(٦) فشاذٌّ إذ المشهورُ فيه المدُّ، وقالَ ابنُ هُطَيْلٍ[ت:٨١٢هـ] (٧): " إذا فُتِحَتْ (الغينُ) قَصرْتَ، وإذا كُسِرَتْ مَدَدْتَ، تقولُ منه: (غَرَوْتُ

---

(١) لم أجد الأثر بنصه في كتب الآثار، لكنه موجود عند ابن أبي شيبة بلفظ آخر لا يخلو من موضع الشاهد: " لو كنت أطيق الأذان مع الخليفى لأذنت ": ٤٣/٢ ، وبلفظ قريب منه أيضًا: " لو أطقت الأذان مع الخليفى لأذنت " ٤٥/٢ ، وهذه الرواية الثانية عند الطحاوي في شرح مشكل الآثار: ٤٤٤/٥ ، قال عنها محققه شعيب الأرناؤوط: " رجاله ثقات رجال الصحيحين " والأثر في كثير من كتب اللغة كما أورده الشارح، وهو في بعض منها موافق لما عند ابن أبي شيبة، ينظر: شمس العلوم: ٣ / ١٨٨٦١ ، والمخصص: في غير موضع: ١٣٤/٣ ، ١٥٥/١٤ ، ٤/١٦ ، ولسان العرب: ٨٤/٩.

(٢) شرح شافية ابن الحاجب: ١١٧/١ ، وينظر: المنقوص والمقصور: ١١ ، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٠ .

(٣) ينظر :المنقوص والممدود: ١٥ ، ١٦ ، والمقصور والممدود لابن ولاد: ١٣٠ ، وشرح كافية ابن الحاجب: ٤١٦/٢ .

(٤) ينظر:كتاب سيبويه: ٥٣٧/٣ ، ٥٣٨ ، ٢١/٤ ، والمنقوص والممدود: ١١ ، والمقتضب: ٨٠/٣ ، والأصول في النحو: ٤١٦/٢ ، والمخصص: ١٠٣/١٥ .

(٥) ينظر: المقصور والممدود لابن ولاد: ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٦) أنه يؤخذ من السمك أمر ذكره أهل اللغة: ينظر: الصحاح: ٢٤٤٥/٦ ، واللسان :١٣١/١٥ ، والمغرب في ترتيب المعرب: ١٠٢/٢ ، (غ ر ي) وفيه: (غ ر ي): " (الغِرَاءُ) مَا يُلْصَقُ بِهِ الشَّيْءُ يَكُونُ مِنْ السَّمَكِ (وَالغَرَا) بِالْفَتْحِ وَالْقَصْرِ لُغَةٌ " ولعل الأقرب أن منه ما كان يؤخذ من بعض أنواع السمك .

(٧) علي بن محمد بن هطيل، أحد كبار نحاة اليمن، له شروح على أهم مدونات النحو العربي كالمفصل ومقدمة ابن بابشاذ وكافية ابن الحاجب، يقرض الشعر، وله قصيدة في النحو والذب عنه مطلعها:

هل النحوُ إلا بحرُ علمٍ بخوضُه صبورٌ على درسِ الدفاترِ مقبلُ

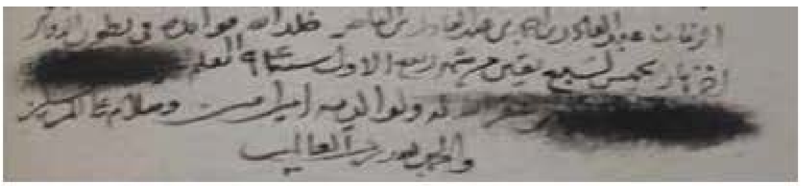
ترجم له ابن أبي الرجال ترجمة ضافية منها قوله: " علامة النحاة ومفخرة اليمنين .. حري بأن يسمى سيبويه اليمن .. " مطلع البدور ومجمع البحور: ٣٣٥/٣ ، وترجم له شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني في البدر الطالع :٣٣٦/١-٣٣٧ وغيره.

الجِلْد): (أَلْصقْتُه بالغِراءِ) انتهى [١]، يريدُ أنّه معَ كسرِ (الغينِ) من (غَزَوْت) لا مِن (غَرِيْت) بكسرِ (الراءِ) فلا شذوذَ فيه. [٢]

وإنّما قُلْنا: "كَذَا مقصورُ مصدرِ كلِّ فِعْلٍ" ليجريَ في نحوِ: (خِزْي) مصدرَ (خَزِيَ) فهو (خَزْيَان)، فإنَّه حَمَلَ القيودَ ولمْ يكنْ مقصورًا، ومثْلُه (رَيٌّ) (رَوِيَ) فهو (ريَّانٌ). [٣]

تنبية:

قالَ ابنُ الحاجبِ وغيرُه: "والسماعيُّ من المقصورِ نحوُ (العَصا) و (الرَّحَى)، ومن الممدودِ نحوُ (الخفاءِ) و(الآباءِ) ممّا ليس لهُ نظيرٌ "[٤] ولا يَنْفعُ وجدانُ نحوِ (حَمَل) في المقصورِ، ولا (فِعال) في الممدودِ؛ إذ ليسَ نظيرًا قياسيًا كما قُلْنا في (مُعطى) اسمَ مفعولٍ، فإنَّ نظيرَه في الصحيحِ اسمُ مفعولٍ وهو (مُكْرَم)، وأسماءُ المفاعيلِ واحدةٌ. [٥] [٦]



(١) ابن هطيل مسبوق بأقوال من سبقه، ومنهم الفراء الذي يقول: " الغراء الذي يغرى به مكسور ممدود، وإذا فتح أوله قصر " المنقوص والممدود: ٢٤ ، وينظر: المقصور والممدود لابن ولاد :٧٩، ٨٠، ١٢٥ والمقصور والممدود للوشاء: ٥٠ والمخصص: ١٠٣/١٥ .

(٢) لعله يرد بذلك على ما قرره ابن الحاجب في الشافية من أن " الغراء شاذ " ينظر: الشافية في علم التصريف: ٥١، كما ينظر: شرحها للرضي: ٤١٦/٢ .

(٣) ينظر: كتاب سيبويه: ٢١/٤، ٢٢، ٢٣، الأصول في النحو: ١٠٧/٣ .

(٤) في الأصل: "يحمل عليه" لكنه قد ضرب عليه ومصورته مضروبًا عليه:  وهنا ينتهي نص ابن الحاجب كما في الشافية: ٥٢.

(٥) اهتم من أفرد المقصور والممدود بالتأليف بتخصيص أجزاء واسعة لما ورد قليلاً فَقُيِّد بالسماع على نحو ما نجد عند الفراء وابن ولاد والوشاء حيث يذكرون ذلك موزعًا على حروف المعجم .

(٦) جاء هنا قول الناسخ: " انتهى ما نقلته من خط مؤلفه شيخنا العلامة بقية الأعيان ذات الكمال، ونور حدقة الزمان عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر، خلد الله فوائده في بطون الدفاتر، آخر نهار الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة ١١٩٤ [هـ] بقلم ... غفر الله له ولوالديه، آمين آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ".

وللأسف: فإن اسم الناسخ قد عبث عليه يد آثمة فمحته، ومصورة ذلك من المخطوط :

وظاهر ذلك الطمس، وقد جاء في حاشية النسخة في آخرها: بلغ مقابلة من الأم بعون الله .

المصادر والمراجع

- أبجد العلوم: صديق حسن خان، أعده: عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي: دمشق: ١٩٧٨م.
- إتحاف الأحباب بدمية العصر الناعتة لمحاسن بعض أهل العصر: أحمد قاطن، مكتبة الإرشاد: صنعاء، ط١: ١٤٢٩هـ.
- أساس البلاغة: الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١/١٤١٩هـ: ١٩٩٨م.
- الأصول في النحو: أبو بكر محمد بن سهل بن السراج، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط٤: ١٤٢٠/١٩٩٩م.
- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت ، ط١٤: ١٩٩٩م.
- أعلام المؤلفين الزيدية: عبد السلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية: عمّان ،ط١: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت -(دت).
- تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي، دار الفكر، بيروت - ١٩٩٤م/١٤١٤هـ.
- تاريخ الأدب العربي - الجزء الخامس: كارل بروكلمان، ترجمة: أ. د. السيد يعقوب بكر، و أ. د. رمضان عبد التواب، الهيئة العامة المصرية للكتاب:١٩٩٣م
- تاريخ بني الوزير: أحمد الوزير، مصورة عن نسخة مكتبة الأمبروزيانا رقم D٥٥٦:
- التكملة (المقتصد في شرح التكملة لعبد القاهر الجرجاني) لأبي علي الفارسي، تحقيق: أحمد بن عبد الله الدويش، جامعة الإمام محمد بن سعود: الرياض، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- الرسالة: الإمام الشافعي: تحقيق: أحمد شاكر، دار الكتب العلمية: بيروت.
- السيرة المنصورية: أبو فراس بن دعثم، تحقيق: د. عبد الغني محمود عبد العاطي، دار الفكر المعاصر: بيروت، ط١: ١٤١٤هـ ١٩٩٣م. الشافية في علم التصريف
- شرح شافية ابن الحاجب: الرضي الاستراباذي، تحقيق: محمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد نور الحسن، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٣٩٥-١٩٧٥م.
- شرح كافية ابن الحاجب: رضي الدين الاستراباذي، تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس: بنغازي، ط٢: ١٩٩٦م.
- شرح مشكل الآثار : أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة: بيروت،

ط١: ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

- شرح ملحة الإعراب وسبحة الآداب: الحيدرة اليمني: تحقيق ودراسة: حميد عبده أحمد النهاري، رسالة لنيل الماجستير بإشراف: عبد المنعم أحمد صالح، جامعة تعز: ٢٠٠٨م.
- شرح نقائض جرير والفرزدق: أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد إبراهيم حور و وليد محمد خالص، المجمع الثقافي: أبو ظبي، ط٢: ١٩٩٨م.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري، تحقيق: د. حسين العمري وآخرَين، دار الفكر: دمشق، ط١: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- الصحاح :الجوهري ،تحقيق:أحمد عبد الغفور عطا،دار العلم للملايين:بيروت، ط١: ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح): محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية: القاهرة، ط١: ١٤٠٠هـ.
- صحيح مسلم: بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع: الرياض، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م.
- فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء: محمد سعيد طليح، أحمد محمد عيسوي الهيئة العامة للآثار ودور الكتب، صنعاء: ١٩٧٨م.
- القاموس المحيط: الفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط٥: ١٤١٦/١٩٩٦م.
- كتاب سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق:عبد السلام هارون، دارالجيل: بيروت ط١ :دت.
- كشف الظنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي: بيروت.
- كشف المشكل: علي بن سليمان الحيدرة، تحقيق: هادي عطية مطر الهلالي، دار عمار - عمّان - ط١: ١٤٢٣/٢٠٠٢م.
- كشف المشكل، علي بن سليمان الحيدرة(خ) مصورة عن مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية: صنعاء، رقم ٤/ ٣٢٨.
- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر: بيروت دت.
- المخصص: ابن سيده، دار الكتب العلمية: بيروت.
- مصادر التراث في المكتبات الخاصة في اليمن: عبد السلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي: صنعاء، ط١: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن: عبد الله الحبشي، المجمع الوطني - أبو ظبي – ٢٠٠٤م.
- المصباح المنير: أحمد بن محمد الفيومي، المطبعة الأميرية: القاهرة، ط٥: ١٩٢٢م.

- المصنف في الأحاديث والآثار: ابن أبي شيبة، ضبط محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية: بيروت، دت.
- مطلع البدور ومجمع البحور في تراجم علماء الزيدية: ابن أبي الرجال، تحقيق: عبد الرقيب حجر، منشورات أهل البيت للدراسات الإسلامية: صعدة، ط١: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي: بيروت، ط١: ١٩٩٣م.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر - بيروت - ط٢: ١٩٩٥م.
- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون،المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع - استانبول (دت).
- المغرب في ترتيب المعرب: أبو الفتح المطرزي، تحقيق: محمود فاخروي وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد: حلب، ط١: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ١٤١٥/١٩٩٤م.
- المقصور والممدود لابن ولاد، تحقيق: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مكتبة الخانجي: القاهرة، ط٢: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- المقصور والممدود للفراء: تحقيق: عبد الإله النبهان ومحمد خير البقاعي، دار قتيبة: دمشق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- الممدود والمقصور للوشاء، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي: القاهرة، ١٩٧٩م.
- المنقوص والممدود للفراء، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار المعارف، ط٣: ١٩٨٦م.
- الموافقات في أصول الشريعة: لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة: بيروت.
- نزهة رياض الإجازة المستطابة بذكر مناقب المشايخ أهل الرواية والإصابة: عبد الخالق المزجاجي، تحقيق: مصطفى عبد الكريم الخطيب وعبد الله محمد الحبشي، دار الفكر: بيروت، ط١: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- نظم الفرائد و حصر الشرائد: مهلب بن حسين بن بركات المهلبي، تحقيق: د. عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان - الرياض - الطبعة الأولى ١٤٢١/ ٢٠٠٠م.
- نفحات العنبر في تراجم أعيان وفضلاء اليمن في القرن الثاني عشر: صارم الدين إبراهيم بن عبد الله الحوثي الصنعاني، تحقيق: عبد الله بن عبد الله بن أحمد الحسيني، مؤسسة التاريخ العربي: بيروت، ط١: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- النفس اليماني والروح الروحاني في إجازة القضاة بني الشوكاني: عبد الرحمن بن سليمان الأهدل، تحقيق :عبد الله محمد الحبشي، دار الصميعي :الرياض، ط١ : ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- نيل الوطر من تراجم علماء اليمن في القرن الثالث عشر: محمد بن محمد يحيى زبارة، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع :السيوطي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية - القاهرة - (د. ت).
- الوافي بالوفيات: الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ط١: ١٤٢٠هـ.
- وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت - (دت).